

مَجْلِسُ الْغَابَةِ

وَرِحْلَةٌ عَبْرَ الْأَزْمَانِ

رامِي الجمل

مَجْلِسُ الْغَابَةِ

وَرِحْلَةٌ عَبْرَ الْأَزْمَانِ

رامي الجمل

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

بســـم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، يســـمع دعاء الخلائق ويجيب، يؤنس الوحيد، ويَهدي الشـــريد، ويُذهب الوحشـــة عن الغريب، من توكل عليه كفاه، ومن التجأ إليه فالفرج قريب، من اعتصم به فهو مولاه، ومن ارتجاه مخلصًا لا يخيب، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له المهيمن والرقيب، وأشـهد أن سـيدنا محمدًا عبده ورسـوله المقرب والحبيب، خلقه نعمة، ومبعثه رحمة، وشـمس سـنته لا تغيب، اللهم صـلِّ وسـلِّم وبارك عليه وعلى آله وصحبه.

أما بعدُ

فيا أيها القارئُ الكريم، ويا أيتها النفسُ التي تبحثُ عن نورِ اليقين، ويا أيها القلبُ الذي يشتاقُ إلى حكمةِ الأولين، ويا أيها العقلُ الذي يرنو إلى معرفةِ الغابرين.

بين يديكَ الآنَ روايةٌ فريدة، وحكاياتٌ عديدة، نُسِجَتْ خيوطُ كلماتها بنسجٍ دقيق، وصِيغَتْ ألفاظُها بأسلوبِ الحوارِ والتشويق، إنها ''مجلس الغابة ورحلة عبر الأزمان قصصُ الأنبياءِ والعبرُ في ندوةِ الخلان''، تلك المجالسُ التي تجتمعُ فيها الحيواناتُ تحتَ ســدرةٍ عتيقة، تتذاكرُ أحوالَ الأممِ الغابرة، وتتناقلُ قصـــصَ الأنبياءِ الكرام، والطغاة اللئام وما جرى لهم من عظاتٍ وعبر.

ففي كلِّ فصـــلٍ من فصـــولِ هذه الرواية، نغوصُ في بحرٍ من الأحداث، ونحلقُ في فضـــاءٍ من الأسـئلةِ والنقاشـات، حيثُ تتعاقبُ الأصـواتُ بين الثعلبِ المحتال، والأسـدِ المهيب، والحمامةِ الوديعة، والفيلِ الرزين، والبومِ الحكيم، يتساءلون ويتحاورون، ويتجادلون

ويتفكرون، في قصصِ الأنبياءِ والمرسلين، وفي مآسي الطغاةِ والجبارين، ليخرجوا في النهايةِ بعبرةٍ تنيرُ دروبَهم، وموعظةٍ تهدي قلوبَهم.

وهذه الرواية ليســت مجردَ حكاياتٍ تُروى للتسـليةِ والترفيه، بل هي رحلةٌ في أعماقِ التاريخ، وغوصٌ في معاني العبر، تستلهمُ من القرآنِ الكريمِ وآياتِه، وتستضـيءُ بسـنةِ النبيِّ الأمينِ ﷺ وهداياتِه، كلُّ قصــةٍ فيها تذكيرٌ بقدرةِ اللهِ وعظمتِه، وكلُّ موقفٍ فيها تحذيرٌ من عاقبةِ الكبرِ والجحودِ ومَعصِيَتِه.

جمّعتُ فيها كل ما هو مَوثُوق ومَحسُوب، وباعَدْتُ واطّرَحتُ كُلَّ مَغلُوطٍ ومَكذُوب، كَما سَـلَّطتُ الضَـوءَ على عَرضِ لُبِّ القصّـةِ بِاخْتِصـارٍ دُونَ إخلال، مَبنِيّة بأسـلُوبِ الإثارةِ والتشْويقِ والمحاوَرَة بإجلال، مَروِيّة على أَلْسِـنَةِ الحيَواناتِ، لجذبِ انتِباهِ القارئِ دونَ إملال أو شــتات، وهي قَرِيبَةٌ لمختلفَ العُقولِ والأَفهام، إذْ كانَ جمعُها تســليةً للشــابِ القارئِ وإرشاداً للعَوامّ.

وقد حرصنا في هذه الروايةِ على أن نربطَ بين الماضي والحاضر، وبين القصةِ والواقع، لنُريَ القارئَ أن تلك الأحداثَ التي جرَتْ للأقوامِ الســابقة، ما هي إلا صــورٌ تتكررُ في كلِّ زمانٍ ومكان، فكما كانَ فرعونُ بالأمس، هناك فراعنةٌ اليوم، وكما كانَ قارونُ بالأمس، هناك مترفونَ مغرورونَ في كلِّ عصرٍ وحين، وكما عبدَ بنو إسرائيلَ العجلَ بالأمس، هناك من يعبدُ اليومَ عجلَ المالِ والهوى والشهرة والنفوذ.

نســأَلُ اللهَ أن ينفعَ بها قارئَها، وأن يجعلَها خالصــةً لوجهِه الكريم، وأن تكونَ نوراً يهدي إلى سواءِ السبيل، ودليلاً إلى طريقِ الحقِّ والرشاد، وما توفيقي إلا بالله، عليه توكلتُ وإليه أنيب.

وإليكم أيها الأحبةُ فصولَ هذه الرواية، التي تضـمُّ عشـرين فصلاً، لكلٍّ منها عنوانُها ونكهتُها وعبرتُها:

الفصل السادس عشر: في قصةِ يونسَ ذي النون، وكيفَ نجَّاه اللهُ من ظلماتِ بطن الحوتِ

الفصل السابع عشر: قصةِ داودَ وسليمانَ عليهما السلام، وكيفَ آتاهما اللهُ الحكمةَ والملكَ العظيمَ والإنعام

الفصل الثامن عشر :في قصةِ نبيِّ اللهِ عيسى ابنِ مريم، ونبيِّي اللهِ زكريا ويحيى

الفصل التاسع عشر :في قصة أصحابِ الفيلِ العجيب، وعبرةُ من يستهزئُ بالدينِ في كلِّ زمانٍ وحين

الفصل العشرون والأخير :في قصةِ خاتمِ الأنبياءْ، سيدنا محمدٍ الصادقِ الأمين، رحمةُ اللهِ للعالمين، وشفيعُنا يومَ الدين

فمن أحبَّ أن يسلكَ دروبَ العبر، ويجتنيَ ثمارَ الحكم، ويغوصَ في بحارِ القصصِ القرآني والنبوي، فليصـــحبْنا في هذا المجلس، وليفتحْ قلبَه لهذه الحكايات، عله يجدُ فيها لنفسِه خلاصاً، ولروحِه ارتقاءً، ولعقلِه نوراً، ولقلبِه سكينةً وهدىً وصفاءً.

واللهَ أسألُ أن يجعلَ هذا العملَ خالصاً لوجهِه، وأن ينفعَ به كاتبَه وقارئَه، إنه سميعٌ مجيبٌ، رؤوفٌ رحيم.

تمت المقدمة... وتليها فصولُ الرواية

الفصل الأول

داءُ الكِبرِ وقِصَّةُ السُّقوطِ المُذهِل

مجلسُ الحكمةِ تحتَ السدرةِ العتيقة

في غابةٍ تَهُفُّ عليها نسـماتُ السـحرْ، وتُغَنِّي الطيورُ فيها بأعذبِ الأوتارِ والزَّجَرْ، كانت الأشـجارُ شـامخةً كأعمدةِ المسـاجدِ في القَدَرْ، والجداولُ تنسـابُ كالفضـةِ بينَ الصخورِ والزَّهَرْ، كان المكانُ يَنبِضُ بالحياةِ والجمالْ، وتكتسي أرضُه من العشبِ أبهى حُلَّةٍ وخلالْ.

وفي وسـطِ هذا الفردوسِ الأرضـيِّ الجميلْ، كانت هناك سِـدرةٌ عظيمةٌ تَضـربُ بجذورِها في عمقِ التاريخِ الطويلْ، أغصـانُها كأذرعِ الدهرِ تَمتدُّ إلى السـماءِ بالترحابِ والتبجيلْ، تحتَ هذه السدرةِ اجتمعَ أهلُ الغابةِ الكرامْ، في مجلسٍ تَعْقِدُه الحكمةُ وتَحْضُرُه الأحلامْ.

اجتمعوا يتذاكرونَ أمرَ دنياهم ويَتَعَظون، ويتساءلونَ عن خالقِهم ويتفكرون. وكان من بينِ الحاضرين:

·السُّلحفاة'' سُلافة'' – رَاويةُ الأزمانِ وحافظةُ الأخبارْ، التي شَهِدَتْ من العصورِ ما لا يُحصى ولا يُعَدّْ، وجُعِلَتْ حكمتُها كالنورِ في ظُلمةِ الجَهْلِ إذا اتَّقَدْ.

·البوم'' بَصير'' – حكيمُ الغابةِ وفيلسوفُها الأوحدْ، الذي يرى في الظلامِ ما لا تراه العيونُ في الضياءِ وأَجْهَدْ.

·الصقر'' مِخْلَب'' – صاحبُ الجناحِ القويّ والنظرِ الثاقبْ، المتباهي بعلوّه وسرعةِ انقضاضِه كالسهمِ الصائبْ.

·الغزالة'' رَشاقة'' – رشيقةُ القدِّ سريعةُ الخطا، بعيونٍ واسعةٍ كعيونِ المها، تملؤها الرقةُ والحنانُ والعَطا.

·القنفذ'' شَوْك'' – صغيرُ الجثةِ كبيرُ الحذرْ، يَكُورُ على نفسِه إذا أحسَّ بالخطرْ.

·الدب'' حَصـــيف'' – ضـــخمُ الجثةِ ثقيلُ الخطى، لكنَّ قلبَه أليَنُ من الحريرِ وأصفى.

·الأرنب'' وَجيب'' – ســـريعُ القلبِ خفيفُ الحركةِ دائمُ القفزْ، لا يهدأُ له بالٌ ولا يَسْتَقِرُّ على عَجَزْ.

·الثعلب'' حِيل'' – ذو الدهاءِ والمكرِ الخفيّ، يتلونُ في أحوالِه كألوانِ الطيفِ البديعِ.

·الأســـد'' هَزْبَر'' – ملكُ الغابةِ وســـيدُها المهيبْ، له هَزْبَرَةٌ تَملأُ النفوسَ رهبةً إن أتعبَ أو قَطَبْ.

·النمر'' أَرْقَط'' – سريعُ الوثبةِ قويُّ الشكيمةِ، مرقطُ الجلدِ بديعُ الرسمِ والنقشِ.

·الفيل'' خَطَّار'' – ضخمُ الجسدِ طويلُ النابينْ، يمشي في الأرضِ مشيةَ الملوكِ المتكبرين.

·الغراب'' نَعَّاب'' – صاحبُ الصوتِ الأجشِّ والنبأِ الغريبْ، كثيرُ الأسفارِ يعرفُ أخبارَ القريبِ والغريبْ.

وفي ذلك المساءِ الجميلْ، كانت الشمسُ تودِّعُ الأفقَ بحمرةِ الخجلْ، والطيورُ تُرَتِّلُ ألحانَ المساءِ على عَجَلْ، وإذا بالأرنب "وَجيب" يعدو مسرعاً وقد نَفَشَ فروه من الفزعِ والهلعْ، وصوته يَعلو بالبكاءِ والنَّزَقِ والصَّدَعْ: "يا أهلَ الغابةِ يا أهلَ المروءةِ والنجدة! أغيثوني فقد نزلت بي نازلةٌ شديدة!"

هبَّ الجميعُ يستمعونَ لما يقولْ، وقال الثعلب "حيل" بدهاءٍ معروفٍ به معقودٍ ومعقُولْ: "ماذا دهاكَ يا وَجيبُ؟ ومَن أَخَافَكَ حتى ارْتَعَدْتَ كالعصفورِ إذا نعبَ الغرابُ واغتربْ؟"

فقال الأرنب "وَجيب" وصوته يَتَقَطَّعُ كالعقدِ إذا انفرطَ وانشَعَبْ: "لقد كنتُ أجمعُ حبَّاتِ التوتِ لأهلي وأطفالْ، أعدو بها فرحاً كأني أملكُ الدنيا بأسرِها وأطيافْ، وإذ بالصقر "مِخْلَب" ينقضُّ عليَّ كالسهمِ المَنكوثْ، يخطفُ حبَّاتي الكريمةَ من بين يديَّ ثم يرميها في الوحلِ بكلِّ جبروتْ! ثم قال كلماتٍ ما زالت ترنُّ في أذني: "إنما العيشُ للأقوى، فهل يستوي من يحلقُ في الأجواءِ مع مَن يزحفُ في الأوحالِ والأدواءِ؟!".

صمتَ الأرنبُ وجميعُ الحيواناتِ تنظرُ إلى الصقر "مِخْلَب" الذي كان جالساً على غصنٍ عالٍ يَتَبَخترُ ويَتَكَبَّرُ في غيرِ اعتدالْ. وكانت نظراتُه تتطايرُ كالشررْ، كأنه ملكُ الغابةِ لا يخافُ من أحدٍ ولا يَزْدَجِرْ.

هنا زأرَ الأسد "هَزْبَر" زأرةً هزَّت أركانَ الغابةِ والعشايا: "يا مِخْلَب! أبهذا تَفْعَلُ بضعفاءِ الغابةِ وأبريائها؟! ألم تعلمْ أنَّ القوةَ أمانةٌ لا سلاحُ عدوانٍ وأذيَّة؟!".

فأجاب الصقر "مِخْلَب" بصوتٍ فيه من الكبرِ ما فيه، ومن العنجهيةِ ما يُخْشَى ويُتَّقَى: "وما أنت وهذه القضية يا هَزْبَر؟! كلٌّ منا يعيشُ كما يريدْ، والأقوى هو من يسودْ، أنا أعلو في السماءِ وأرى ما لا ترون، وأنقضُّ على فريستي كما أشاءُ فأصونُ وأحينْ، أما هذه

الأرانبُ الضـعيفةُ، وهذه القنافذُ الحقيرةُ، وهذه الســلاحفُ البطيئةُ، فما قيمتُهم في مملكةِ الطبيعةِ الرحيبة؟!''.

عمَّ الصـــمتُ أرجاءَ الغابةِ العجيبةْ، واهتزَّتِ الأغصـــانُ من شـــدَّةِ الغريبةْ، عندها رفعت السُّلحفاة ''سُلافة'' رأسَها المُجَعَّدْ ببطءٍ وتؤدةٍ وحكمةٍ عتيدةْ، وقالت بصوتٍ كأنه حفيفُ أوراقِ الخريفِ في ليلةٍ ســعيدةْ: ''يا مِخْلَب، لقد وطئتَ أرضــاً خطيرة، وذكَّرتني بقصَّــةٍ عظيمةٍ قديرة، إنها قصَّةُ الكِبرِ أوَّلَ ما كانْ، وكيفَ أخرجَ صاحبَه من رحمةِ الرحمنْ''.

التفتَتِ الحيواناتُ جميعاً بقلوبٍ خافقة، وأعينٍ من الشَّوقِ براقة. وقال القنفذ ''شَوْك'' وهو يَكُورُ نفسَه في خَجَلْ ويتلفتُ حولَه كالخائفِ من الزللْ: ''أتُحدثينا يا سُلافةُ عمَّا جرى في الأزلْ؟ وهل كان للكبرِ بدايةٌ يا تُرى؟ وهل كان لمخلوقٍ أن يَتَجَبَّرَ على خالقِه فلا يَتَدَبَّرُ الآياتِ والبُشرى؟''.

فأجابت السُّـلحفاة ''سُـلافة'': ''نعم يا صـغاري، إنها قصَّـةُ العالَمِ الأوَّلْ. اروُوا أسـماعَكم وافتحوا القلوبْ، فالحكايةُ من كتبِ الغيوبْ''. ثمَّ أخذتْ في الحديثِ ببطءٍ ووقارْ:

بدايةُ الخلقِ وعبادةُ الملأِ الأعلى

كان يا مكان، في عالَمِ النورِ فوق السماواتُ، كان هناك مخلوقٌ من نارٍ صافية، عابدٌ زاهدٌ في العُزلةِ الخالية، اسمُه ''إبليس''، كان في الملأِ الأعلى له صيتْ، حتى ظنَّ أنَّ أحداً في العبادةِ لا يعلوهُ أو يَشْـبِهُهُ أو يَبيتْ. وكان مع الملائكةِ في طاعةٍ ووداعة، ولكنَّ أصـلهُ كان من نارٍ لا من نورٍ ونَزاهة''.

قاطعتْها الغزالة ''رَشـاقة'' بخوفٍ ورعشـهْ، وقد اتسـعتْ عيناها الجميلتان كالبدرِ في الليلةِ السَّرْحَةْ: ''وما دامَ كان بتلكَ المنزلهْ، كيفَ تغيَّرَ قلبهُ بغُفلهْ؟ وكيفَ لعبادةِ آلافِ السنينَ أن تَذْهَبَ هباءً بلحظةِ كبرٍ وغفلة؟''.

أجابها البوم ''بَصير'' من فوقِ غصنِه العالي، يتأملُ بعينيهِ الثاقبتينِ في الظلامْ: ''يا رَشاقة، إنَّ الكِبرَ لا يأتي فجأة، بل ينمو في قلبِ المتعبِّدِ إذا ظنَّ أن له فضلاً على من سواهُ في الدَّعوة، كان يرى أن عبادتَه أزكى وأطهرْ، وأنَّ مكانتَه فوقَ كلِّ من فُطِرَ من طينٍ يُعْصَرْ، إنها بذرةُ الشرِّ التي تُزرعُ في التُّربةِ الصالحةِ فتُفسدُها، كما يفسدُ العسلُ إذا خالطَهُ السمُّ الزُّعافْ''.

أضاف الثعلب ''حِيل'' بدهائه المعروف، يتلفتُ حولَه كأنه يبحثُ عن فريسةٍ أو مأكولْ: ''ولكن يا بَصير، ألم يكن إبليسُ من الجنِّ كما في الكتبِ والآثارْ؟ فكيفَ كان بين الملائكةِ يُقيمُ ويُقَاسِمُهم الأسحارْ؟''.

أجاب البوم ''بَصير'': ''صدقتَ يا حِيل. لقد كان إبليسُ من الجنِّ، وكانت له منزلةٌ بين الملائكةِ بعبادتِه وطاعتِه، فكان يَعبدُ الله معهم ويُذْكَرُ في مجالسِهم، ولكنَّ أصلهُ كان من نارٍ، والملائكةُ من نورٍ، وكان ذلك الفرقُ كامناً ينتظرُ لحظةَ الامتحانِ لتظهرَ حقيقةُ النوايا''.

تابعت السُّلحفاة ''سُلافة'' الحكايةَ بصوتٍ خافتٍ كهمسِ النسماتْ: ''وصدقتم يا أحبتي، وفي يومٍ من الأيَّامْ، أعلنَ الربُّ جلَّ جلاله عن أعظمِ مشهدٍ عظيم المقامْ، خلقَ اللهُ آدمَ من طينٍ لازبْ، من صلصالٍ كالفخَّارِ إذا نُقِرَ ونُقِبْ، ثمَّ نفخَ فيه من روحِه سبحانه الخالق الواهب، فإذا هو بشرٌ سويٌّ كاملُ الخلقةِ والمواهبْ''.

هنا تقدَّم الفيل ''خَطَّار'' بخطواتِه الثقيلةِ التي تَهُزُّ الأرضَ هزًّا، وصوته الأجشُّ يَملأُ المكانَ عظمةً وإعجابًا: ''وما كان ردُّ فعلِ الملائكةِ الكرامْ؟ وكيفَ استقبلوا هذا المخلوقَ الجديدَ الذي أبدعَ الرحمنُ في تكوينه وإحكامه؟''.

أجابت ''سُلافة'': ''لقد اطَّلعوا على سرِّ الخليقةِ الجديدةْ، وأدركوا بعلمِهم أن اللهَ سيَجعله خليفةً في الأرضِ المديدةْ. ثمَّ جاء الأمرُ الذي لا يُرد، من الواحدِ الأحدِ الفردِ الصمد، أمرَ

الله الملائكةَ أجمعين، أن يســـجدوا لآدمَ ســـجودَ تكريمٍ لا تأليهٍ أو دين. قال تعالى في محكمِ التنزيلْ: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة:34]".

لحظةُ الامتحانِ وسقوطُ المتكبر

اهتزَّتِ الغابةُ لهذا النبأِ العظيمْ، وسادَ سكونٌ مهيبٌ وألفُ نَسيمْ. سأل الأسد "هَزْبَر" بلهفةٍ وقد تمدَّد على صخرتِه العالية، وهديرُه يكادُ يخرجُ من صدرِه كلحظةِ البداية: "وماذا فعل إبليس؟ هل امتثلَ لأمرِ ربِّه كسائرِ الملأِ الأَعيانْ؟".

أجابت "سُلافة" بصوتٍ يجلجلُ كالرَّعْدِ الثقيلْ: "كلُّ الملائكةِ سجدوا في لحظةِ ابتهارْ؛ إلا إبليس... نعم إلا إبليسْ، وقفَ متصلِّباً كالجبلِ الرَّسيسْ، لا يتحركُ ولا يخضعُ ولا يَلينْ، نظرَ إلى آدمَ نظرةَ ازدراءٍ واحتقارْ، ثمَّ قال بصـــوتٍ مملوءٍ كبراً وأَنَفَةٍ وإصـــرارْ: ﴿لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ [الحجر:33]".

صــاح القنفذ "شَـوْك" وهو ينتفضُ من مكانِه كأنه لسـعته نارٌ أو لَظى: "يا للهول! كيف يعترضُ على أمرِ الجليلْ؟! كيف لمخلوقٍ أن يقولَ لخالقِه: "لا"؟!".

أكملت "سُلافة" بأسىً عميقٍ يَغشى قلبَها كغشيانِ الظلامِ للصبحِ المشرقِ: "لم يكتفِ بالعصيانْ، بل تجبَّرَ واستكبرَ وتاهَ في الطُّغيانْ. سأله الربُّ وهو أعلمُ بالعبادْ: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ [الأعراف:12]. فماذا كان الجوابْ؟".

صمتتْ قليلاً ثمَّ رفعتْ رأسَها كالسَّحابْ، ونظرتْ في عيونِ الحاضرينَ نظرةَ من يَروي أعظمَ قصـــةٍ في تاريخِ الأكوانْ: "قال كلمتينِ كانتا نواةَ كلِّ شَـــرٍّ في الوجودْ: ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف:12] ".

هنا انفجرتِ الحيواناتُ في نقاشٍ حامي الوطيسْ، وكأنَّ الغابةَ كلَّها تحولتْ إلى محكمةٍ تبحثُ في أصولِ القضيةِ والتَّفاصيلِ الدقيقة:

قال الأسد'' هَزْبَر'' بهزبرتِه المعهودة: ''انظرنَ إلى كلمةِ (أنا)! إنها أصلُ الداءِ العُضالْ، لقد جعلَ نفسَه مقياساً للخيريةِ والكمالْ''.

وقال البوم'' بَصير'' بحكمته: ''لقد فضَّلَ عنصرَه على عنصرِ غيرِه، واحتقرَ أصلَ آدمَ الطينيَّ في غيرِ اعتدالْ، ولو عَقَلَ لعلمَ أنَّ فضلَ الخشيةِ والتقوى لا يصنعُه النارُ ولا الطينُ ولا الجاهُ ولا المالْ''.

وأضافت الغزالة'' رَشاقة'': ''ألم يعلم أنَّ الفضلَ ليس بالعناصرِ أو الأنسابْ، بل بالتقوى وإخلاصِ المآبْ؟ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات:13]''

وقال النمر'' أَرْقَط'' وهو يتقلبُ على جنبِه كأنه يفكرُ في أصلِ الأمرِ ومآله: ''ولكن يا جماعة، أليس من حَقِّ المخلوقِ أن يَعترضَ إذا رأى نفسَه أفضلَ من غيره؟''.

·فأجابه الثعلب'' حِيل'' بسرعةٍ وحنكة: ''لا يا أَرْقَط، فالاعتراضُ على حكمةِ الخالقِ هو الكُفرُ بعينِه –والعياذُ بالله– إنه كمن يعترضُ على النجارِ لماذا جعلَ هذا الخشبَ أملسَ وذاكَ خَشِنْ، إنها حكمةٌ لا تدركُها العقولُ القاصرةْ، ولا يُحيطُ بها إلا خالقُ البشرِ والسمواتِ الدائرةْ''.

وتدخلَ الدب'' حَصيف'' بصوتِه الأجشِّ الهادئ: ''لقد كان إبليسُ في عبادةِ الله منذ آلافِ السنين، ألا تُكَفِّرُ هذه العبادةُ لحظةَ كِبرٍ واحدة؟''.

·فأجابه البوم'' بَصير'': ''لا يا حَصيف، فالكِبرُ يهدمُ كلَّ شيء. ألم يقلِ النبيُّ ﷺ: ''لا يَدْخُلُ الجَنَّةَ مَن كانَ في قَلْبِهِ مِثْقالُ ذَرَّةٍ مِن كِبْرٍ''؟ [رواه مسلم]. فإذا كان مثقالُ ذرةٍ يمنعُ من دخولِ الجنة، فكيف بمن ملأَه الكبرُ والعنادْ؟''.

·وأضاف الغراب'' نَعَّاب'' بصوتِه الأجشِّ المعهودْ: ''لقد رأيتُ في أسفاري من بني آدمَ من يتكبرون بأموالِهم وأولادِهم، ويحتقرون الفقراءَ والمساكينَ كأنهم ليسوا بشراً مثلَهم، وهذا هو عينُ ما فعله إبليسُ حين فضَّلَ نفسَه على آدمَ بغيرِ حقٍّ ولا دليلْ''.

الخاتمةُ الأليمةُ والعبرُ البليغة

تابعت السُّلحفاة ''سُلافة'' والدَّمعُ في عينيها يسيلْ، وصوتُها يَخْشَعُ كأنها تقرأُ آياتِ الذكرِ الحكيمِ في ليلٍ طويلْ: ''وهنا، يا أحبتي، كانت الخاتمةُ الأليمةُ الجليلة، قال الله تعالى: ﴿فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ * وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الحجر:34-35] . طُرِدَ من رحمةِ اللهِ إلى الأبدْ، وصارَ عدوًّا للبشر بالرصدْ، وأقسمَ بعزَّةِ اللهِ ليُغوِيَنَّ بني آدمَ من بعدُ، ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص:82] ''.

ارتفعتْ أصواتُ الحيواناتِ بالأسى والعجبْ، وتداخلتْ أصواتُهم كأمواجِ البحرِ إذا اضطربْ:

قال القنفذ'' شَوْك'': ''يا إلهي! عابدُ آلافِ السنينْ يخسرُ كلَّ شيءٍ بلحظةِ غرورٍ وانتقاصِ الآخرينْ!''.

وقال الأرنب'' وَجيب'' (الأرنب الصغير) الذي كان قد هدأَ روعُه بعضَ الشيء: ''وهل هذه هي نهايةُ كلِّ من يتكبرُ على خلقِ اللهْ؟ وهل ينتظرُهم مثلُ هذا المصيرِ المحتومْ؟''.

أجاب البوم'' بَصير'': ''نعم يا صغيري، فالكِبرُ يردي صاحبَه في الدنيا والآخرة، ألم تسمعْ قولَ النبيِّ ﷺ: ''يُحْشَرُ المُتَكَبِّرُونَ يَومَ القِيامَةِ أَمْثالَ الذَّرِّ في صُوَرِ الرِّجالِ، يَغْشاهُمُ الذُّلُّ مِن كُلِّ مَكانٍ''؟ [رواه الترمذي]. فهم في الآخرةِ أذلاءُ حقيرون، بعد أن كانوا في الدنيا متجبرينَ متكبرينْ''. وقال الثعلب'' حِيل'' متسائلاً بدهاء: ''ولكن كيفَ لنا أن نحميَ أنفسَنا من هذا الداءِ العضالِ يا حكماءَ الغابة؟''.

فأجابت السُّـلحفاة'' سُـلافة'': ''بالنظرِ إلى خالقِنا، وبمعرفةِ قدرِنا، إذا علمنا أنَّ اللهَ هو الكبيرُ المتعالْ، وأنَّنا لا نملكُ لأنفسِنا نفعاً ولا ضراً ولا موتاً ولا حياةً ولا نشورْ، هانَ علينا كلُّ كبرٍ وغرورْ، وإذا رأينا من هو دونَنا في المالِ أو الجاهِ أو الصحةِ أو الجمالْ، تذكَّرنا أنَّ اللهَ قد يبتلي هذا بالغنى ويبتلي ذاك بالفقرِ امتحاناً وابتلالْ، وأنَّ العبرةَ بالخواتيم والأعمالْ''.

وأضاف الأسد'' هَزْبَر'': ''وكذلك علينا أن نعلمَ أنَّ كلَّ ما نملكُه هو عطاءٌ من اللهِ العزيزِ الحكيمْ، فلماذا نتفاخرُ بشيءٍ هو وديعةٌ في أيدينا تزولُ وتنقضي كحلمِ النائمْ؟''.

نظرت السُّلحفاة ''سُلافة'' إلى الصقر ''مِخْلَب'' الذي كان قد نزلَ من علِّيه وجلسَ على غصنٍ خفيض قريبْ، وقد طأطأ رأسَه في صمتٍ عجيبٍ لم يألفه منه الأصحابْ، وقالت له بصـــوتٍ فيه من الحنانِ ما فيه، ومن الموعظةِ ما يَرقُ له القلوبْ: ''يا مِخْلَب، الكِبرُ ليس في طولِ القامة، ولا في قوةِ الجناحِ أو كثرةِ المال والضـــخامة، الكِبرُ أن تَرُدَّ الحقَّ وتزدريَ الناسْ، وأن ترى نفسَكَ فوقَهم وأنفاسَكَ أكملَ قِياسْ، وهذا هو حالُ كثيرٍ من بني الإنسانْ في هذا الزمانْ؛ يتكبرون بالأموالِ والبنينْ، ويتعالون على الفقراءِ والمساكينْ، ويظنُّون أنَّ العزَّ في القبيلةِ أو اللونِ أو الجاهْ، وينســـون أنَّ اللهَ خلقَهم من ترابٍ ومياه، يتعالى أحدُهم على خادمِه أو على من هو دونَه في الرزقِ والجاهْ، وينسى أنَّ الموتَ سيجمعُهم في قبورٍ مظلمةٍ سواءْ، وأنَّ الحسابَ سيكونُ بالتقوى لا بالمالِ والثراءْ''.

ثمَّ استشهدت السُّلحفاة ''سُلافة'' بصوتٍ خاشعٍ يَهُزُّ القلوبَ قبلَ الأسماعْ، ويُذَكِّرُ باليومِ الآخرِ وما فيه من جزاءٍ واتباعْ: ''﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾] القصص.'' [83:

التوبةُ والعودةُ إلى التواضع

سـادَ صـمتٌ طويلٌ عميقْ، حتى سـمعَ الجميعُ دبيبَ النملِ في الطُّرقْ، وحفيفَ أوراقِ الشـــجرِ إذا تحركتْ مع الريحِ على الأُفقْ، كان الصـــقر ''مِخْلَب'' يحدِّقُ في الأرضِ ولا

ينطقْ، وكأنَّ كلماتِ الحكمةِ قد اخترقتْ صـدرَه ووصـلتْ إلى أعماقِ الروحِ في عُمقْ، ثمَّ نهضَ فجأةً وطارَ نحو الأرنب "وَجيب" بجناحينِ خافقتين، وحطَّ أمامَه في تواضـعٍ كبيرٍ لم يعهدْه فيه أحدٌ من قبلُ من السنين، نظرَ إلى الأرنَبِ الصغيرِ بعينينِ تفيضانِ ندماً وأسى، وقال بصوتٍ يَخْشَعُ ويَخْفِتُ كأنه همسُ المسا: "سامحني يا أخي، فما نفعني علوّي في الجوِّ إذا كان قلبي في الأرضِ المهجورْ، لقد كنتُ مغروراً أعمى لا أرى إلا نفسـي، وظننتُ أنَّ قوتي تمنحُني حقَّ احتقارِ الآخرينَ وإيذائِهم بلا حدودْ، سأكونُ لكَ ناصحاً ومعيناً، ولن أنظرَ إلى مخلوقٍ بازدراءٍ أبداً من الآنْ، وسـأعملُ على أن تكونَ الغابةُ كلُّها أسـرةً واحدةً متحابين، لا فرقَ فيها بين قويٍّ وضـعيفٍ ولا غني ومسـكين، ولا بين كبار وصـغار، فالكلُّ عبادُ اللهِ وأهلُ هذه الدارْ".

وهنا رفعت السُّـلحفاة "سُـلافة" رأسَـها للسـماءِ، وقالت خاتمةً بحكمةٍ بالغةْ تدوي في الآفاقِ والأرجاءْ: "يا أبنائي، الكِبرُ داءُ إبليسَ الأولْ، وفيه سـقطَ من علياءِ الخلودِ إلى الحضيض الأسفل، فتواضعوا لله يرفعكم، واخدموا خلقَه يرحمكم، وتذكَّروا أنَّ أحسنَكم عند الله أتقاكم، وأكرمَكم عنده أطوعُكم له وأخشـاكم، واحذروا من الكبرِ فإنه يهدمُ الحسـناتِ كما تأكلُ النارُ الحطبَ اليابسَ إذا التهبْ، وانظروا إلى أنفسِـكم بعينِ النقصِ والتقصـير، وإلى إخوانِكم بعينِ الاحترامِ والتقدير، واعلموا أنَّ الرفعةَ في التواضـع، والغنى في القناعة، والعزةَ في الإيمان، والسعادةَ في طاعةِ الرحمن".

ثمَّ تلت "سُلافة" قولَ اللهِ تعالى بصوتٍ خاشعٍ باكٍ، فترقرقتْ عيونُ الحاضرينَ وارتجفتْ قلوبُ المشـتاقين: "﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ [الفرقان: 63]."

وانفضَّ المجلسُ تحتَ السدرةِ العتيقةِ والأضواءُ تتسللُ من بينِ الأغصان، والطيورُ تُغَرد للحبِّ والسلامِ والإيمان، وتفرقتِ الحيواناتُ في أمانِ اللهِ وأمان، وكلٌّ يحملُ في قلبهِ عبرةَ هذا اليومِ العظيمْ، ويتذكرُ أنَّ الكبرَ بدايةُ كلِّ شقاءٍ وجحيمْ.

الفصل الثاني

في غوايةِ الناصحِ الخائن، وثمرةِ الشجرِ المحرَّم

تحتَ السدرةِ من جديد: أسئلةُ الفضولِ وبدايةُ الحكاية

ما إن أتمَّتِ السُّلحفاة ''سُلافة'' موعظتَها البليغةَ في الفصلِ الأولْ، حتى خيَّمَ على المجلسِ صمتٌ رهيبٌ وطويلْ، لم يقطعه إلا تنهيدةٌ خرجت من صدرِ الصقر ''مِخْلَب'' الذي كان قد هدأ واطمأنَّ بعد ثورةٍ وغليانْ، وبدا وكأن أحمالَ السنينَ قد وُضعت على جناحيه فجأةً فأثقلتْه فاستكانْ.

كان الغراب ''نَعَّاب'' ينظرُ من فوقِ غصنٍ يابسٍ بعينينِ ثاقبتين، ثمَّ قال بصوته الأجشّ كأنه صريرُ البابِ القديمْ: ''يا لها من قصةٍ عظيمةٍ يا سُلافة، لقد أيقظتْ فينا من الغفلةِ ما كان نائماً، ومن العبرِ ما كان هاجراً مقاوماً. ولكنَّ في نفسي سؤالاً يحترقُ كالجمرِ تحت الرمادْ: بعد أن طُرد إبليسُ من رحمةِ اللهِ ولُعِنَ وأُبعِدْ، كيفَ استطاعَ أن يصلَ إلى آدمَ وحواءَ وهما في جنةِ الخلدِ والنعيمْ؟ وكيفَ استطاعَ أن يُغويهما عن أمرِ ربِّهما العظيمْ؟''.

هنا تحركَ القرد ''صَفْصَف'' الذي كان يتعلقُ بغصنٍ مرنٍ يتدلى منه برأسِهِ ويقفزُ كالسهمِ إذا انطلق من قوسِه المشدودْ، وقال بخفةٍ وطيشٍ ومرحٍ معهودْ: ''أجل أجل! يا حكيمةَ الغابِ ويا زينةَ المجلسِ يا سُلافة، لقد رويتِ لنا كيف سقطَ إبليسُ فكيفَ أوفى بوعدهِ الخبيثِ الماكثْ؟ وكيف أغوى آدمَ وهو حديثُ العهدِ بالوجودِ وليس له بهِ حديثٌ ولا عهدٌ ولا ميثاقْ؟ ألا زيدينا من هذا البيانِ تشويقًا، ومن ذلك الزمانِ تحقيقًا، فقد تعلقَ

قلبي بمعرفةِ كيفَ كان أولُ ذنبٍ في تاريخِ البشرْ، وكيفَ تسللَ الشيطانُ إلى قلبِ من خُلقوا من طينٍ ليُفسدَ عليهم الجنةَ والنظرْ''.

ابتسمتِ السُّلحفاة ''سُلافة'' ابتسامةَ الحكماءِ الذين رأوا الأيامَ دولاً والعصورَ قروناً، وقالت بصوتٍ يحملُ حكمةَ الأزمانِ وجمالَ البيانْ: ''سؤالك يا ''صَفْصَف'' في محله، فما فائدةُ معرفةِ الداءِ دون معرفةِ مداخله ومسالكه، وما قيمةُ التحذيرِ دون بيانِ طرقِ المكرِ وحبائكه، اسمعوا يا أهلَ الغابةِ الكرامْ، كيف تسللَ العدوُّ الأولُ إلى قلبِ الإنسانْ، وبأيِّ ثوبٍ تجمَّلَ وتدثَّرَ واغتالَ الأمانْ، فالحربُ خدعةٌ كما قال خيرُ الأنامْ ﷺ، وأولُ الخدعةِ تزيينُ المقال، وتغييرُ الحال، والتلاعبُ بالقلوبِ والأفكارِ والبالْ، فبعد أن طُرد إبليسُ من رحمةِ اللهِ وأُهينْ، كان آدمُ وحواءُ يعيشـــان في جنةٍ لا عينٌ رأت جمالَها، ولا أذنٌ ســـمعت عن كمالِها، ولا خطرَ على قلبِ بشــرٍ مثلُها ولا مثالْ، كل شـــيءٍ فيها مُهيّأٌ ومُباح، في الغدوِّ والرواحْ، ثمارٌ دانيةٌ بلا تعبٍ ولا نصـــبْ، وأنهارٌ جاريةٌ بلا نَصَـــبْ ولا لغبْ، كان فيهما من النعيمِ ما لو قسـمَ على أهلِ الأرضِ لكانوا في سـعادةٍ لا توصـفْ، ولكنَّ اللهَ العليمَ الخبيرَ بحالِ عبادهِ الألطفْ، أرادَ أن يبتليهمـا ابتلاءً ليُظهرَ طـاعتَهمـا ومحبَّتـه، وليميزَ الخبيـثَ من الطيـبِ في السريرةِ والسرْ''.

قاطعَها الثعلب ''حِيَل'' بدهائه المعروف، وقد لمعت عيناه ببريقٍ ذكيٍ كأنه يخططُ لمكيدةٍ أو يأوي إلى كهفٍ يأمنُ فيه من كلِّ سوءٍ وطيشْ: ''وما هو ذلك الامتحانُ يا سُلافة؟ فلكل قلعةٍ نقطةُ ضعفٍ هي مفتاحُ اقتحامِها، ولكل حصنٍ ثغرةٌ هي مدخلُ غازيها ومُحتلِّ أركانِها، لا بد أن العدوَّ إبليسَ قد بحثَ عن تلك الثغرةِ بعنايةٍ ودقة، وراقبَ وتأنى وترقبَ لحظةَ الغفلةِ والهفوةِ والزلَّةْ''.

أجابته ''سُلافة'' بحكمةٍ بالغةٍ وروية: ''لقد أصبتَ يا ''حِيَل'' كان لهما من اللهِ أمرٌ واحدٌ واضـــحٌ وصـــريح، ووعدٌ أكيدٌ ليس فيه تلميحٌ ولا تفســـيرٌ ولا ترجيح، قال لهما ربُّهما جلَّ

جلاله: ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة:35] ''.

صاحَ القنفذ ''شَوْك'' مندهشاً وقد كوَّرَ نفسَه ثم بسطها كأنه يتعجبُ من عظيمِ الأمرِ وجلاله: ''شجرةٌ واحدةٌ بين آلافِ الأشجار؟ وثمرةٌ واحدةٌ بين ملايينِ الثمار؟ يا للهول! أيُّ امتحانٍ عظيمٍ هذا؟!''.

أجاب البوم ''بَصير'' بعينيه الثاقبتين اللتين تران في الظلامِ ما لا يراه المبصرون: ''إنه امتحانُ الطاعةِ يا ''شَوْك''، ليس في كثرةِ المباحاتِ ابتلاء، بل في الصبرِ عن شهوةٍ واحدةٍ هو عنوانُ الولاء، لم تكن الشجرةُ شرًا في ذاتها، بل كان الاقترابُ منها هو عينُ المخالفةِ ومبدأُ العصيانِ والانحرافْ، وهنا، وجد إبليسُ مدخلَه الذي ينتظرُ منذ أن أُهبط من علياءِ الملكوتِ إلى أسفلِ الدركاتْ''.

بدايةُ الغواية: ثوبُ الناصحِ الأمين

واصلت ''سُلافة'' الحديثَ وصوتُها يخفتُ تارةً ويعلو تارة، وكأنها تروي سرًّا من أسرارِ الوجودِ لا يُباحُ لكلِّ أحدْ: ''لم يأتِ إبليسُ إلى آدمَ وحواءَ بصورةِ العدوِّ الصريح، ولا بثيابِ المتمرّدِ الجريح، بل جاء في ثوبِ الناصحِ الأمين، وفي زيِّ المشفقِ الحزين، بدأ يحومُ حولَهما، لا يتكلمُ في البداية، بل يكتفي بالنظرِ إلى الشجرةِ والتنهدِ بحسرةٍ مُصطنعة، كأنه يخفي سرًا عظيمًا ويخشى من إفشائِه لأهلِ الجنةِ والبقعة''.

هنا تحركتِ الغزالة ''رَشاقة'' برشاقتِها المعهودة، وقالت بعيونٍ واسعةٍ كأنها ترى بعينِ الخيالِ مشهدَ تلك الأيام: ''وكيفَ استقبلَه آدمُ وحواءُ يا تُرى؟ هل عرفاهُ على حقيقتِه أم خُدِعا بمنظرِه؟''.

أجابت ''سُـلافة'': ''لاحظ آدمُ وحواءُ نظراتِه الطويلةَ إلى الشـجرة، وتنهداتِه العميقةَ التي تخرجُ من صـدرِه كأنها زفيرُ المحروم، فسـألاه عن سـببِ تحسُّـرِه وأنَّاتِه، وهنا بدأ المكرُ الإبليسيُّ يتكشَّفُ شيئًا فشيئًا''.

عندها سأل القنفذ ''شَوْك'' وهو يكورُ نفسَه في خجلٍ ثم يبسطُها كأنه يتلمسُ طريقَه في الظلام: ''وماذا قال؟ هل دعاهما للأكلِ مباشرةً أم ماذا كان الحوارُ والكلامْ؟''.

ردت ''سُـلافة'' بصـوتٍ فيه من الخبرةِ والتجربةِ ما يجعلُ السـامعَ يشـعرُ وكأنه يعيشُ تلك اللحظاتْ: ''لا يا ''شَوْك''، فالمخادعُ المحترفُ لا يكشفُ أوراقَه دفعةً واحدة، ولا يفضي بسرِّه جملةً واحدة، بل بدأ يُدندنُ حولَ الشـجرة، ويُكثرُ من الالتفاتِ إليها، حتى إذا تأكدَ أن الفضـولَ بدأ يتحركُ في قلبيهما، قال لهما بصـوتٍ يملؤه الأسـى والحزنُ المفتعل: ''ألا تعلمانِ سرَّ هذه الشـجرةِ التي حُرِمت عليكما؟ إنها ليست كباقي الشـجر، ففي ثمرتها سرُّ الخلودِ والبقاء، وسرُّ الملكِ الذي لا يطاله الفناء، وسرُّ العيشِ الأبدي بلا انتهاء''.

صـمتَ آدمُ وحواءُ، فقد كان كلامُه غريبًا على أسـماعهما التي لم تعرف الكذبَ قط، ولم تألفِ الخديعةَ يومًا، فكانا كالطفلِ الذي يسـمعُ أولَ كذبةٍ في حياتِه فيحتارُ كيفَ يُصـدِّقُها أو يُكذِّبُها''.

القَسَمُ بالله: آخر أسلحةِ الخداع

أضـاف الثعلب ''حِيَل'' بذكائِه المعروف، وهو يتطلعُ إلى الجميعِ كمن يُحللُ موقفًا نفسـيًا معقدًا: ''إنها مرحلةُ إثارةِ الفضـولِ وخلقِ الأمنيات، ثمَّ تأتي المرحلةُ الأشـدُّ خطرًا: مرحلةُ التبريرِ والتزيين''.

أكملت ''سُـلافة'': ''ثم عاد إليها مرةً أخرى، وقد رأى فيهما بدايةَ الحيرةِ والشـكِّ والترددْ، فقال: ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ [طه:120]. لقد غيَّرَ اسمَ الشجرةِ

المحرَّمة، وسماها باسمٍ تتمناه كل نفسٍ وتشتهيه كل همة، فجعلها شجرةَ الخلدِ والملكِ الدائم، ربط المعصيةَ بالأمنية، وزيَّنَ السمَّ في إناءٍ من ذهب، وقدَّمَ الدواءَ المرَّ في كأسٍ من عسلٍ وحليب".

هنا، هزَّ الذئب "نَاب" رأسَه بخشونةٍ وقال بصوتٍ أجشٍّ يخرجُ من بين أنيابه الحادة: "الأسماءُ تغيرُ الأشياءَ في عيونِ الجاهلين، فإذا سُمِّيَ الحرامُ باسمٍ براقٍ، خُدعَ به الضعفاءُ والمغررون، فالسمُّ يظلُّ سمًا ولو سُمِّيَ شهدًا، والعدوُّ يظلُّ عدوًا ولو تظاهرَ بالودِّ والصدقِ والمحبة، والحفرةُ تظلُّ حفرةً ولو غُطِّيَت بأغصانِ الزهورِ والريحانْ".

أومأت "سُلافة" موافقةً، وواصلت الحكايةَ بتفاصيلَ أدقَّ وأعمق: "قاومَ آدمُ في البداية، وتذكَّرَ أمرَ ربِّه وتحذيرَه القاطعَ والناصحْ، فقال لإبليس: "إن الله قد نهانا، فكيف نخالفُ من أعطانا وأكرمنا وهدانا؟" هنا، استخدم إبليسُ سلاحَه الأخيرَ والأخطر، سلاحٌ لا يتوقعه من عاش في عالمِ الصدقِ والنقاء، ومن لم يعرفِ الكذبَ أبدًا ولا الادعاء، لقد أقسمَ باللهِ كذبًا وزورًا، ورفع صوتَه قائلاً: ﴿وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾ [الأعراف:21]".

تدخل البوم "بَصير" بصوته العميقِ الرخيم، وقد انتفشَ ريشُه كأنه يستشعرُ عظمةَ اللحظةِ وجسامةَ الجريمة: "يا ويلتاه! أن يقسمَ المخلوقُ بخالقِه على معصيتِه! هذا هو عمقُ المكرِ ونهايةُ الخديعة، ما ظنَّ آدمُ أن أحدًا يجرؤُ على هذا، فلانَ قلبُه وبدأ الشكُّ فيه يترعرع، والأمانُ يتحولُ إلى حذرٍ والثقةُ إلى خوفٍ والطمأنينةُ إلى قلقٍ وفزع".

لحظةُ السقوط: قضمةٌ غيَّرَت تاريخَ البشرية

واصلت "سُلافة" الحديثَ بصوتٍ خفيضٍ كأنها تهمسُ بسرٍّ عظيم، والعيونُ حولَها تَشخصُ والأسماعُ مُصغيةٌ والقلوبُ خاشعة: "وهكذا، اجتمع على قلبِهما ثلاثةُ أمورٍ قوية: وسوسةٌ خبيثةٌ تُلحُّ، وأمنيةٌ عظيمةٌ تلمحُ، وقَسَمٌ باللهِ من عدوٍّ لئيمٍ يقسمُ، فنظرا إلى الشجرة، فإذا ثمرتُها تبدو أجملَ من أي وقتٍ مضى، وألذَّ من أيِّ طعامٍ هُيِّئَ واعتُدّ، نسيا التحذير،

وتغلَّب الشـوقُ إلى الخلودِ على نورِ البصيرة، وضـعفَ الإيمانُ أمامَ قوةِ الأمنيةِ الكبيرة، فمدَّ آدمُ يدَه، وقطفَ الثمرة، وقدمها لحواء، فأكلا منها معًا، وأذاقا أنفسَـــهما طعمَ المعصـــيةِ المرَّة''.

عندها صـــرخَ الأرنب ''وَجيب'' وقد انتفضَ من مكانِه كأنه رأى ذئبًا يطارده: ''يا إلهي! وماذا حدث بعد ذلك؟ كيفَ كان شعورُهما بعد المخالفة؟''.

أجابت ''سُـلافة'' بأسـىً عميقٍ يغشـى قلبَها: ''وما إن اسـتقرت أولُ قضـمةٍ في جوفِهما، حتى وقعَ المحظور، وانقلبَ النورُ إلى ديجور، ســقطت عنهما ثيابُهما النورانية التي كانت تسترُهما وتكسوهما جمالاً ووقارًا، وبدت لهما سوءاتُهما فتملكَهما الخزيُ والحسرةُ والعارْ، ذهبت تلك السـكينةُ وذلك النعيمُ بلا رجعة، وحلَّ محلَّهما الخوفُ والندمُ الأليمُ والوحشـةُ والمرارة، وبدآ يركضانِ في الجنةِ هاربين، لا من شيءٍ يطاردهما، بل من نفسيهما، ويجمعانِ من أوراقِ التينِ ما يسـترانِ به جسـديهما العاريين، وهما يبكيانِ ويترنَّحانِ من هولِ ما اقترفا وما فعلاه بأيديهما''.

النداءُ الإلهي والتوبةُ النصوح

رفعت ''سُـلافة'' رأسَـها نحو السـماء، والدموعُ تترقرقُ في عينيها العجوزين، وقالت بصوتٍ خاشعٍ يهزُّ القلوبَ ويُذيبُ الصخور: ''عندها، ناداهما ربُّهما معاتبا: ﴿أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [الأعراف:22] ''.

سـاد صـمتٌ مهيبٌ في المجلس، وكأن الحيواناتَ كلَّها حبسـت أنفاسَـها تسـتمعُ إلى هذا النداءِ العظيم.

أكملت ''سُـلافة'': ''في تلك اللحظةِ العصـيبة، في تلك السـاعةِ الرهيبة، لم يجادلا كما فعل إبليسُ حين سُـئل، لم يقولا: ''لقد أقســم لنا فصــدَّقناه''، ولم يلقيا باللومِ على أحدٍ

سـواهما، بل سـقطا على ركبهما، وذرفت عيناهما الدموعَ السـاخنة، وصـرخا بقلبٍ واحدٍ منكسرٍ ومفطور، ولسانٍ واحدٍ يتوسلُ ويتضرع: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف:23] ".

هنا لم يتمالكِ الأسد "هَزْبَر" نفسَه، فزأرَ زأرةً كان فيها إعجابٌ بهذا الموقفِ العظيم: "يا لها من توبةٍ صـــادقة! يا له من اعترافٍ نقي! إنه الفرقُ بين المتكبرِ الحقودِ وبين التائبِ الودود! إبليسُ أخطأ فجادل واستكبر، وآدمُ أخطأ فاعترف واستغفر".

الهبوطُ إلى الأرض: بدايةُ الرحلةِ الإنسانية

واصـلت "سُـلافة" حديثَها بعد أن هدأتْ مشـاعرُ الجميع: "فتقبَّلَ اللهُ منهما هذا الاعترافَ الصـادق، وعلمهما كلماتِ التوبةِ ليتوبا عليهما ويتغمدهما برحمتِه، ولكن كان لا بدَّ لحكمِ العدلِ أن يســري، ولقانونِ الأرضِ أن يجري، فجمعَهم اللهُ ثلاثتهم: آدمَ وحواءَ وإبليس، وقال قولتَه التي أسستْ لعالمِنا هذا الذي نعيشُ فيه: ﴿قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [الأعراف:24] ".

سـأل القنفذ "شَـوْك" وقد أخذته الدهشـةُ والذهول: "وهكذا بدأت الحياةُ على الأرض؟ من أجلِ قضمةِ طعامٍ واحدة؟".

أجاب البوم "بَصير" بحكمته المعتادة: "نعم يا "شَوْك"، من أجلِ قضمةٍ واحدةٍ غيَّر اللهُ بها مجرى التاريخ، ولكن تأملْ: لم تكن القضـــمةُ هي المشـــكلة، بل ما حملته من معنى المخالفة، وما كشـفته من ضـعفِ البشـرِ أمامَ شـهواتِهم، إنها ليسـت مجردَ قضـمةِ تفاحٍ أو تين، إنها رمزُ الاختيارِ بين طاعةِ الخالقِ وشهوةِ النفس".

نظرت "سُلافة" إلى الجميع نظرةً شاملة، ورأت في عيونِهم شغفَ المعرفةِ وحبَّ الاستزادة، فقالت موعظتُها الختامية: "فانظروا يا أهلَ الغابةِ الكرام، كيف أن معصـــيةً واحدةً غيَّرتْ

وجهَ العالمِ بأســره، وكيف أن العدوَّ يدخلُ من بابِ النُصـــحِ والمحبة، ويُقســـمُ باللهِ على الكذبِ والمخادعة، وهذا هو حالُ الشيطانِ مع بني آدمَ إلى يومِ القيامة، يتسـللُ إليهم من كلِّ ثغرة، ويُزيِّنُ لهم المعصـيةَ في أبهى صـورة، ويُقسـمُ لهم أنه ناصـحٌ أمين، ثم يتركُهم في حيرةِ الندمِ إذا وقعوا في الفخِّ والمكمن".

ثم أضافت بصوتٍ يرتفعُ قليلاً لينتبهَ الجميع: "وانظروا إلى حالِ الناسِ اليومَ في هذا الزمانْ، كيف يقعون في نفسِ الفخِّ الذي وقع فيه آدمُ –عليه الســلام- منذ آلافِ الســنينْ، تجدُ الشيطانَ يُزيِّنُ لهم المعاصيَ بأسـماءٍ براقة: يسـمي الربا "تجارةً ناجحة"، ويسـمي الرشـوة "تسـهيلَ معاملات"، ويســمي الغيبةَ "نقاشـاً في الحقائق"، ويســمي الكذبَ "كياسـةً ولباقة"، ويسـمي الظلمَ "قوةً وحزماً"، ويسـمي التبرجَ "حريةً شـخصـية"، ويسـمي العقوقَ "اسـتقلاليةً وحداثة" وما زال يُقسـمُ لهم كما أقسـم لأبيهم: "إني لكما لمن الناصـحين" فيصدقونه، فيقعون، ثم يندمون حيث لا ينفع الندم".

هزَّ الفيل "خَطَّار" رأسَه الضخمَ وقال بصوته الأجشِّ العميق: "وكم من شابٍّ وفتاةٍ أغواهم الشـيطانُ بشـهواتِ الدنيا، فظنوا أن السـعادةَ في المعصـية، فإذا بها سـرابٌ بقيعةٍ يحسـبُه الظمآنُ ماءً حتى إذا جاءه لم يجده شيئًا ووجدَ اللهَ عنده فوفَّاه حسابَه".

أضـاف النمر "أَرْقَط" وقد تقلَّب على جنبِه: "وكم من غنيٍّ أغراه الشيطانُ بمالِه، فظنَّ أنَّ العزةَ في كثرةِ الأموال، فإذا بها فتنةٌ ووبال، وكم من قويٍّ بطشَ بضــعفاءِ الناسِ فكان عاقبتُه الخزيَ والانتكاس".

العبرةُ والخاتمة

رفعت "سُـــلافة" رأسَـــها، وقد اجتمع في عينيها حكمةُ الأزمانِ وحزنُها، وقالت موعظتَها الختامية، التي تَهُزُّ النفوسَ وتُحرِّكُ المشـاعر الحامية: "فيا أبناءَ الغابة، تعلَّموا من قصـةِ آدم –عليه السـلام-: أن الاعترافَ بالخطأ أولُ طريقِ الصـواب، وأن الكِبرَ والإصـرارَ

على الذنبِ هو عينُ الخراب، فآدمُ –عليه السلام– أخطأ فتابَ فاجتباه ربُّه وهداه، وإبليسُ أخطأ فاستكبرَ فلعنَه ربُّه وطردَه وأقصاه، وليس الشأنُ ألا تُخطئ، فالكلُّ خطَّاء، ولكن الشأنَ إذا أخطأتَ أن تكونَ من التوَّابين الأوَّابين، الذين إذا زلَّت أقدامُهم عادوا إلى ربِّهم تائبين، وإذا عصَتْ ألسنتُهم استغفروا نادمين".

ثم تلتْ "سُلافة" قولَ اللهِ تعالى بصوتٍ خاشعٍ باكٍ يدمي القلوبَ قبلَ العيون: "﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: 135]".

سادَ صمتٌ طويلٌ عميقٌ بعد هذه الآيةِ البليغة، حتى كأنَّ على رؤوسِ الحيواناتِ الطيرَ قد حطَّ واستقرّ، ثم نظر الصقر "مِخْلَب" إلى الأرنب "وَجيب" نظرةَ المتواضعِ الخاشع، وقال: "سأحفظُ هذه القصةَ يا أخي، وسأجعلُها نبراسًا لحياتي، ولن أنسى أبدًا أنَّ العصيان قد يأتي من عدوٍّ خبيث على هيئة النصح، وأنَّ الطاعةَ هي وحدها طريقُ الفلاحِ في الدنيا ويومَ نبعثُ من قبورنا بعد الممات".

وهمسَ الجميعُ بكلماتِ الدعاءِ والتضرع، ثم تفرقوا في أمانِ الله، وكلٌّ يحملُ في قلبِه دروسَ هذه الليلةِ العظيمة، وعبرَ هذه القصةِ الأليمة.

الفصل الثالث

في نارِ الحسدِ الأولى، وأولِ نفسٍ مقتولة، وشهادة الغرابِ المعقولة

تحتَ السدرةِ العتيقة: صمتُ الترقبِ واهتزازُ الأغصان

بعد أن أنهتِ السُّلحفاة "سُلافة" حديثَها عن قصةِ الهبوطِ من الجنةِ إلى الأرضِ والامتحانْ، ساد صمتٌ عميقٌ أرجاءَ المكانْ، كانت الحيواناتُ تتنفسُ بهدوءٍ وخوفٍ وحذر، وكأنَّ على رؤوسِهم الطيرَ قد حطَّ واستقر.

وفجأةً، وقبلَ أن تبدأ "سُلافة" في فصلٍ جديد، تحركَ في الظلِّ طيفٌ أسود، واهتزَّتْ أغصانُ السدرةِ العتيقة، وإذا بالغراب "نَعَّاب" يتقدمُ من بينِ الأغصان، جناحاهُ يرتعشانِ ارتعاشةَ الخائفِ المذهول، وصوتُه يخرجُ مختنقاً كأنه من قبرٍ مهجور، وقد اغرورقت عيناه بدموعِ الندمِ والحسرةِ والتحسُّر.

صاحَ الثعلب "حِيَل" مندهشاً: "يا نَعَّاب! ما بالُكَ ترتعشُ كالعصفورِ في ليلةِ الصقيع؟ وما هذا الحزنُ الذي يعلو وجهَكَ والدمعَ الذي يهمي كالربيع؟".

نظرَ الغراب "نَعَّاب" إلى الجميعِ نظرةً خاشعة، ثم قال بصوتٍ متهدجٍ باكٍ: " يا أهلَ الغابةِ الكرام، يا من تجلسون تحتَ هذه السدرةِ في أمانٍ وسلام، اسمعوني، فما جئتُ لأحدثَكم عن حكايةٍ سمعتها، بل لأرويَ لكم قصةً شهدتُها بعيني، وعايشتُها في زمنٍ غابرٍ قديم، أنا لستُ راوياً كسُلافة، ولكني شاهدُ عيانٍ على أولِ جريمةٍ في تاريخِ الإنسان".

ارتفعت أصواتُ الحيواناتِ بالدهشة، وتقدمَ الأسد "هَزْبَر" بفضول: "ماذا تقولُ يا نَعَّاب؟ كيفَ شهدتَ جريمةً وأولُ البشرِ قد مضى بزمان؟".

أجاب الغراب بصـــوتٍ يختنقُ بالعبرات: ‘‘نعم يا هَزْبَر، لقد كنتُ هناك، في ذلك الزمانِ السحيق، عندما كان بنو آدمَ قلةً قليلة، والأرضُ لا تزالُ حديثةَ العهدِ ببني ءادم، كنتُ أطيرُ في سـماءٍ تلك الدنيا الجديدة، وأرقبُ ما يجري على الأرضِ من أحداث، حتى جاء ذلك اليومُ المشؤوم الذي لن أنساه ما بقيتُ حياً’’.

بدايةُ القصة: قربانٌ إلى الله

بدأ الغراب ‘‘نَعَّاب’’ يروي القصةَ بتفصيلٍ دقيق: ‘‘كان هناك ابنان من آدم –عليه السلام–، هما قابيلُ وهابيل، كان قابيلُ فلاحاً يزرعُ الأرضَ ويحرثها، وكان هابيلُ راعياً يرعى الغنمَ ويحلبها، وكانا يعبدانِ اللهَ مع أبيهما آدم، ويقدمانِ القرابينَ تقرباً إليه’’.

سأل الأرنب ‘‘وَجيب’’ ببراءة: ‘‘وما هي القرابينُ يا نَعَّاب؟’’.

أجاب الغراب: ‘‘كان كلُّ واحدٍ منهما يختارُ أفضلَ ما عنده، ويضعهُ على مذبحِ القربان، ثم تنزلُ نارٌ من السماءِ تأكلُ القربانَ المقبول، فذهب هابيلُ إلى غنمِه، واختارَ أفضلَ كبشٍ عنده وأسـمنَه، وأكرمَه على قلبِه، وقدمه خالصـاً لوجهِ الله. أما قابيلُ، فذهب إلى زرعِه، واختارَ أسوأَ ما عنده من الزرعِ، وأردأَه وأقلَّه قيمةً، وقدمه وكأنه يتصدقُ على الله من فضلةِ طعامه!’’.

صاحَ الذئب ‘‘نَاب’’ باستنكار: ‘‘يا للوقاحة! أيقدمُ لخالقِه ما لا يرضاه لنفسه؟!’’.

الحسدُ يدبُّ في القلب

أكمل الغراب: ‘‘وجاء وقتُ القربان، ونزلتِ النارُ من السـماءِ كالعادة، فالتهمت قربانَ هابيل الطيب، وتركت قربانَ قابيل الرديء. وهنا، يا أهلَ الغابة، رأيتُ بعيني ما حدث، رأيتُ وجهَ قابيلَ وقد تغير، ورأيتُ ناراً تشتعلُ في عينيه لم تكن نارَ السماء، بل نارَ الحسدِ والحقدِ والغل’’.

تقدم النمر ''أَرْقَط'' بفضول: ''وماذا قال قابيلُ لأخيه بعد ذلك؟''.

حوارُ الأخوين قبل الجريمة

أجاب الغراب: ''ذهبتُ لأقتربَ أكثر، فسمعتُ قابيلَ يقولُ لأخيه هابيل بصوتٍ مملوءٍ بالغيظ والحنق: ''لأقتلنَّك'' فصعق هابيلُ من قولِ أخيه، وقال له: ''ولمَ تقتلني؟ إنما يتقبلُ اللهُ من المتقين'' لكن قابيلَ ازداد غضباً وقال: ''أنا أفضلُ منك، أنا أكبرُ منك، فلماذا يُقبلُ قربانُك دوني؟!''.

رفع الغراب صوتَه يحكي الحوارَ بتفصيل: ''وقف هابيلُ أمامَ أخيه بهدوءٍ وحكمة، وقال له: ''يا أخي، لئن بسطتَ إليَّ يدَك لتقتلني، ما أنا بباسطٍ يديَ إليكَ لأقتلك، إني أخافُ اللهَ ربَّ العالمين، إني أريدُ أن تبوءَ بإثمي وإثمِك، فتكونَ من أصحابِ النار''. لقد نصحه ودعاه إلى الخير، لكن كلماتِ الحق لم تجد لها مكاناً في قلبٍ امتلأ بالحقد''.

صاحتِ الحمامة ''هَديل'' بحزن: ''يا إلهي! لقد نصحه أخوه بأرقِّ الكلمات، فكيفَ لم يتعظ؟''.

أكمل الغراب: ''ولم يكتفِ قابيلُ بذلك، بل ظلَّ يفكرُ في قتلِ أخيه أياماً وليالي، والشيطانُ يزيِّنُ له الجريمة، وفي أحدِ الأيام، بينما كانا في الحقل، هجمَ قابيلُ على هابيل وصارعَه صراعاً عنيفاً، كان هابيلُ أقوى من أخيه، لكنه كان يمسكُ نفسَه عن قتله، يدفعُه عنه ولا يؤذيه''.

الجريمةُ الأولى: دمٌ على التراب

صمت الغراب قليلاً، وارتعش جناحاه، ثم قال بصوتٍ خفيض: ''وفي لحظةِ غفلة، وفي ثانيةٍ عابرة، حملَ قابيلُ صخرةً ثقيلةً وهوى بها على رأسِ أخيه بكلِّ قوة، سمعتُ صوتَ ارتطامٍ مروع، ثم رأيتُ هابيلَ يسقطُ على الأرضِ كالجذعِ المقطوع، رأيتُ الدمَ

يتفجرُ من رأسِـــه لأولِ مرةٍ في تاريخِ الأرض، رأيتُ عينيه تنظرانِ إلى الســـماءِ ببراءة، ثم تطرفانِ للمرةِ الأخيرة ثم تموتان''.

بكى الغراب وهو يكمل: ''وقف قابيلُ فوقَ جثةِ أخيه، وأخذَ ينظرُ إليه مذهولاً، كان يدفعُه برجله لعله يتحرك، ولكن هابيلَ كان قد فارقَ الحياة، عندها، بدأ قابيلُ يهربُ في الصحراء، لكنه كان يحملُ جثةَ أخيه معه! نعم، يا أهلَ الغابة، كان يحملُها على ظهره، ويمشـــي بها حائراً تائهاً، لا يدري أين يذهب، ولا يعرفُ ماذا يفعل''.

سأل القنفذ ''شَوْك'' بدهشة:''يحملُ جثةَ أخيه على ظهره؟! كم من الأيام ظلَّ على هذه الحال؟''.

أجاب الغراب: ''ظلَّ أياماً، يا شَوْك، يحملُ جثةً بدأت تنتفخُ وتفسد، وهو لا يعرفُ كيف يواريها، كان يجلسُ في الظل، ويضـــعُ رأسَ أخيه على حجره، وينظرُ إليه باكياً، ثم يقومُ يحملُه ثانيةً ويمشـــي، لقد كان منظراً مفجعاً، جســـدُ القاتل يحملُ جســـدَ القتيل، والحيرةُ تعميه عن أبسطِ تصرف''.

الغرابُ معلماً

ارتفع صوتُ الغراب بخشوع: ''وهنا، يا أهلَ الغابة، رأيتُ غراباً ميتاً أمامي، فأوحى اللهُ إليَّ بوحيِ الإلهام، أن أُريَ هذا القاتلَ الحائرَ كيف يواري سوءةَ أخيه، فنظرتُ إلى قابيلَ وهو يراقبني، ثم بدأتُ أحفرُ الأرضَ بمنقاري وقدميَّ، كنتُ أحفرُ وأحفر، حتى أحدثتُ حفرةً عميقةً في التراب، ثم وضـــعتُ الغرابَ الميتَ فيها، وبدأتُ أهالُ عليه الترابَ حتى واريتُه تماماً، وكلُّ ذلك وأنا أراه ينظرُ إليَّ بعينينِ واســـعتين، يتعلمُ الدرسَ للمرةِ الأولى في حياته''.

صرخةُ قابيل: يا ويلتى!

رفع الغراب صوتَه محاكياً صرخةَ قابيل المدوية: ''فلما انتهيتُ، رأيتُ قابيلَ يصرخُ صرخةً هزَّتِ الجبالَ والوهاد، رفعَ يديه إلى السماء وصرخ: ﴿يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي﴾ [المائدة:31]''.

صمت الغراب لحظة، ثم نظر إلى الجميعِ نظرةً عميقة، وقال بصوتٍ يفيضُ حكمةً وأسى: ''في تلك اللحظة، يا أحبتي، أدركتُ عظمةَ الدرس الذي علَّمني إياه ا،له. أدركتُ أنَّ الطغيانَ يعمي البصيرة، ويسلبُ الإنسانَ أبسطَ بديهياتِ الحياة، حتى يحتاجَ الإنسانُ المتكبرُ الجبار، إلى أن يتعلمَ من طيرٍ صغيرٍ ضعيف، كيفَ يدفنُ جريمةً كبيرة، ويكفنُ أخاه القتيلَ الحزين''.

سأل الفيل ''خَطَّار'' باهتمام: ''وماذا حدثَ لقابيلَ بعد ذلك يا نَعَّاب؟''.

أجاب الغراب: ''بعد أن دفنَ أخاه، هربَ قابيلُ إلى أرضٍ بعيدة، يعيشُ فيها وحيداً خائفاً، وكانت الأرضُ التي قتلَ فيها أخاه قد ارتجفت ولعنت فعلته، وظلَّ قابيلُ يعيشُ في عذابِ الضمير، يحملُ ذنبَ أولِ جريمةٍ في تاريخِ البشر، ويقالُ إنه كان يرتجفُ كلما سمعَ صوتَ غراب، ويتذكرُ جريمته فيبكي حتى يبلُّ دموعَه الثرى''.

تعليقاتُ الحيوانات: دروسٌ من الغراب

هنا تدخل البوم ''بَصير'' بحكمته: ''يا للعجب! إنها لعبرةٌ عظيمة، الغرابُ الذي يُضربُ به المثلُ في النَّعيق والتشاؤم، صار معلماً للبشر، وصار رسولَ رحمةٍ في أولِ مأساةٍ في التاريخ''.

أضافت الحمامة ''هَديل'' بصوتٍ حنون: ''وكم من الناسِ اليومَ من هو أعمى بصيرةً من قابيل، يحتاجُ إلى من يعلمه أبسطَ قواعدِ الإنسانية والرحمة!''.

صاحَ الفيل ''خَطَّار'' بصوتِه الرزين: ''إنها لفتةٌ إلهيةٌ عظيمة، أن يكونَ الغرابُ هو المعلم، والقاتلُ هو التلميذ. ليعلَمَ الإنسانُ أن التواضعَ مطلوب، حتى من الطيرِ والبهائم''.

قال الثعلب ''حِيَل'' بذكائه المعروف: ''والعجيبُ أن الغرابَ لم يكن يحتاجَ إلى تعليم، بل أوحى اللهُ إليه بالفطرة، أما الإنسانُ فاحتاجَ إلى من يعلمه، مع أن اللهَ كرمه وفضله على كثيرٍ من خلقه''.

موعظة ختامية

نظرتِ السُّلحفاة ''سُلافة'' إلى الغراب ''نَعَّاب'' نظرةَ تقديرٍ وإعجاب، ثم قالت موعظتَها البليغة: ''يا أهلَ الغابة، لقد سمعتم شهادةَ ''نَعَّاب'' الصادقة، ورأيتم كيفَ كان الغرابُ رسولَ رحمةٍ في أولِ مأساة، فانظروا كيفَ أن اللهَ يختارُ من يشاءُ من خلقه، ليكونوا أسباباً للهدايةِ والعلم، فالغرابُ الذي نظنُّه طائراً عادياً، استخدمه اللهُ ليكونَ معلماً لأولِ قاتلٍ في التاريخ''.

ثم تابعت بصوتٍ مؤثرٍ: ''فاتعظوا يا أحبتي من هذه القصة، فالحسدُ هو الذي دفع قابيلَ إلى قتلِ أخيه، حسدَه لأن اللهَ فضَّلَ قربانَه على قربانه، فكانت النهايةُ جريمةً نكراء ودمّاً أريق بلا ذنب، فإياكم والحسد، فإنه يأكلُ الحسناتِ كما تأكلُ النارُ الحطب، واحذروا من أن تطلبوا لأنفسكم ما لم يكتبه الله لكم، فاللهُ أعلمُ حيثُ يجعلُ رحمتَه وفضله''.

أضاف الذئب ''ناب'' وهو ينظرُ إلى الجمع: ''وكم نرى اليومَ من أناسٍ يحسدون إخوانَهم على نعمِ الله، فيحاولون إيذاءهم والنيلَ منهم، ترى الحاسدَ يفرحُ إذا أصابَ أخاه مكروه، ويحزنُ إذا رأى عليه نعمة، هذا هو داءُ قابيل الذي لا يزالُ يسري في النفوسِ الضعيفة''.

وتابع بعد أن صعد فوق صخرة عالية ورفع صوته: ''وكم من إخوةٍ تقاطعوا بسببِ الحسد، وكم من أصدقاءَ تفرقوا بسببه من كلِّ مَقعَد، وكم من مجتمعاتٍ انهارت لأن الحسدَ أفسدَ

قلوبَ أبنائها، فليحذرْ كلُّ واحدٍ منكم من هذا الداءِ العضـــال، وليدعُ اللهَ أن يطهرَ قلبه من الغلِّ والحسد وسوء المآل".

الفصل الرابع

في قصةِ الطوفانِ الذي لا يفوت

في الغابة: هياجُ البحر وسيول المطر

كانت ليلةً عصـيبةً في الغابة، ليلةً لم تشـهدِ الغابةُ مثلَها منذ سـنوات، هاجَ البحرُ وهاجتْ أمواجُه، وعلتْ وارتطمتْ بصـخورِ الشـاطئِ بعنفوان، كأنها جيوشٌ جرارةٌ تريدُ اقتحامَ اليابسـة، والمطرُ ينهمر كالسـيلِ، يضـربُ الأرضَ بلا رحمةٍ ولا توان، حتى كادتِ الغابةُ أن تغرقَ في ظلماتِ هذا الطوفان.

الرياحُ تعصفُ بالأشجار، تقتلعُ الضعيفَ منها وتكسّرُ القوي، والحيواناتُ تركضُ في كلِّ اتجاه تبحثُ عن مأوىً يحميها من هذا البلاء، كانت الأمهاتُ تحتضـنُ أطفالَها بخوفٍ ووجل، والآباءُ يبحثون عن مكانٍ آمنٍ لعائلاتهم من هذا السيل.

وفجأةً، هدأتِ العاصـفةُ كما بدأت، وانقشـعتِ السـحبُ، وظهرتِ الشـمسُ بخجلٍ وكأنها تسـتأذنُ بعد غياب، خرجتِ الحيواناتُ من مخابئها تنظرُ إلى الخرابِ الذي حلَّ بالغابة؛ أشـجارٌ مقتلعة، وجداولٌ جارفة، وبيوتٌ مهدمة، وقفوا جميعاً يتأملونَ هذا المشـهدَ المهيب، والرهبةُ تملأُ قلوبَهم.

تحتَ السدرةِ العتيقة: سؤالُ الأسدِ بعد العاصفة

اجتمعتِ الحيواناتُ تحتَ السـدرةِ العتيقة التي أنهكتها السـيول، وكأنها تشـهدُ على قوةِ اللهِ وقدرته، جلسوا جميعاً (الأسد ''هَزْبَر'' المهيب، والفيل ''خَطَّار'' الضخم، والثعلب

''حِيَل'' الذكي، والغزالة ''رَشاقة'' الرشيقة، والقنفذ ''شَوْك'' الخائف، والأرنب ''وَجيب'' المرتجف، والحمامة ''هَديل'' الوديعة، والبوم ''بَصير'' الحكيم).

كان الجميعُ يرتجفونَ من بردِ المطرِ وهولِ ما رأوا، والذهولُ بادٍ على وجوههم، ثم زأر الأسد ''هَزْبَر'' زئيراً هادئاً يملؤه التساؤل، وقال بصوتٍ عميقٍ كهديرِ البحرِ بعد هدوئه: ''يا سُلافة، يا حكيمةَ الغابِ ويا راويةَ الأحقاب، لقد رأينا بأعينِنا اليومَ قدرةَ اللهِ العظيم، حين هاجَ البحرُ وهاجتِ الأمواجُ والمطرُ المنهمر، فهل حدثَ مثلُ هذا في سالفِ الزمان؟ وهل ابتلى اللهُ الأممَ السابقةَ بهذا الطوفان؟''.

صاحَ الثعلب ''حِيَل'' وهو يرتجفُ من البردِ والخوف: ''نعم يا سُلافة، حدثينا عن طوفانٍ عظيمٍ أهلكَ الظالمين، وعن قومٍ طغوا وتجبَّروا، فأغرقهم اللهُ أجمعين''.

بدايةُ القصة: نوحٌ وابتداءُ الطغيان

نظرتِ السُّلحفاة ''سُلافة'' إلى السماءِ التي صفتْ بعد العاصفة، وقالت بصوتٍ يجلجلُ كالرعدِ البعيد: ''يا أهلَ الغابِ الكرام، اسمعوا قصةً هي من أعجبِ القصص، وعبرةً لكلِّ من طغى وتجبرَ في الناس، إنها قصةُ الطوفانِ العظيم، الذي أهلكَ اللهُ به الظالمين، ونجَّى به المؤمنين.

كان قوم نبي الله نوح –عليه السلام– يعيشون في رغدٍ ونعيم، لكنهم ضلوا الطريق، وعبدوا الأصنامَ من دونِ اللهِ العظيم''.

سأل الأرنب ''وَجيب'' بفضول: ''وما هي الأصنامُ التي كانوا يعبدونها؟''.

أجابت ''سُلافة'': ''كانوا يعبدون أصناماً سموها: وَدًّا وَسُوَاعًا وَيَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا، وكانوا يظنون أن هذه الأصنامَ تنفعُهم وتضرُّهم، وتقربُهم إلى اللهِ زلفى، واشتدَّ طغيانُهم، وزادَ كفرُهم، وعمَّ الفسادُ في كلِّ مكان''.

دعوةُ نوحٍ والصبرُ الطويل

واصلت ''سُلافة'' بصوتٍ يملؤه الأسى: ''فبعثَ اللهُ فيهم نبيه نوحاً عليه السلام، فدعاهم ليلَ نهار، سـراً وإعلاناً، في السـهلِ والجبل، في جماعة وفرادى، لكنهم قابلوه بالاستكبار، وقالوا: ﴿مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾ [هود:27]''.

صاحَ الذئب ''نَاب'' بغضب: ''يا للوقاحة! يحتقرون المؤمنين لأنهم فقراء وضعفاء!''.

أكملت ''سُلافة'': ''وصبرَ نوحٌ –عليه السلام– ألفَ سنةٍ إلا خمسين عاماً، يدعوهم إلى الله، وهم كلما دعاهم ازدادوا كفراً وعناداً، حتى يئسَ منهم، وبعد أن أوحى إليه ربه —جل وعلا– أنه لن يؤمن له أحد من قومه إلا الفئة القليلة التي ءامنت من قبل؛ دعا ربه دعوةَ المستضعف: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح:26]''.

بناءُ السفينة: سفينةٌ في الصحراء

رفعت ''سُلافة'' صوتَها بحماس: ''فاستجابَ اللهُ لدعائه، وأمره أن يصنعَ سفينةً عظيمة، في صحراءَ لا ماءَ فيها ولا بحر، فبدأ نوحٌ يقطعُ الأخشاب، وينشرُ الألواح، ويجمعُ القارَ والمسامير، وكان قومُه كلما مروا عليه، سخروا منه وضحكوا، وقالوا: يا نوح، أصبحتَ نجاراً بعد أن كنتَ نبيًّا؟ أم خرفتَ في كبرك؟ سفينةٌ في الصحراء؟ أين البحرُ الذي ستبحرُ فيه؟''.

ضحكَ القرد ''صَفْصَف'' رغم الخوف: ''يسخرون منه وهم لا يعلمون أن العذابَ آتٍ!''.

أكملت ''سُلافة'': ''فكان نوحٌ يردُّ عليهم بهدوءِ الواثقِ بوعدِ ربه: ﴿إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ * فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [هود:38-39]''.

الحيواناتُ في السفينة: ركوبُ الأزواج

تابعت ‘‘سُلافة’’: ‘‘وحين اكتملَ بناءُ السفينة، جاء أمرُ الله: أن يحملَ فيها من كلٍّ زوجينِ اثنين، ومن أهلهِ من آمن، وكانوا قلةً قليلة، فبدأتِ الحيواناتُ والطيورُ تأتي أفواجاً، من كلِّ لونٍ ونوعٍ، تدخلُ السفينةَ بأمرِ الله’’.

هنا، تحركَ في المجلسِ كلُّ حيوانٍ وكأنه يستعيدُ ذكرى أجداده: تقدمَ الأسد‘‘ هَزْبَر’’ وقال: لعلي من نسلِ ذلك الأسدِ الذي ركبَ السفينة.

وتقدمَ الفيل‘‘ خَطَّار’’ وقال: وأنا من نسلِ ذلك الفيلِ العظيم.

وتقدمَ الثعلب‘‘ حِيَل’’ وقال: وأنا من نسلِ ذلك الثعلبِ الذكي.

وتقدمتِ الحمامة‘‘ هَديل’’ وقالت: وأنا من نسلِ تلك الحمامةِ التي حملتْ غصنَ الزيتون.

بدايةُ الطوفان: حين فُتحتْ أبوابُ السماء

خفضت ‘‘سُلافة’’ صوتَها بخشوع: ‘‘وفجأةً، في يومٍ لم يكن في الحسبان، تفجرتِ الأرضُ عيوناً، وانفتحتْ أبوابُ السماءِ بماءٍ منهمر، والتقى ماءُ الأرضِ وماءُ السماء، فبدأ الطوفانُ العظيم، كانت المياهُ ترتفعُ وترتفعُ كالجبال، تبتلعُ كلَّ شيءٍ في طريقها’’.

وصفت ‘‘سُلافة’’ المشهدَ بتفصيل: ‘‘رأى الناسُ العذابَ بأعينهم، ففزعوا وهربوا إلى رؤوسِ الجبال، لكن الماءَ كان أسرع، تسلقوا الأشجارَ العالية، فغرقتِ الأشجار. صعدوا إلى قممِ الجبال، فغاصتِ الجبال، كانت الأمهاتُ ترفعُ أطفالَها فوق رؤوسها، والماءُ يصلُ إليهم، كان الآباءُ يصرخون: يا نوحُ! لكن نوحاً كان في السفينةِ يدعوهم: اركبوا معنا، ولكن الأوانَ قد فات’’.

ابنُ نوحٍ: المأساةُ الكبرى

صـــمتت ''سُـــلافة'' قليلاً، والدموعُ تترقرقُ في عينيها، ثم قالت بصـــوتٍ خفيض: ''ورأى نوحٌ ابنَه وهو يحاولُ أن ينجوَ بنفســـه في معزلٍ عن المؤمنين، فناداه بقلبِ الأبِ المشـــفقِ الحنون: ﴿يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ﴾ [هود:42]. لكن الغرورَ والقوةَ الكاذبةَ أعمتاه، فقال بغرورٍ وجبروت: ﴿سَـــآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِـــمُنِي مِنَ الْمَاءِ﴾ [هود:43]''.

صاحَ القنفذ ''شَوْك'' باكياً: ''يا إلهي! ابنُ نبيٍّ يرفضُ دعوةَ أبيه!''.

أكملت ''سُلافة'': ''فقال نوحٌ بحسرةِ الأبِ الذي يرى ولدَه يهلكُ أمامَ عينيه: ﴿لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾ [هود:43]. وحالَ بينهما الموجُ العظيم، فكان الابنُ من المغرقين، نعم يا أهلَ الغابة، لقد كان من المغرقين، ولو كان ابنَ نبيٍّ مرسل، فالقرابةُ لا تنفعُ إذا ضاعَ الإيمان''.

نهايةُ الطوفان: استواءُ السفينة

ارتفع صوتُ ''سُلافة'' بخشوع: ''وعمَّ الماءُ الأرضَ كلَّها، فلم يبقَ على وجهها من الكافرين أحد، هلكوا جميعاً بما فيهم زوجةُ نوحٍ ومن تبعه من الطغاةِ الجبابرة، ولم ينجُ إلا من كان في الســـفينةِ من المؤمنين، ثم جاء الأمرُ الإلهيُّ العظيم: ﴿يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي﴾ [هود:44]''.

وصـــفت ''سُـــلافة'' المشـــهد: ''فهدأَ الطوفانُ وغاضَ الماء، واســـتوتِ الســـفينةُ على جبلِ الجوديِّ في مشـــهدٍ مهيب، وفتحَ نوحٌ –عليه الســـلام– بابَ الســـفينة، فخرجتِ الحيواناتُ أزواجاً، وخرج المؤمنون يســـبحونَ اللهَ ويشـــكرونه، وبدتْ الأرضُ جديدةً كأنها ولدت من جديد، وقد طهرها اللهُ من رجسِ الظالمين''.

شهادةُ الحيواناتِ على الطوفان

هنا، تقدمتِ الحمامة ''هَديل'' وقالت بفخر: ''أنا من نسلِ تلك الحمامةِ التي أرسلها نوحٌ لترى هل انحسر الماء، ذهبتْ فلم تجدْ مكاناً لقدمها، فعادت، ثم أُرسِلَتْ ثانيةً فجاءت بغصنِ زيتونٍ أخضر، فعلم نوحٌ أن الماءَ قد انحسر، ومنذ ذلك اليوم، صارتِ الحمامةُ رمزاً للسلام''.

وتقدمَ الغراب ''نَعَّاب'' بخجل: ''وأنا من نسلِ ذلك الغرابِ الذي أرسله نوحٌ فلم يرجع، فأصبحتُ عبرةً لمن يعتبر، لكنني أتوبُ إلى اللهِ مما فعله أجدادي''.

وتقدمَ الفيل ''خَطَّار'' بفخر: ''وأنا من نسلِ ذلك الفيلِ العظيم الذي ركبَ السفينة، وشهدَ قدرةَ اللهِ في إهلاكِ الظالمين''.

الموعظةُ الختامية: عبرةُ الطوفان

نظرت ''سُلافة'' إلى السماءِ التي صفتْ بعد العاصفة، ثم إلى البحرِ الذي هدأ بعد الهيجان، وقالت موعظتَها البليغة: ''انظروا كيفَ أهلكَ اللهُ الظالمين بالطوفان، ونجَّى المؤمنين في السفينة، لقد كان الطوفانُ الذي رأيتموه اليومَ مجردَ تذكيرٍ بذلك الطوفانِ العظيم، فما أغنتْ عن قومِ نوحٍ قوتُهم ولا أموالُهم حين جاء أمرُ الله''.

ثم تابعت بصوتٍ الأم الحنون: ''فاتعظوا يا أحبتي من قصةِ الطوفان، فلا يغرنَّكم قوتُكم، ولا تغتروا بمنعتكم، ففوقَ كلِّ قويٍّ من هو أقوى منه، وهو اللهُ القويُّ العزيز، وتذكروا أن من حاربَ اللهَ غلبهُ الله، ومن نازعَ اللهَ في كبريائه قصمهُ الله، فكلُّ قوةٍ في الأرضِ إلى زوال، ولا يبقى إلا قوةُ الكبيرِ المتعال''.

أضافت الحمامة ''هديل'' وقد عاشت زمناً في ديار البَشَر: ''وانظروا يا أحبتي إلى حالِ الناسِ اليومَ في هذا الزمان، كم من طاغيةٍ يظنُّ أن قوتَه ستحميه، فإذا به يهلكُ في ليلةٍ

وضحاها، كم من جبارٍ يظلمُ عبادَ الله، ويسفكُ الدماء، ويفسدُ في الأرض، ثم تأتيه ريحٌ عاتية، أو زلزالٌ مدمر، أو فيضانٌ عظيم، فيُهلكه اللهُ كما أهلكَ قومَ نوح".

وتابعت بتحذير: "فالعبرةُ يا أحبتي أن نكونَ مع الحقِّ وأهلِه، وأن ننصرَ المظلومَ ونعينَ الضعيف، وأن نستخدمَ ما وهبنا اللهُ من قوةٍ في طاعتِه ومرضاتِه، لا في البغيِ والعدوان. وتذكروا دائماً قولَه تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ [آل عمران:140]".

الفصل الخامس

في قصةِ عادٍ ذوي العماد، وكيف أهلكهم ربُّ العباد

تحتَ السدرةِ العتيقة: سؤالُ الخلدِ ونشأةُ الأمم

ما إن انتهتِ السُّلحفاة ''سُلافة'' من قصةِ الطوفانِ المهيبِ الذي عمَّ الأرضَ وأغرقَ الجبابرةْ، حتى علت همهماتٌ بين الحيواناتِ الكرامْ، وقد تملكَهم الذهولُ من قوةِ الماءِ وجبروتِه حين فاضتِ البحارُ والأمطار، كان الخوفُ قد تسربَ إلى قلوبِهم كالنسيمِ الباردِ في ليلةٍ شاتية، فصارت نظراتُهم تحملُ سؤالاً واحداً يدورُ في خلدِ كلِّ حيٍ في هذه الغابةِ العتيقةْ: هل انتهى الأمرُ يا تُرى، أم أن للقصةِ بقية؟

كسرَ الصمتَ هذه المرةَ صوتُ الخُلْدِ ''خُلْدونْ''، الذي أخرجَ رأسَه من الترابِ بحذرٍ وتؤدةْ، وقد التصقَ به الطينُ كأنه جزءٌ من تكوينِه وخلقته، وقال بصوتٍ مكتومٍ كأنه قادمٌ من باطنِ الأرضِ في جوفِ الظلمة: ''يا سُلافةُ، يا حكيمةَ الغابِ ويا راويةَ الأحقابْ، لقد غُسلتِ الأرضُ بالماءِ الطهورْ، فهل اغتسلتْ قلوبُ أهلِها من الكبرياءِ والغرورْ؟ وهل بنى الناجونَ حضارتَهم على التقوى والخشيةِ والإيمانْ، أم عادوا إلى سيرتِهم الأولى في الطغيانِ والعدوانْ؟''.

تنهدتِ السُّلحفاة ''سُلافة'' تنهيدةً عميقةً خرجت من صدرِها كأنها زفيرُ الجبالْ، وقالت بصوتٍ يحملُ حكمةَ الأزمانِ وتجاربَ الأجيالْ: ''سؤالُك في الصميمِ يا ''خُلْدونْ''، فسُنَّةُ النسيانِ في طبعِ ابنِ آدمَ متأصلةٌ فيه كالنقشِ في الحجرْ، نعم، مرتِ الأجيالُ بعد نوحٍ – عليه السلام– وتكاثر الناسُ وملأوا السهولَ والوديانَ والآكامْ، ومن بينِ القبائلِ التي ظهرت

على وجه الأرضِ بعد الطوفانْ، برزت قبيلةٌ اســمها ''عادٌ'' في أرضِ الأحقافِ والرمالْ، لم يُخلقْ مثلُها في البلادِ في القوةِ والجبروتِ والاستطالة''.

وصفُ عادٍ وقوتِهم

قاطعَها الفيل ''أَنْياب'' بصـوتِه الرزينِ الهادئ، وقد حرَّكَ خرطومَه الطويلَ كأنه يتأملُ في عظمةِ الخلق: ''وكيفَ كـانت عـادٌ يا سُـــلافة؟ وما الـذي ميزَهم عن ســـائرِ الأممِ والأجيالْ؟''.

أجابت ''سُلافة'' وقد لمعت عيناها ببريقِ الذكريات: ''كانوا يا ''أَنْياب'' أصحابَ أجسادٍ كأنها النخيلُ طولاً وارتفاعاً، وقوةٍ تزلزلُ الأرضَ عرضــاً واتســاعاً، بنوا مدينةً عظيمةً ســموها ''إرَمَ ذاتِ العِمادْ''، ذاتَ قصـورٍ شـاهقةٍ وأعمدةٍ ممددةٍ من الرخامِ والجلمودْ، لم يرَ الراؤونَ مثلَها في الأممِ السـابقةِ والعهودْ، كانوا يسكنونَ القصورَ المشيدة، ويعيشـونَ في نعيمٍ وترفٍ وسعادة، ويظنون أن قوتَهم ستدومُ وأنهم في الدنيا خالدون''.

قاطعها القندس ''سَــدَّاد'' وكان مهندســاً بارعاً في بناءِ الســدودِ والقناطرْ، وقال بإعجابٍ يمازجُه تســاؤلٌ وتفكير: ''وما العيبُ في القوةِ والعمرانِ يا تُرى؟ أليس ذلك دليلاً على عقلِ الإنســـانْ، وقدرتِه على تســـخيرِ الزمانِ والمكانْ؟ أليس في البناءِ إعمارٌ للأرضِ وتجميلٌ للحياةْ؟''.

ردَّ عليه البوم ''بَصــير'' بحكمتِه المعهودة التي لا تخطئ، وقد انفرجت عيناه الثاقبتان في الظلام: ''ليس العيبُ في القوةِ والعمرانِ يا ''سَدَّاد''، بل في الغرورِ بهما والإفساد، إن القوةَ التي لا تحكمُها حكمةٌ وإيمان؛ تتحولُ إلى نقمةٍ على أهلها وأحزان، لقد قال لهم نبيهم هودٌ -عليه السـلام- كما حكى القرآن: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ﴾ [الشعراء:128]، وقال أيضاً: ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ [الشعراء:129]. لقد كان بناؤُهم للفخرِ والتباهي والتفاخرْ، لا للحاجةِ والمأوى كما يفعلُ الناسُ في الحضرِ والسفرْ''.

الغرورُ والتحدي

أكملت ''سُلافة'' بصوتٍ يرتفعُ شيئاً فشيئاً كالموجِ إذا تلاطم: ''صدقتَ يا ''بَصير'' لقد اغترّوا بقوتِهم وجبروتِهم وعُدوانهم، وقالوا في كبرياءٍ وغفلةٍ وعنجهية: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت:15]. نسوا الذي خلقَهم ومنحَهم تلك القوةَ العظيمة، وعادوا إلى عبادةِ الأصنامِ التي لا تضرُّ ولا تنفعُ ولا تجيب، وإذا بطشوا بأحدٍ من ضعفاء الناسِ، بطشوا جبارينَ لا يعرفون رحمةً ولا يرحمون ضعيفاً أو مسكيناً أو ذا حاجةٍ أو فاقة''.

صاحَ الذئب ''نَاب'' بصوتِه الأجشِّ المتوحش: ''وهل تركهم اللهُ دون نذيرٍ يا تُرى، أم أرسلَ إليهم من يدعوهم إلى مصيرٍ خيرٍ من هذا المصيرْ؟''.

أجابت ''سُلافة'' بثقةِ العالمةِ بما جرى: ''حاشا للهِ يا ''نَاب'' أن يتركَ عبادَه سدىً بلا هدايةٍ وإنذار، فمن رحمتِه الواسعةِ أنه لا يعذبُ قوماً حتى يقيمَ عليهم الحجةَ الواضحة، ويبعثَ فيهم رسولاً ينذرُهم ويخوّفُهم ويحذِّرُهم. فبعثَ فيهم رجلاً منهم، يعرفونَ نسبَه وصدقَه وأمانتَه، هو ''هودٌ'' -عليه السلام- كان حليماً حكيماً صبوراً شكوراً، فدعاهم إلى عبادةِ اللهِ وحده لا شريكَ له، وذكَّرهم بنعمِه عليهم، كيف جعلَهم خلفاءَ من بعدِ قومِ نوحٍ الذين أهلكهم الله، وزادهم في الخلقِ قوةً وبسطةً وطولاً''.

دعوةُ هودٍ واستجابةُ المترفين

تابعت ''سُلافة'' بصوتٍ يحملُ نبرةَ الأسى على حالِ القوم: ''لكنهم يا أهلَ الغابة نظروا إليه باحتقارٍ واستكبار، وقالوا كما حكى عنهم الربُّ الجبار: ﴿مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾ [هود:27]''.

هنا تدخلَ الثعلب ‘‘حِيَل’’ بدهائِه المعروف، وقد لمعت عيناه ببريقٍ ذكي: ‘‘يا إلهي! إنها نفسُ الحجةِ الباطلة التي تقالُ لكلِّ نبيٍّ مرسـل، إنهم يستكبرون عن اتباعِ من هو مثلُهم بشر، ويحتقرونَ الضعفاءَ الذين آمنوا به، ظناً منهم أن الإيمانَ حكرٌ على الأغنياءِ والوجهاءِ والكبراء’’.

أكملت ‘‘سُلافة’’: ‘‘وقد اتهموهُ بالسفاهةِ والجنون، كما هي عادةُ المترفين، وقالوا إن آلهتَهم هي التي أصابته بسوءٍ وحاقت به المنون، فكان يردُّ عليهم بصبرِ الأنبياءِ وحلمِ الأتقياء: ﴿يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف:67]’’.

وحين حذَّرَهم من عذابِ اللهِ ونكالِه، استكبروا وتحدَّوه بغرورٍ وقالوا: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الأعراف:70]’’.

عندها، هزَّ الأسد ‘‘هَزْبَر’’ رأسَه بغضبٍ ملكيٍّ وقال: ‘‘ما أشدَّ حمقَ من يتحدى خالقَه! فالقوةُ الحقيقيةُ تعرفُ حدودَها، ولا تتباهى بوجودِها أمامَ من خلقَها وسواها’’.

مقدماتُ العذاب: القحطُ والجفاف

واصلت ‘‘سُلافة’’ بصوتٍ خفيضٍ كأنه نذيرُ عاصفةٍ قادمة: ‘‘وهنا يا سادةَ الغابةِ الكرام، بدأت مقدماتُ العذابِ والهلاك. أمسكَ اللهُ عنهم المطرَ سنينَ عجافاً، فجفَّتِ الأنهارُ والآبار، واصفرَّ الزرعُ وماتتِ الأشجار. أصابهم القحطُ والجفافُ والقحطُ والجدب، وهم القومُ الذين كانت حياتُهم تعتمدُ على الماءِ والقطافِ والري. هلكت مواشيهم، وذبلت زروعُهم، وجفت عيونُهم، وهم لا يزالون في غيِّهم يعمهون، وفي كفرِهم يترددون’’.

سأل القنفذ ‘‘شَوْك’’ بفضول: ‘‘وماذا كان ردُّ فعلِهم على هذا البلاءِ المبين؟’’.

أجابت ‘‘سُـــلافة’’: ‘‘ازدادوا كفراً على كفر، وعناداً على عناد، وقالوا: إنما أصـــابنا هذا الجدبُ بســـببِ شـــؤمِ هودٍ ومن آمن معه من العباد، فزادهم ذلك إصـــراراً على الكفرِ والفساد’’.

السحابةُ المنتظرة: الظنُّ الخاطئ

رفعت ‘‘سُلافة’’ رأسَها نحو السماء، وخُيلَ للحاضرين أن عينيها ترى ما وراءَ الغيومِ والأبعادْ، وقالت بصوتٍ يجلجلُ كالرعدِ البعيد: ‘‘ثم في يومٍ من الأيام، رأوا سحابةً عظيمةً سـوداءَ تقتربُ من أوديتِهم وديارِهم، ففرحوا واسـتبشـروا، وخرجوا يركضـونَ وهم يصـيحونَ ويقولون: ﴿هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾ [الأحقاف:24]’’.

ضـحكَ الثعلب ‘‘حِيَل’’ ضـحكةً ماكرةً فيها مرارةُ السـخرية: ‘‘ما أشـدَّ سـخريةَ القدرِ يا إخوتاه! حين يظنُّ الهالكُ أن في هلاكِه المطرَ والخير، ويكونُ فيه عذابُه الأليمُ والوبيل!’’.

أكملت ‘‘سُلافة’’: ‘‘ لم تكن سحابةَ مطرٍ وخيرٍ ورحمة، بل كانت سحابةَ عذابٍ ونقمة، قال لهم نبيهم هودٌ في حسرةِ النبيّ الذي يرى قومَه يهلكون: ﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الأحقاف:24]’’.

الريحُ العقيم: كيف أهلك الله عاداً

صمت الجميعُ والرهبةُ تملأُ النفوس، وأكملت ‘‘سُلافة’’ بصوتٍ يرتجفُ كأنه يروي مشـــهداً رآه بعينيه: ‘‘وبدأتِ الريحُ يا أهلَ الغابة! لم تكن ريحاً كالتي تعرفونَها في ليالي الخريفْ، بل كانت ريحاً صرصراً عاتية، باردةً قارسة، قويةً عنيفة، لا تبقي ولا تذر، سخرها اللهُ عليهم سبعَ ليالٍ وثمانيةَ أيامٍ حسـوماً، متواصـلةً لا تهدأُ ولا تفتُر، كانت تحملُ الواحدَ منهم فترفعُه في الهواءِ عالياً كالريشـةِ الخفيفة، ثم تنكسـه على رأسِـه في الأرضِ فتندقُّ عنقُه وتتحطمُ عظامُه، كأنهم أعجازُ نخلٍ خاوية، كانت تدخلُ في بيوتِهم وقصورِهم التي كانوا بها

يفخرون، فتدمِّرُها فوقَ رؤوسِـــهم وهم ينظرونَ فلا يســتطيعونَ حيلة، صــراخُهم وضــجيجُهم وقوتُهم وجبروتُهم، ابتلعتها أصواتُ الريحِ المدوية كأنها لم تكن''.

صاحَ القرد ''صَـفْصَـف'' وقد ارتجفَ من هولِ المشـهد: ''يا للهول! تلك الريحُ التي كانوا يتنفسونها، صارت عذاباً يقتلهم!''.

أكملت ''سُلافة'': ''وبعدَ ثمانيةِ أيام، سكنتِ العاصفة، وظهرتِ الشمسُ بهدوءٍ بعد ذلك الجهاد، فلم يكن يُرى إلا مســاكنُهم الخاوية، وجثثُهم المتناثرةُ كأنها جذوعُ نخلٍ بالية، لقد أهلكهم اللهُ بالهواء، ذلك الشـــيءُ اللطيفُ الذي كانوا به يتنفســـون، ليعلموا أن القوةَ للهِ جميعاً، وأن أضعفَ جنودِ اللهِ قادرةٌ على إهلاكِ أقوى الأقوياء''.

نجاةُ هودٍ والمؤمنين

ســـألتِ الحمامة ''هَديل'' بصـــوتٍ خافت: ''وماذا حدثَ لهودٍ ومن معه من المؤمنين؟''.

أجابت ''سُـلافة'': ''لقد نجا هودٌ ومن آمن معه برحمةِ اللهِ وفضـلِه، فقد أخرجهم الله من تلك القريةِ الظالمة قبلَ أن يحلَّ بها العذاب، وعاشوا في الأرضِ آمنين، شاكرين لربِّهم على نجاتِهم من ذلك العذابِ المهول''.

الموعظةُ الختامية: القوةُ للهِ جميعاً

صـمتت ''سُـلافة'' قليلاً، ثم نظرت إلى كلِّ ذي قوةٍ في الغابة، من الفيل ''أَنْياب'' إلى الأســـد ''هَزْبَر''، ومن النمر ''أَرْقَط'' إلى الذئب ''نَاب''، وقالت موعظتَها البليغةَ الختامية بصوتٍ يهزُّ النفوسَ قبلَ الأسماع: ''فلتكن لكم في عادٍ عبرةٌ يا كلَّ من اغترَّ بقوتِه وقدرتِه وعنفوانِه، إن القوةَ ليست في ضخامةِ الجسد، ولا في ارتفاعِ البنيانِ والعمد، بل القوةُ

الحقيقيةُ في خشـــيةِ الله، والتواضـــعِ أمامَ عظمتِه، والاعترافِ بأن كلَّ قوةٍ هي من فضـــلِه وإحسانِه''.

ثم ارتفع صـــوتُها أكثر: ''فما أغنت عن عادٍ قوتُهم حين جاء أمرُ الله، بل كانت ســـببَ هلاكِهم وبلائِهم، فلا تقولنَّ يوماً: ''أنا الأقوى''، ولا تغترنَّ ببطشِـــك، فربما كان هلاكُك على يدِ أضعفِ مخلوقٍ تراه، فالأسدُ تقتلُه حشرةٌ صغيرةٌ تدخلُ أنفَه، والفيلُ تصرعُه حشرة لا يراها طرفُه. فالقوةُ، كلُّ القوةِ لله، ومن تواضعَ للهِ رفعَه، ومن تكبّرَ على اللهِ وضعَه''.

أضافت الحمامة ''هديل'' وقد رأت في عيونِ الحاضرينَ شغفَ المعرفة: ''انظروا إلى حالِ الناسِ اليومَ في هذا الزمان، كيف يُعجَبون بقوتِهم الماديةِ وتقنياتِهم المتطورة، ويظنون أنهم قادرون على كلِّ شيء، ترى الدولَ الكبرى تتباهى بجيشِها وأسلحتِها، وتظن أنها قادرةٌ على إخضاعِ العالمِ بأسره، ولكن تأتي ريحٌ عاتيةٌ أو زلزالٌ مدمر، فتدمرُ ما بنوه في سنواتٍ في لحظات، وتُريهم أن من بيده ملكوتُ كلِّ شيءٍ هو اللهُ الواحدُ القهار''.

وختمتْ بصوت خافت: ''وكما أهلكَ اللهُ عاداً بالريح، فإنه قد يهلكُ الظالمينَ اليومَ بأنواعٍ من العذاب: أعاصيرَ وفيضاناتٍ وزلازلَ وبراكين، وحروبٍ تفتكُ بهم وهم لا يشعرون''.

الفصل السادس

في أعجوبةِ الصخرة، وعاقبةِ قاتلِ الناقةِ النادرة

تحتَ السدرةِ العتيقة: صمتُ التفكرِ وسؤالُ الوعل

ما إن هدأت أصداءُ قصةِ الريحِ العاتية التي أهلكت عاداً في ديارِهم وأوديتهم، حتى تملّكَ الجمعَ صمتٌ فيه من التفكُّرِ ما فيه، ومن التأملِ ما يشغلُ القلوبَ في خفاياها، فكيف لقومٍ كالنخيلِ طولاً وارتفاعاً، أن يصبحوا كجذوعِها صرعى على الأرضِ عرضاً وانبطاحاً؟ وكيف لريحٍ لطيفةٍ كانت تلاعبُ أغصانَ الشجر، أن تتحولَ إلى عذابٍ يمحقُ البشر؟

كسرَ هذا الصمتَ صوتُ الوعل "صَخْر" المهيب، الذي كان جبينُه يعانقُ السحابَ في عليائِه، وقرونُه تُلاعبُ الضبابَ في فضائِه، فقال بصوتٍ فيه من صلابةِ الجبالِ وقار، ومن رسوخِ الصخورِ استقرار: "يا سُلافةُ، يا من رأيتِ تعاقبَ الليلِ والنهار، وتعاقبَ الأممِ عبرَ السنين والأعصار، لقد أهلكتِ الريحُ من بنى في السهلِ قصوراً شاهقة، فهل نجا من بطشِ ربِّهم من لجأ إلى الوعرِ والجبلِ واتخذ منه مساكنَ وثيقة؟ فقد رأيتُ بني آدمَ ينحتون الصخرَ بيوتاً في الجبال، ويظنون أنهم بذلك قد فاتوا الموتَ فوتاً، وأعجزوا القدرَ عن اللحاقِ بهم في كلِّ حال".

ضحكتِ السُّلحفاة "سُلافة" ضحكةً لم تكن للفرحِ والسرور، بل كانت للعبرةِ والذكرى والعظةِ في الأمور، وقالت: "يا صَخْر، سؤالُك قد نبشَ عن قصةٍ عجيبةٍ في التاريخ، وحكايةٍ غريبةٍ تسطرُها الأيامُ في الأسفار، فبعد عادٍ جاءت ثمودُ، قومٌ كسروا بصبرِهم كلَّ عمود، وتحدوا بقوتِهم كلَّ جلمود، ورثوا الأرضَ من بعدِ الهالكين، وكانوا في فنِّ النحتِ من

الماهرين، إذا بنوا في السهلِ قصوراً شامخةً تتراءى، اتخذوا من الجبالِ غرفاً آمنةً وراسخة، بيوتٌ في الصخرِ منحوتةٌ بإتقان، لا يخشون فيها ريحاً ولا موتاً ولا هوان''.

نقاشٌ حولَ الأمنِ من القدر

قاطعها القنفذ ''شَوْك'' وقد أخرج رأسه من بين أشواكِه بحذرٍ وخوف، وقال بصوتٍ يترددُ بين الخوفِ والرجاء: ''وهل هناك مأمنٌ من القدرِ يا تُرى؟ أليس البيتُ في الجبلِ أشدَّ ثباتاً، وأبعدَ عن الريحِ شتاتاً، وأحفظَ للساكنِ من الأذى والضرر؟''.

تدخلَ الثعلب ''حِيَل'' وقد لمعت عيناه بمكرٍ ودهاء، وأدارَ ذيلَه بحركةٍ فيها ذكاء: ''رويدَكَ يا شَوْك، فليس الأمانُ في قوةِ البناء، ولا في صلابةِ الحجرِ والخشبِ والطين، بل الأمانُ في ولاءِ القلبِ لربِّ السماء، وفي الإيمانِ باللهِ الواحدِ القهار، فما نفعُ الحصنِ المنيع، إذا كان ساكنُه في الفسادِ ضعيع؟ وما قيمةُ القصرِ المشيد، إذا كان صاحبُه بالكفرِ عنيد؟''.

صدّقتِ السُّلحفاة ''سُلافة'' على كلامِه بحكمةٍ تامة، وأيدتْ رأيَه بكلِّ احترام: ''لقد أصابَ ''حِيَل'' كبدَ الحقيقةِ وعلامتها، وأتى بالقولِ الفصلِ في نهايتها وبدايتها. لقد كانوا في أمانٍ من الخلقِ جميعاً، لكنهم تمردوا على الذي أعطى ورزقَ وأسبغَ النعماء. عبدوا أصناماً من الحجارةِ صنعوها بأيديهم، وتركوا عبادةَ من أخرجهم من الحجارةِ وسواها وأمدَّهم بالعطاء''.

دعوةُ صالحٍ عليه السلام

واصلت ''سُلافة'' بصوتٍ يحملُ نبرةَ الجدِّ والاهتمام: ''وكعادةِ ربّنا في إرسالِ النُذُرِ إلى الأقوام، بعثَ إليهم أخاهم ''صالحاً'' كالبدرِ في التمام، دعاهم إلى التوحيدِ وتركِ الشركِ الذميم، ونبذِ ما كان عليه الآباءُ من عهدٍ قديم، لكن الكِبرَ الذي في القلوبِ ترسَّبَ

واستقر، جعلهم ينظرون إليه في تعجُّبٍ وإنكار، وقالوا: ﴿يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَا ۖ أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ [هود:62]''.

سأل الأرنب ''وَجيب'' ببراءةٍ وخوف: ''وماذا كان ردُّ صالحٍ على هذه الأقوالِ يا تُرى؟''.

أجابت ''سُلافة'': ''كان ردُّه كما حكى القرآنُ العظيم: ﴿يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ ۖ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾ [هود:63]. لقد كان واثقاً من دعوتِه، مطمئناً لرسالتِه، لا يبالي بسخريتهم ولا بكلماتِه''.

التحدي الكبير: الناقةُ من الصخرة

ارتفع صوتُ ''سُلافة'' وهي تقتربُ من لبِّ القصة: ''ولما رأوا منه إصراراً وعزيمة، أرادوا أن يوقعوه في هزيمة، فاجتمعوا حول صخرةٍ في الوادي ملساء، وقالوا في تحدٍّ وسخريةٍ وغلواء: ''يا صالح، إن كنتَ بالحقِّ تتكلم، ومن ربٍّ عظيمٍ تتعلم، فأخرج لنا من هذه الصخرةِ الصماء، ناقةً عظيمةً شقراء، تكونُ في شهرها العاشرِ تئنُّ وتحمِل، لتكونَ برهاناً على صدقِك ونحن نرى ونظنُّ ونتأمل''''.

حبستِ الحيواناتُ أنفاسَها، حتى كاد الهواءُ أن ينفدَ من صدورِها، والأعينُ تترقبُ ما سيكون، فالطلبُ نفسُه كان معجزةً في الجنونِ والغرابة، فكيف للصخرِ الأصمّ أن يلدَ ما تلدُ البطونُ من أنثى وناقة؟

صاحَ القرد ''صَفْصَف'' من فوقِ غصنِه: ''يا إلهي! أيُّ تحدٍّ هذا؟ وكيفَ لمخلوقٍ أن يفعلَ ذلك إلا بإذنِ خالقِ الخلقِ أجمعين؟''.

واصلت ''سُلافة'' بصوتٍ خفيضٍ كأنه سرٌّ يُذاع: ''فوقف صالحٌ –عليه السلام– ولم يُبدِ لليأسِ انصياع، ولم يخفْ من تهديدهم ولا من ضغطِ الجموع، ودعا ربَّه بقلبٍ مؤمنٍ لا يرتاب، أن يُظهرَ الحقَّ ويهزمَ الأحزاب، فما هي إلا لحظاتٌ معدودات، حتى سمعوا

للصخرةِ أصواتاً وأنات، ثم تحركتِ الصخرةُ أمامَهم واهتزت، وبدأت تتمخضُ كما الأنثى إذا ولدت، ثم انفلقت نصفينِ بانفلاقٍ عظيم، وخرجت منها ناقةٌ ليست من صنعِ البشرِ أو الترميم، ناقةٌ في جمالِها آية، وفي ضخامتِها غاية، ومعها فصيلُها الصغيرُ يجري خلفَها، في مشهدٍ يسلبُ العقلَ ويَزري بكلِّ عقلٍ بشري، كانت تمشي في الوادي كالجبلِ الأشم، تشربُ من البئرِ يوماً ويشربونَ هم يوماً بقسمةٍ وحكم، فبُهتَ القومُ من هولِ المنظر، ووقفوا كأن على رؤوسِهم الطيرَ قد استقر".

سألتِ الغزالة "رَشاقة" بإعجاب: "وماذا قال لهم صالحٌ بعد هذه المعجزةِ الباهرة؟".

أجابت "سُلافة": "فقال لهم صالحٌ بصوتِ المنتصرِ الأمين: ﴿هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الأعراف:73]. وجعل لها يوماً في الشربِ معلوم، ولهم من بعدِها يوماً مقسوم، فكانت تمشي بينهم في الوادي والسهل، شاهدةً على قدرةِ من يقولُ للشيءِ كن فيكونُ ثم يتم".

نقاشُ الحيوانات: هل آمنوا؟

هنا تدخلَ الذئب "نَاب" بصوتِه الأجشِّ المتوحش: "وهل لانَ قلبُهم بعد هذا العجبِ العجيب؟ أم أن الكِبرَ إذا استحكمَ في النفوس، صار أقسى من الحجرِ والصلبِ والجلمود؟".

ردَّ البوم "بَصير" بحكمتِه المعهودة: "يا نَاب، إن القلبَ إذا قسا، لا تلينُه الآياتُ ولا المعجزات، لقد آمنَ الضعفاءُ والمساكين ومن كان في قلوبِهم خشوع، أما كبراؤهم من المتكبرين، فقد أكلت نارُ الحقدِ قلوبَهم وصدورَهم.

لقد رأوا في الناقةِ هزيمتَهم، وفي وجودِها نهايةَ سيادتِهم ورياستِهم، فاجتمع تسعةُ رهطٍ من أهلِ الفساد، وتآمروا على الناقةِ في سوادِ الليلِ والبلاد، وقال أشقاهم اللعين: "أنا لها، فلا يهدأ لي بالٌ حتى أراها من الهالكين".

جريمةُ قتلِ الناقة

صاحَ الأسد "هَزْبَر" بغضبٍ ملكيّ: "وكيفَ تجرأوا على قتلِ آيةِ اللهِ العظيمة؟".

أجابت "سُلافة" وهي ترتجفُ من هولِ المشهد: "وفي يومٍ مشؤومٍ أسودَ حالك، كمنوا لها في طريقِ الموردِ والمشارب، فرماها الشقيُّ بسهمٍ في ساقِها فأصابها، ثم علاها بسيفِه فزادَ في إرهاقِها وعذابِها، فسقطتِ الناقةُ العظيمةُ على الأرضِ تئن، وهي تطلقُ صرخةً واحدةً هزَّتِ السماءَ والأرضَ معاً، صرخةُ مظلومٍ ليس له نصير، إلى ربٍّ سميعٍ بصير".

أضافت بتفاصيلَ مؤلمة: "ثم تكالبوا عليها بسيوفِهم ورماحِهم، يتباهون بقوتِهم ونجاحِهم ويفخرون، وهرب فصيلُها الصغيرُ إلى رأسِ الجبل، وصرخَ ثلاثَ صرخاتٍ كانت نذيرَ الأجل، وعلامةَ العذابِ المنتظرِ بعد حين".

إنذارُ صالحٍ وعذابُ الظالمين

سألتِ الحمامة "هَديل" بصوتٍ خافت: "وماذا فعل صالحٌ حين علمَ بما جرى للناقة؟".

أجابت "سُلافة": "فلما علمَ صالحٌ بما جرى من قومِه وجاءه الخبر، جاءهم والغضبُ في وجهِهِ يُرى والبصر، وقال قولتَه الأخيرةَ المحكيةَ في الذكر: ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ۖ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ [هود:65]".

قاطعَها النمر "أَرْقَط" بفضول: "ثلاثةُ أيامٍ فقط؟ وماذا حدث فيها؟".

أكملت ‘‘سُـلافة’’: ‘‘في اليومِ الأولِ اصـفرّت وجوهُهم كأنها الذهب، وفي الثاني احمرّت كأنها اللهب، وفي الثالثِ اســـودّت كالفحمِ المحترق، وفي فجرِ اليومِ الرابع، جاءهم الأمرُ الذي لا يُدفع ولا يُرد، صيحةٌ واحدةٌ من السماءِ العالية، مزّقت أسماعَهم وأوقفتِ الدماءَ في العروقِ الجارية، فخرّوا في ديارِهم جاثمينَ على الركب، لم تغنِ عنهم حصونُهم شيئاً وهم من الهالكين، أصبحوا كالهشيمِ المحتظر، قصةً تُروى وعبرةً لمن اعتبر’’.

نجاةُ صالحٍ والمؤمنين

سأل الفيل ‘‘خَطّار’’ بصوتِه الرزين: ‘‘وماذا حدثَ لصالحٍ ومن معه من المؤمنين؟’’.

أجابت ‘‘سُلافة’’: ‘‘لقد نجا صالحٌ ومن آمن معه برحمةِ اللهِ وفضلِه، فقد أخرجهم اللهُ من تلك القريةِ الظالمة قبلَ أن يحلَّ بها العذاب، وعاشوا في الأرضِ آمنين، شاكرين لربِّهم على نجاتِهم من ذلك العذابِ المهولِ والعقاب’’.

الموعظةُ الختامية: قوةُ الضعفاء

صـمتت ‘‘سُـلافة’’ قليلاً، ثم نظرت إلى الوعل ‘‘صَـخْر’’ الذي نزل عن صـخرتِه وجلس مع الجمعِ متواضـعاً، وقالت موعظتَها البليغةَ الختامية هزّت بها القلوب: ‘‘فيا أهلَ الغابِ الكرام، انظروا إلى عاقبةِ الاستهزاءِ بالآيات، والتهاونِ بالحرمات، إن اللهَ قد يرسلُ آيةَ رحمةٍ كمعجزةِ الناقةِ العظيمة، فإذا قوبلت بالكفرِ والجحود، صارت مفتاحاً للعذابِ والنقمةِ الأليمة’’.

ثم رفعت صـوتها وتابعت: ‘‘فلا تظننَّ أن قوةَ الحصـونِ مانعة، فصـيحةٌ واحدةٌ من السـماءِ كانت لهم قامعة، ولا تظننَّ أن قتلَ بريءٍ هينٌ على الله، فدمعةُ مظلومٍ قد تُغرقُ ملكاً وتُزيلُ جاه، فاحذروا البغيَ على الضـعيفِ الذي لا ناصـرَ له إلا خالقه، واحذروا كسـرَ قلبِ من لا

جابرَ له إلا رازقه، فكم من جبارٍ أهلكته قشــة، وكم من حصــنٍ دمرته بعوضــة، إن القوةَ للهِ جميعاً، وهو يرى ويسمع، ويُملي للظالمِ حتى إذا أخذه لم يدعه يرجع''.

أضــافت الحمامة ''هديل'' وكان لديها شــيء من النظر والمعرفة: ''وانظروا إلى حالِ الناسِ اليومَ في هذا الزمان، كيف يعتدون على آياتِ اللهِ في الكونِ، ترى الظالمينَ يعتدون على المســاكين والضعفاءِ، ويظنون أنهم بمنأى عن عقابِ الله لكن تأتي صيحةٌ من السماء، أو زلزلةٌ من الأرض، فتدمرُ في لحظات ما بنوه في ســنوات، وكم من ظالمٍ نامَ قريرَ العين، فقام على دمارٍ لا يُعين''.

الفصل السابع

في صرحِ النمرودِ الشاهق، وابتلاءِ إبراهيمَ الخارق

في الغابة: ليلةٌ باردةٌ والنارُ تدفئُ الأحباب

كانت ليلةً شاتيةً قارسةَ البرد، والريحُ تعصفُ بالأشجارِ بعنف، والثلوجُ تتساقطُ على قممِ الجبال، ارتجفتِ الحيواناتُ من شـدةِ البرد، واجتمعتْ حولَ نارٍ كبيرةٍ أوقدتها سُـلافةُ الحكيمة، تتلمسونَ دفـءَ النيران، ويتبادلونَ أطرافَ الحديث في أمان.

كانت النارُ تتصاعدُ ألسنتُها في السماء، تارةً ترتفعُ كأنها تسبحُ الله، وتارةً تخفتُ كأنها تخشعُ لعظمته، والأغصانُ تتطايرُ منها الشرارُ كأنها نجومٌ صغيرة، تزينُ ظلمةَ الليلِ بأنوارها المنيرة.

صاحَ الثعلب "حِيَل" وهو يدني يديه من النار: "يا لهذا الدفءِ العجيب! إنها نارٌ طيبةٌ مباركة. لولاها لتجمدنا في هذه الليلةِ القارسة، سبحانَ من خلقَ النارَ وجعلها دفئاً ورحمة".

نظرتِ السُّلحفاة "سُلافة" إلى النارِ نظرةً تأملية، وقالت بصوتٍ يحملُ حكمةَ الأزمان: "يا أحبتي، إن النارَ التي تستدفئون بها اليوم، هي نفسُها التي كانت يوماً اختباراً لأعظمِ الأنبياء، إنها النارُ التي أُلقيَ فيها الخليلُ إبراهيم، فكانت عليه برداً وسلاماً، أتسمحون لي أن أقصَّ عليكم تلك القصةَ العجيبة؟".

بدايةُ القصة: النمرودُ الطاغية

صاح الجميعُ بحماس: "نعم يا سُلافة، حدثينا عن نارِ الخليل وعن الطاغيةِ الجبار".

بدأت ''سُلافة'' بصوتٍ يجلجلُ كالرعدِ البعيد: ''يا أهلَ الغابِ الكرام، اسمعوا قصةً هي من أعجبِ القصص، وعبرةً لكلِّ من طغى وتجبر، كان في قديمِ الزمان ملكٌ جبارٌ اسمه النمرود، ملكَ الأرضَ وسارَ فيها بالظلمِ والفساد، ادّعى الربوبيةَ والألوهيةَ من دونِ الله، وقال لقومه في غطرسةٍ وخيلاء: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات:24]''.

سأل الأرنب ''وَجيب'' بدهشة: ''يدّعي الألوهيةَ وهو بشرٌ يأكلُ ويشربُ ويموت؟!''.

أكملت ''سُلافة'': ''نعم يا وَجيب، وكان قد بنى صرحاً عظيماً شاهقاً في السماء، زعمَ أنه سيصعدُ به ليحاربَ إلهَ إبراهيم، وكان يتحكّمُ في رزقِ العباد، فلا يطعمُ أحدٌ إلا بإذنه، فيظنُّ الجهلاءُ أنه هو الإله''.

إبراهيمُ يظهرُ في ظلماتِ الكفر

رفعت ''سُلافة'' صوتَها: ''وفي وسطِ هذا الليلِ الكالح من الكفرِ والجبروت، سطعَ نورٌ من نبيٍّ لم يخشَ بطشاً أو موت. بعثَ اللهُ نبيَّه إبراهيم عليه السلام، شاباً فتيّاً يحملُ لواءَ التوحيد والسلام. بدأ يحطمُ الأصنامَ بيدِ الفأسِ الشديدة، ويدعو الناسَ لعبادةِ الإلهِ الواحد''.

صاحَ الذئب ''نَاب'' بإعجاب: ''يا له من شجاع! يواجهُ طاغيةً جباراً وحده!''.

أكملت ''سُلافة'': ''وصلَ خبرُ إبراهيم إلى النمرود، فأمر بإحضاره إلى قصرهِ المشيد. وقفَ إبراهيمُ أمامَ الطاغيةِ بثقةٍ لا تهتز، فقال له النمرودُ بسخرية: من ربُّك الذي تدعونا إليه؟ فقال إبراهيم: ﴿رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ [البقرة:258]''.

المراوغةُ الأولى: أنا أحيي وأميت

ضحكَ الثعلب ''حِيَل'' بذكاء: ''فماذا قال الطاغيةُ لهذه الحجةِ الواضحة؟''.

أجابت ''سُـلافة'': ''قال النمرودُ في غطرسـة: أنا أحيي وأميت. ثم أمر بإحضـار رجلين محكومين بالموت، فأطلقَ سراحَ أحدهم (زاعماً أنه أحياه) وقتلَ الآخر (زاعماً أنه أماته)''.

صاحَ القرد ''صَفْصَف'' بسخرية: ''يا له من تلاعبٍ سخيف! الرجلُ الثاني كان حياً، فأين الإحياء؟!''.

أكملت ''سُـلافة'': ''وهنا، انتقلَ إبراهيمُ إلى حجةٍ أكبر، قال: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّـمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ﴾ [البقرة:258]''.

صـاحَ الأسـد ''هَزْبَر'' بإعجاب: ''يا لها من حجةٍ قوية! الشـمسُ تشـرقُ كلَّ يومٍ من المشرق، فهل يستطيعُ الطاغيةُ أن يأتي بها من المغرب؟!''.

أكملت ''سُـلافة'': ''فبُهتَ الذي كفر، وعجزَ عن الجواب، لكن الطغاةَ لا يردعهم عجز، بل يلجؤون إلى القوةِ والبطش، فأمرَ النمرودُ جنودَه أن يجمعوا من الحطبِ ما لا يُحصـى، وأشعلوا ناراً عظيمةً لم يُرَ مثلها''.

النارُ العظيمة: شهادةُ النارِ بنفسها

هنا، ارتفعَ صـوتٌ من النارِ التي كانوا يسـتدفئون بها، فتمايلت ألسـنتُها بخشـوع، وقالت بصـوتٍ يترددُ في الأرجاء: ''أنا تلك النارُ التي أُشـعلتْ لإبراهيم. كنتُ ناراً عظيمةً هائلة، تأكلُ الحطبَ وتتصـاعدُ إلى السـماء، حفروا لي خندقاً عظيماً، وأشـعلوا فيَّ سـبعةَ أيام، حتى إن الطيرَ كان إذا مرَّ بي يسـقطُ محترقاً من شـدةِ لهيبي، وكانوا يلقون فيَّ من يعصيهم من الناس، فأحرقهم في لحظات''.

سألتِ الغزالة ''رَشاقة'' بخوف: ''وكيفَ كان إبراهيمُ حين ألقوه فيك؟''.

أكملتِ النارُ بصـــوتٍ خاشـــع: ''وضــعوا إبراهيمَ في المنجنيق، والناسُ ينظرون إليه يرقبون مصــيره. وقف إبراهيمُ بثقةٍ وإيمان، وقال كلمته الخالدة: حســبي الله ونعم الوكيل. ثم ألقوه فيَّ، وصرخ الناسُ: يا إبراهيم! لكن صوتَه كان أقوى من صرخاتهم''.

أمرُ الله: يا نارُ كوني برداً وسلاماً

رفعتِ النارُ صـــوتَها بخشـــوعٍ عظيم: ''وفي تلك اللحظةِ العصـــيبة، وإذا بأمرِ اللهِ يأتيني: ﴿يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الأنبياء:69]''.

صـــمتتِ النارُ لحظة، ثم أكملت: ''يا أهلَ الغابة، لقد نزلَ عليَّ أمرُ الله، فلم أســتطع إلا الطاعة، تلاشـــت حرارتي، وانطفأت نيراني، وتحولتُ إلى بردٍ وســـلام، كنتُ أرى إبراهيمَ جالساً في وسطي كأنه في روضةٍ من الجنان، والناسُ ينظرون إليه من بعيد مذهولين، وقفوا يتســـاءلون: من فعل هذا؟ من حماه من النار؟ فآمنَ به كثيرون، وظلَّ الكافرون في ضلالهم''.

سأل الفيل ''خَطَّار'' بفضول: ''وماذا حدثَ للنمرودِ الطاغية بعد هذه المعجزة؟''.

أجابت ''سُلافة'' بأسى: ''ازدادَ كفراً وعناداً، وتمادى في طغيانه، فسلطَ اللهُ عليه جندياً من أضعفِ جنوده، بعوضةٌ صغيرةٌ دخلت في أنفه، واستقرت في رأسه، وظلتْ تعذبه سنين، كان لا يهدأ له بالٌ ولا يستطيع نوماً، وكان العبيدُ يضربونَ رأسه بالنعال ليخففوا عنه، حتى مات بتلك البعوضةِ الذليلة. فسبحانَ من أهلكَ الجبارَ بأضعفِ خلقه''.

ضحكَ الثعلب ''حِيَل'' وقال: ''يا لعظمةِ الله! من كان يظنُ أن بعوضةً صغيرةً تهلكُ أعتى طاغية؟!''.

الموعظةُ الختامية: النارُ بين العذابِ والنعيم

نظرت ''سُــلافة'' إلى النارِ التي لا تزالُ تتوهجُ بدفئها، وقالت موعظتَها البليغة: ''يا أهلَ الغاب، انظروا إلى هذه النارِ التي تدفئكم اليوم، إنها نعمةٌ من الله، لكنها قد تكونُ نقمةً على الكافرين، هكذا هي الدنيا، نارٌ وبردٌ، عذابٌ ونعيم، بحسبِ إيمانِ العبد وعمله، فاتعظوا يا أحبتي من قصـــةِ الخليل، فالتوكلُ على الله يقلبُ النارَ برداً، والثقةُ به تجعلُ المستحيلَ ممكناً، ومن كان اللهُ معه، فلا خوفَ عليه، ومن كان عليه، فلا أمانَ له، وتذكروا أن النارَ التي تدفئكم اليوم، قد تكونُ نارَ عذابٍ لمن خالفَ أمرَ الله، كما كانت نارَ نعيمٍ لمن آمن به وأطاعه''.

أضافت الحمامة ''هديل'' وقد رأت في عيونِ الحاضرينَ شغفَ المعرفة: ''وانظروا إلى حالِ الناسِ اليومَ في هذا الزمان، كم من طاغيةٍ يظنُّ أن قوتَه تحميه، فإذا به يهلكُ كما هلكَ النمرود، وكم من نارِ فتنةٍ يشـعلونها في الأرض، يظنون أنهم يحرقون بها المؤمنين، فإذا هي بردٌ وسلامٌ على الصادقين''.

الفصل الثامن

في فاحشةِ قومٍ لا يُطاقون، وعاقبةِ أمرٍ لا يُطاق

تحتَ السدرةِ العتيقة: صمتُ الرهبةِ وسؤالُ الذئب

ما إن أسدلتِ السُّلحفاة ''سُلافة'' ستارَ قصةِ النمرودِ والبعوضةِ التي أهلكتْ أعتى الجبابرةْ، حتى ساد صمتٌ ليس كأيِّ صمتٍ في الغابةِ العامرةْ، كان صمتاً فيه من الخشيةِ ما يجمدُ الدماءَ في العروق، ومن الذهولِ ما يخرسُ الهواءَ في كلِّ سُوق، حتى الأسد ''هَزْبَر'' غضَّ طرفَه المهيب، وكفَّ عن الحركةِ عرفُه الرهيب.

لكن الذئب ''نَاب''، الذي لا يطيقُ السكونَ في المجالس، ولا يرضى عن الشرِّ إلا أن يكونَ من أوسعِ الحواس، قال بصوتٍ خشنٍ فيه من الفضولِ ما فيه من الجنون، ومن التساؤلِ ما يحرقُ القلوبَ بالظنون: ''يا سُلافةُ، يا من رويتِ لنا عن سالفِ العبادِ وعاقبةِ الظلمِ والفسادْ، هل بلغَ الانحرافُ بالبشرِ هذا الحدَّ من العنادْ؟ أم أنهم أحدثوا من الفواحشِ ما لم يخطر على قلبٍ أو فؤادْ؟''.

بدايةُ الحكاية: قومُ لوطٍ وفسادُ الفطرة

أطرقتِ السُّلحفاة ''سُلافة'' رأسَها العجوز، وبدا كأن درعَها الحجريَّ قد وهنَ وتصدع، وقالت بصوتٍ فيه من الأسى ما فيه من الشجنِ والألم: ''لقد سألتَ يا ''نَاب'' عن أمرٍ تهتزُّ له الجبالُ الرواسي، وتخجلُ منه طبائعُ كلِّ إنسي، سألتَ عن قومٍ قلبوا الموازين، وخالفوا سنةَ ربِّ العالمين، عن قومٍ سكنوا ''سدومَ'' وما حولها من البلاد، فجعلوا من أرضِهم مسرحاً لأقبحِ فساد''.

قاطعها القرد ''صَـفْصَـف'' وهو يكاد يســقطُ من غصــنِه جزعاً وفزعاً، وقد فتح فاهُ من الدهشةِ اتساعاً: ''وماذا فعلوا يا سُلافة؟ وما هي تلك الخطيئةُ الخرّافة؟ هل عبدوا حجراً أم شجراً؟ أم قتلوا نبيّاً فكانوا بذلك أفجرا؟''.

تنهدت ''سُـلافة'' تنهيدةً كأنها زفيرُ الأرضِ المحروقة، وقالت: ''ليتهم فعلوا ذلك وكفى يا ''صَفْصَف'' بل ابتدعوا فاحشـةً ما سبقهم إليها من أحدٍ من الأنام، ولا فعلتها البهائمُ في غفلةٍ أو منام، لقد تركوا نساءَهم اللاتي خلقهنَّ اللهُ لهنَّ سكناً وحلالا، وذهبوا يأتون الرجالَ شـهوةً وضـلالا، فكان الرجلُ منهم يأتي الرجلَ في وضـحِ النهار، بلا حياءٍ ولا اسـتتار، بل تباهياً وإجهاراً وافتخار''.

استنكارُ الحيوانات: الفطرةُ السليمة

صـــرختِ الحيواناتُ صـــرخةً واحدةً هزَّت أركانَ الغابة، حتى الأفعى ''رَقْشـــاء'' انكمشــت على نفسِــها في اشـمئزازٍ حادٍّ ونفور، وهمســت بفحيحٍ كأنه صـدى الريحِ في الوادي المهجور: ''يا للعجبِ من هذا الهوان! نحن معشـــرَ الدوابِّ والهوام، نعرفُ الذكرَ للأنثى في كلِّ زمان، فكيف لمخلوقٍ ناطقٍ عاقل، أن يتبعَ شـــهوةً تجعلهُ من البهائمِ أضـــلَّ وأضلّ؟''.

ردَّ البوم ''بَصـــير'' من عزلتِه على غصـــنِه العالي، وكأن صـــوته يخرجُ من قلبِ الحكمةِ المظلمة: ''يا رَقْشـاء، إذا انتكسـتِ الفطرةُ في القلوب، عميتِ الأبصـارُ عن رؤيةِ العيوب، فيصبحُ الشذوذُ في أعينِهم طبيعياً، ويصيرُ الطهرُ في نظرِهم أمراً مرعياً، إنها فتنةُ القومِ الذين استحبوا العمى على الهدى''.

دعوةُ لوطٍ عليه السلام

أكملت ''سُلافة'' والأسى يعتصرُ صوتَها كعصرِ الكرمة: ''وإلى هؤلاءِ القومِ الأشرار، بعثَ اللهُ نبيَّه ''لوطاً'' وهو من الأطهار، فجاءهم ناصحاً أميناً، وقال لهم بقلبٍ على حالِهم حزيناً: ﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ * وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ [الشعراء:165-166]''.

سأل الأرنب ''وَجيب'' ببراءة: ''فهل شكروا له النصحَ والبيان؟ أم قابلوا الإحسانَ بالكفرِ والنكران؟''.

أجابت ''سُلافة'' بحسرة: ''بل ما كان جوابُهم إلا أن قالوا في استهزاءٍ وتبجّح، وبصوتٍ أقبحَ من القبيحِ وأوقح: ﴿أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [الأعراف:82]. لقد صارتِ الطهارةُ جريمةً في ديارِهم، والنقاوةُ وصمةً أليمةً في أسفارِهم''.

قدومُ الملائكة: الامتحانُ الأخير

واصلت ''سُلافة'' بصوتٍ يخفتُ تارةً ويعلو تارة: ''وفي يومٍ من الأيام، وبينما لوطٌ في همِّه وكربِه، أرسلَ اللهُ ملائكتَه لإنفاذِ أمرِه، فجاؤوا في هيئةِ شبابٍ حسان، لم ترَ العيونُ مثلَهم في أيِّ زمان، فلما دخلوا على لوطٍ ضيوفاً، تغيرَ لونُه وخافَ خوفاً، لقد علم أن جمالَهم سيكونُ فتنةً وشرّاً مستطيراً، وأن قومَه لن يتركوهم وسيفعلون أمراً نكيراً''.

هنا تقدَّم الثعلب ''حِيَل'' بذكائه المعهود: ''وكيفَ تصرَّف القومُ حين علموا بقدومِ الضيوف؟''.

أكملت ''سُلافة'': ''وما هي إلا لحظات، حتى تسللَ الخبرُ من زوجتِه الخائنة، فوصلَ إلى مسامعِ تلك العصابةِ الآثمة، فجاؤوا إلى بيتِه يهرعون، وعلى بابِه يتدافعون، فقال لهم

لوطٌ متوســلاً بقلبٍ مكلوم: ﴿يَا قَوْمِ هَٰؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْۖ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِيۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾ [هود:78]''.

هنا، زمجر الذئب ''نَاب'' بغضبٍ وقال: ''يعرضُ عليهم الزواج الحلالَ بالنساء وهم يُقبلون على الحرام! ما أشدَّ عمى القلوبِ عن رؤيةِ الحقيقةِ والتمام!''.

أكملت ''سُـلافة'' بصـوتٍ يرتعشُ كأنه ورقةٌ في مهبِّ الريح: ''لقد ردوا عليه في وقاحةٍ لا مثيلَ لها، وقالوا بصوتٍ واحدٍ تملؤه الشهوةُ وعللها: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ [هود:79]''.

تدخلُ الملائكةِ وطمسُ الأعين

صـاحَ القنفذ ''شَـوْك'' مندهشـاً: ''وماذا حدث بعد ذلك؟ كيفَ نجى لوطٌ وضـيفُه من هؤلاء المجرمين؟''.

أجابت ''سُلافة'': ''فلما بلغَ الكربُ منتهاه، وضاقت على النبيِّ دنياه، قالت له الملائكة: ﴿يَا لُوطُ إِنَّا رُسُـلُ رَبِّكَ لَن يَصِـلُوا إِلَيْكَ﴾ [هود:81]. ثم خرج جبريلُ إلى القومِ فضـربَهم، فطمسَ على أعينِهم فعموا في ساعتِهم، فصـاروا يتخبطون في الظلام، وهم يصيحون: ''لقد سحرنا ضيوفُ لوطٍ الكرام!''''.

الخروجُ والعقابُ العظيم

واصلت ''سُلافة'' بصوتٍ يجلجلُ كالرعد: ''ثم جاء الأمرُ الحاسمُ من ربِّ العباد، إلى نبيِّه الصـابرِ في أرضِ الفسـاد: أن اخرج بأهلِك في ظلامِ الليلِ البهيم، ولا يلتفت منكم أحدٌ إلى الجحيم؛ إلا امرأتَك الخائنة، فإنها مع القومِ كائنة، ومصيبُها ما أصابهم من الخزيِ والمهانة''.

سألتِ الغزالة ''رَشاقة'' بخوفٍ ورجفة: ''وماذا كان العقابُ يا تُرى؟''.

أكملت ‘‘سُــلافة’’: ‘‘وعندما بزغَ الفجر، جاء العقابُ الذي ليس له من دافع، رفعَ جبريلُ تلك المدائنَ السبعَ بطرفِ جناحِه الأوحد، حتى بلغ بها عنانَ السماءِ والأبعد، حتى سمع أهلُ الســـماءِ نباحَ كلابِهم، وصـــياحَ ديوكِهم في خرابِهم، ثم قلبَها عليهم، فجعل عاليَها سافلَها، وسافلَها عاليَها’’.

أضــافت بتفاصــيلَ مرعبة: ‘‘وبينما هي تهوي كأوراقِ الخريف، أمطرَ اللهُ عليهم حجارةً من سجيلٍ مخيف، حجارةً من طينٍ محروق، مكتوبٌ على كلِّ حجرٍ اسمُ صاحبِه المكتوبِ له أن يســوق، فهلكوا جميعاً عن بكرةِ أبيهم، ولم يُبقِ اللهُ أحداً منهم في أراضِــيهم، فكانت العقوبةُ جامعة، من الســماءِ والأرضِ جاءت قامعة، خســفٌ وقلبٌ ورجم، لكلِّ من ارتكبَ ذلك الجُرم’’.

زأر الأســد ‘‘هَزْبَر’’ زئيراً عظيماً ارتجفت له الغابةُ والأرجاء، وقال بصــوتٍ كأنه الرعدُ في السماء: ‘‘هكذا يكونُ عقابُ من يقلبُ الفطرة، ويستبدلُ الطهرَ بالعهرِ في كلِّ مرة!’’.

موعظة ختامية

نظرت ‘‘سُلافة’’ إلى الوجوهِ الشاحبة والقلوبِ الواجفة، وقالت موعظتَها التي كانت كصــاعقةٍ قاصــفة: ‘‘فيا أهلَ الغاب، إن للهِ غيرةً على حدودِه، وإذا انتُهكت فطرتُه كانت العقوبةُ مريرةً على العبيدِ وعبيدِه، فما أهلكَ اللهُ قوماً بمثلِ ما أهلكَ به قومَ لوط، لأنهم ارتكبوا ذنباً لم يسبقْهم إليه أحدٌ قط، فإياكم أن تستهينوا بقبيحِ الفعال، أو أن تتبعوا شهوةً تجعلكم في أسفلِ حال’’.

ثم رفعت صــوتها وقالت بقلب حزين: ‘‘وانظروا إلى حالِ الناسِ اليومَ في هذا الزمان، كيف يقلبون الفطرةَ ويدعون إلى الشذوذِ باسمِ الحريةِ والحضارة، ترى بعضَ المجتمعاتِ تشرّعُ لهذه الفاحشـــةِ قوانين، وتعتبرها حقاً من حقوقِ الإنســـان، وكم من أمةٍ ابتُليت بهذا الداءِ العضال، فمحتها من على وجه الأرضِ بسببِ استكبارِها وضلال’’.

وتابعت بتحذير: إن العقوباتِ الإلهيةَ قد تأتي بصـــورةِ أمراضٍ فتاكة، أو حروبٍ مدمرة، أو خســفٍ في الأرض، فالعبرةُ يا أحبتي أن نتمســكَ بفطرتِنا الســليمة، وأن نحميَ أبناءَنا من هذه الأفكارِ المنحرفة، وأن نعودَ إلى دينِنا القويم الذي يحفظُ الأنسابَ والأعراضَ والكرامة، فغضـــبُ الله إذا نزل، لا يدفعُه حيلةٌ ولا عمل، ويجعلُ من أرضِ النعيمِ بحيرةَ جحيم، وعبرةً لكلِّ من يسيرُ على الدربِ الأثيم، فخافوا اللهَ في خلواتِكم، واتقوا غضبَه في شهواتِكم، فإن بطشَه لشديد، وهو على كلِّ شيءٍ شهيد.

الفصل التاسع

في قصةِ يوسفَ الصدِّيق، وكيفَ نصرَ اللهُ من صبرَ وضاق به الطريق

تحتَ السدرةِ العتيقة: صرخةُ وَجيب في البئر

كانت غابةُ الأحلامِ هادئةً في ذلك المساءْ، والشمسُ تميلُ للمغيبِ بخجلٍ وحياءْ، والطيورُ تهمسُ بألحانِ الوداعِ والرجاءْ، اجتمعتِ الحيواناتُ تحتَ السدرةِ العتيقة كعادتها، يتجاذبونَ أطرافَ الحديثِ والحكاياتْ، ويتفيؤونَ ظلالَ الحكمةِ والعبراتْ.

والسدرةُ شامخةٌ بأغصانِها العتيقةْ، تروي للأجيالِ قصصَ الأممِ السحيقةْ، والجوُّ هادئٌ والنسيمُ عليلْ، والكلُّ في مجلسِ العلمِ جليلْ.

وفجأةً، سمعَ الجميعُ صرخةً مدويةً قادمةً من بعيدْ، صوتَ استغاثةٍ ونداءٍ شديدْ: "النجدةَ النجدةَ! أغيثوني يا أهلَ الغابةْ، فقد سقطتُ في بئرٍ عميقةٍ مظلمةْ!".

هرعتِ الحيواناتُ نحوَ الصوتِ والنداءْ، فوجدتِ الأرنبَ الصغيرَ "وَجيب" في قعرِ البئرِ والدموعُ على خديهِ تجري كالماءْ، كان يتعلقُ بجذورِ الأشجارِ المتدليةْ، ويصرخُ مستنجداً بقوةٍ وعليّه.

أسرعَ الفيلُ "خَطّار" بخرطومِه الطويلِ الرهيبْ، وأنزلَه إلى قاعِ البئرِ العجيبْ، ولفَّه حولَ وَجيبٍ بحنانٍ ولطفْ، ثم رفعَه بكلِّ رفقٍ وعطفْ.

خرجَ وَجيبٌ وهو يرتجفُ من البردِ والخوفْ، وقد اغرورقت عيناه بالدموعِ واللهوفْ، احتضنته الحمامةُ "هَديل" بحنانٍ وحبْ، وقالت بصوتٍ يملؤه الأسى والكربْ: "مسكينٌ يا وَجيب، كيفَ وقعتَ في هذا البئرِ المظلمْ؟ وكيفَ نزلتَ في هذا القعرِ المُعتمْ؟".

قال وَجيبٌ بصــــوتٍ مرتجفٍ باكْ: ''كنتُ ألعبُ مع إخوتي في الحقلِ والأراكْ، فتدافعنا وتزاحمنا حتى تفرقنا شتاتْ، وإذا بي أسقطُ في هذه البئرِ العميقةِ يا أصدقاءَ الحياةْ، وحدي في الظلام، لا أسمعُ إلا صوتي ونبضَ الفؤادْ، ولا أرى إلا سوادَ الليلِ والسوادْ، ظننتُ أنني لن أخرجَ أبداً من هذا القرارِ، وأن الموتَ سيكونُ قدري وصار قراري''.

نظرتِ السُّــلحفاةُ ''سُــلافة'' إلى وَجيبٍ بحنانٍ وحبْ، وقالت بصـــوتٍ يفيضُ حكمةً كالســحبْ: ''يا وَجيبُ، لا تحزنْ ولا تبتئسْ، ففي قصــصِ الأنبياءِ ما يواســي المحزونَ ويخففُ عن المكروبِ ما يعتسْ، أتسمحُ لي أن أقصَّ عليك وعلى إخوانك قصةَ نبيٍّ أُلقيَ في الجبِّ كما ألقيتَ أنت في البئرْ، فكانت له العاقبةُ الحميدةُ والنهايةُ الســعيدةُ والعمرُ الزاهرْ؟''.

صاح الجميعُ بحماسٍ وشوقْ: ''نعم يا سُلافة، حدثينا عن يوسفَ الصدِّيقْ. عن نبيِّ اللهِ الذي صبرَ على البلاءِ حتى فاقَ كلَّ مخلوقْ''.

بدايةُ القصة: يوسفُ والحلمُ العجيب

بدأت ''سُلافة'' بصوتٍ يقطرُ شجناً وحنينْ، وصوتُها كالنسماتِ يعلو ويلينْ: ''يا أهلَ الغابِ الكرام، اسمعوا قصةً هي من أعجبِ القصصْ، وأروعِ العبرِ وأسمى النُّصصْ، إنها قصةُ نبيِّ اللهِ يوسفَ بن يعقوبَ بن إسحاقَ بن إبراهيمَ عليهم الصلاةُ والسلامْ، أولئك الذين اصطفاهم اللهُ على الأنامْ، كان يوسفُ غلاماً جميلاً محبوباً من أبيهْ، له أحدَ عشرَ أخاً من أبيه يكبرونه سنينْ، وكانوا يحسدونه حباً ويضمرونَ الأنينْ''.

سأل القردُ ''صَفْصَف'' من فوقِ غصنِه المتأرجحْ: ''وما الذي جعلَ أباه يحبُّه أكثر من إخوتهْ؟ وما الذي أشعلَ نارَ الحسدِ في قلوبِ أسرتهْ؟''.

أجابت ''سُلافة'' بصوتٍ كالنغمْ: ''كان يوسفُ أصغرَ أبنائِه سنًّا وأحبَّهم إلى قلبِه الحنونْ، وفوقَ ذلك رأى رؤيا عجيبةً في المنامْ، فراحَ إلى أبيه يقصُّها عليه بحماسٍ واهتمامْ، قال كما حكى القرآنُ العظيمْ في آياتِه تتلى على الدائمْ: ﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ [يوسف:4]''.

هنا تدخل البومُ ''بَصير'' بحكمتِه البالغةْ، وصوتِه العميقِ كالحكمةِ الدافقةْ: ''هذه الرؤيا كانت إشارةً إلى عظمةِ يوسفَ المستقبليةْ، وإلى أن إخوتَه وأبويه سيسجدون له إكراماً لا عبادةً أبديةْ''.

أكملت ''سُلافة'' بصوتٍ يجلجلُ كالرعدِ البعيدْ: ''فهمَ يعقوبُ أن هذه بشارةٌ بنبوةِ يوسف وعلوِّ شأنِه العتيدْ، فنهاه عن قصِّ الرؤيا على إخوته الحاسدينْ، خوفاً عليهم من الحسدِ أن يفتك بالدينْ، ولكن الحسدَ كان قد بدأ يتسللُ إلى قلوبِ الإخوةِ كالأفعى السامةْ، يحرقُ ما في الصدورِ من إيمانٍ وكرامةْ''.

مؤامرةُ الإخوة: الحسدُ الأعمى

صاحَ الذئبُ ''نَاب'' بأسىً وحنينْ، وصوتُه يملؤه الحسرةُ والأنينْ: ''الحسدُ يا أحبتي هو داءُ الأقدمين والمحدثينْ، كم من إخوةٍ تقاطعوا بسببِ حسدٍ على ميراثٍ ثمينْ، وكم من عائلاتٍ تفككت بسببِ حسدٍ على منصبٍ أو مالٍ ثمينْ، إنه نارٌ تأكلُ الحسناتِ كما تأكلُ النارُ الحطبَ اليابسَ في الحينْ''.

أكملت ''سُلافة'' بصوتٍ يملؤه الأسى والعبراتْ: ''اجتمع إخوةُ يوسفَ يتشاورون في الظلماتْ، وفي قلوبهم نارُ الحسدِ تتأججُ كاللظاتْ، قالوا فيما بينهم بصوتٍ خفيضْ، وهم في غيهم سادرونَ كالمريض: ﴿لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ * اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِن بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ﴾ [يوسف:8-9]''.

صاحَ القردُ ''صَفْصَف'' بدهشةٍ واستنكارْ، وهو يتأرجحُ على غصنِه كالمجنونِ الحائرْ: ''يا إلهي! يريدون قتلَ أخيهم الصغيرْ! أيُّ قلبٍ هذا الذي يحملُ كلَّ هذا الشرِّ الكبيرْ؟!''.

أكملت ''سُلافة'' بصوتٍ خفيضٍ كالنسيمْ: ''لكن واحداً منهم، وهو يهوذا، رقَّ قلبُه ورحمَ الصغيرْ، وقال فيهم بصوتٍ حكيمٍ وأمرٍ كبيرْ: ﴿لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ﴾ [يوسف:10]''.

مشهدُ الجب: يوسفُ في الظلمات

صمتت ''سُلافة'' قليلاً، ثم نظرت إلى الأرنب ''وَجيب'' وقالت بحنانْ، وصوتُها كالنسماتِ يعلو ويحنانْ: ''يا وَجيب، أنتَ الآنَ شعرتَ بالخوفِ والوحشةِ في بئرِكَ المظلمْ، وتجرعتَ كأسَ الخوفِ والألمْ، تخيلْ يوسفَ عليه السلام، غلاماً صغيراً رقيقْ، ألقاه إخوتُه في جبٍّ عميقٍ مظلمٍ ضيقْ، وتركوه وحيداً يبكي ويصرخُ بحرقةٍ وحنينْ، والظلماتُ من حوله كالموجِ الرهينْ''.

بكى الأرنبُ ''وَجيب'' وقال بدموعٍ غزيرةْ: ''يا إلهي! كيفَ تحملَ هذا كله يا حكيمةْ؟ وكيفَ صبرَ على هذا البلاءِ والأليمةْ؟''.

أكملت ''سُلافة'' بصوتٍ يفيضُ إيماناً ويقينْ: ''كان الجبُّ فيه حياتٌ وعقاربْ، وظلماتٌ متراكمةٌ كالغياهبْ، لكن اللهَ كان معه يحفظُه ويرعاهْ، ويمدهُ بالصبرِ والقوةِ في سرِّه ونجواهْ، ظلَّ يوسفُ في الجبِّ أياماً لا يدري ما مصيرُه، ولا يعلمُ ما يخبئُ له القدَرُ في مسيرِه''.

وفجأةً، وقفت بعيرٌ عجوزٌ تتوكأُ على عصاها، وقالت بصوتٍ أجشَّ كهديرِ الرمالْ: ''أنا من نسلِ تلك القافلةِ التي مرت بيوسفَ في الجبِّ يا أحبابْ، والتي أخرجته من الظلماتِ إلى النورِ بعد عذابْ. تناقلَ أجدادي عن أجدادِهم تلك الحكايةْ، فاسمعوها مني يا أهلَ الغابةِ يا كرامَ السرايا''.

صاح الجميعُ بحماسٍ واهتمامْ: ''تكلمي يا بعير العزيزة، فحديثُكِ شوقٌ وعلامةْ''.

قالت البعير العجوزُ بصوتٍ جهوريٍّ قويْ: ''مررنا بذلك الجبِّ في طريقنا إلى مصرَ العزيزةْ، فأرسلَ واردُنا يستقي الماءَ للقافلةِ الرحيمةِ، فلما ألقى دلوهُ في البئرِ العميقةِ، تعلقَ به غلامٌ جميلٌ كالبدرِ في الأُفقِ الرفيعةِ. فلما رآه واردُنا دهشَ وانبهرْ، وقال: يا بشـــرى هذا غلامٌ كالقمرْ''.

''فأخرجناهُ من الجبِّ مسرورينْ، وأخذناهُ معنا إلى مصرَ آمنينْ، بعدما اشتريناه من إخوته بثمنٍ بخسٍ زهيدْ، دراهم معدودةٍ واللهُ عليمٌ بالعبيدْ، ثم بعناه في سوق النخاسين، فاشتراه عزيز مصر والمصريين''.

شهادةُ الذئب: براءتي من دمِ يوسف

هنا وقف الذئبُ ''نَاب'' في وسطِ المجلسِ باكياً حزينْ، وصوتُه يقطرُ حسرةً وأنينْ: ''اتُّهمتُ ظلماً يا أهلَ الغابةِ الكرامْ، ورُميتُ زوراً وبهتاناً في الأيامْ، فقيل: أكلتُ يوسفَ وما ذقتُ من لحمه قضماً ولا نُقصانْ، وأنا بريءٌ من هذه التهمةِ التي أورثتني الأحزانْ''.

سأل الثعلبُ ''حِيَل'' بدهاءٍ وفضولْ: ''وكيفَ ذلك يا ناب؟ حدثنا بالقولِ المفصَلْ''.

قال الذئبُ ''نَاب'' بصوتٍ باكٍ حزينْ: ''جاءني إخوةُ يوسفَ وقتلوا ذئباً صغيرْ، ولطَّخوا قميصَه بدمِه الكاذبِ المَشُورْ، ثم ذهبوا إلى أبيهم يعقوبَ يبكونَ ويولولونْ، ويقولون بألسنةِ الكذبِ والافتراءْ: ﴿يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ﴾ [يوسف:17]''.

بكتِ الحمامةُ ''هَديل'' وقالت بحزنٍ وأسى: ''يا للظلمِ والافتراءْ! يا للكذبِ والبهتانِ والاستهزاءْ!''.

أكمل الذئبُ ‘‘نَاب’’ بصوتٍ يفيضُ حقيقةً وإيمانْ: ‘‘وأنا بريءٌ من هذه التهمةِ الشنعاءْ، ما اقتربتُ من يوسفَ ولا رأيتُه في وادٍ ولا فضاءْ، لكن اللهَ أظهرَ الحقَّ وأبانْ، وجعل القميصَ شاهدَ صدقٍ في كلِّ مكانْ، فبقيتُ عبرةً للأزمانْ، أنَّ البريءَ قد يُتّهمُ في كلِّ آنْ، وأنَّ الصادقَ قد يُظلَمُ ويُهانْ، لكنَّ اللهَ لا يخذلُ من صبرَ وتألّمَ واستكانْ’’.

يوسفُ في بيت العزيز: فتنةُ امرأة العزيز

واصلت ‘‘سُلافة’’ بصوتٍ خفيضٍ رهيبْ: ‘‘اشترى عزيزُ مصرَ يوسفَ الصدِّيقْ، وقال لامرأتِهِ بلسانٍ رفيقْ: ﴿أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾ [يوسف:21]’’.

نشأ يوسفُ في بيتِ العزيزِ كريماً مكرَّمْ، وأوتي الحكمةَ والعلمَ والمنطقَ الأقومْ، فلما بلغ أشدهُ وقويتْ شكيمتُهْ، آتاه اللهُ حكماً وعلماً ونبوءتهْ’’.

‘‘لكن الفتنةَ كانت تنتظرُه في بيتِ العزيزْ، فتنةُ الشهوةِ والجمالِ والتمييزْ، رأت فيه امرأةُ العزيزِ جمالاً أخاذاً فاتناً رهيبْ، فراودته عن نفسِه وأغلقت الأبوابَ بلا حبيبْ، وقالت له بصوتٍ خفيضٍ دافئْ: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ [يوسف:23]’’.

سألتِ الغزالةُ ‘‘رَشاقة’’ بفضولٍ ولهفةْ: ‘‘فماذا فعلَ يوسفُ في هذا الموقفِ العصيبْ؟ وكيفَ نجا من تلك الفتنةِ الرهيبْ؟’’.

أجابت ‘‘سُلافة’’ بفخرٍ واعتزازْ: ‘‘قال يوسفُ بكلِّ شجاعةٍ وإيمانٍ واقتدارْ: ﴿مَعَاذَ اللَّهِ ۖ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ ۖ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ [يوسف:23]’’.

صاحَ الأسدُ ‘‘هَزْبَر’’ بإعجابٍ وتقديرْ: ‘‘يا له من عفافٍ عظيمٍ ونورٍ منيرْ! لقد آثرَ السجنَ على المعصيةْ، وخافَ اللهَ في الخلوةِ والعزلةِ الإلهيةْ!’’.

شهادةُ الشاهد: الحقيقةُ تظهر

أكملت ''سُلافة'' بصوتٍ يرتفعُ كالموجْ: ''وتسابقا إلى البابِ مسرعينْ، وجذبت قميصَه من خلفِه بقوةٍ فقُدَّ، وألفيا سيدَها لدى البابِ فاستبدَّ، فبادرتِ المرأةُ باتهامِ يوسفَ بلا وعيْ، ورمتهُ بالبهتانِ والافتراءِ والدَّعيّْ''.

هنا وقف رجلٌ عجوزٌ من بينِ الحيواناتْ، وقال بصوتٍ يملؤه الصدقُ والإيمانْ: ''أنا الشاهدُ الذي أنطقَ اللهُ بالحقِ المبينْ، والذي شهدَ ببراءةِ يوسفَ الصدِّيقِ الأمينْ، شهدت على من أتت فعلا وضيعا، لقد قلتُ بحكمةِ اللهِ التي ألهمني إياها الرحمنْ إذ كنت طفلا رضيعا: "إن كان قميصُه قُدَّ من قبلٍ فصدقت وهي من الكاذبينْ، وإن كان قميصُه قُدَّ من دبرٍ فكذبت وهو من الصادقينْ''.

صاحَ الجميعُ بإعجابٍ ودهشةْ: ''يا للحكمةِ العجيبةْ! يا للإلهامِ الإلهي الرهيبةْ!''.

أكملت ''سُلافة'' بصوتٍ يفيضُ نوراً وضياءْ: ''فلما رأى العزيزُ قميصَ يوسفَ قُدَّ من دبرْ، علم أن يوسفَ بريءٌ وأن المرأةَ هي المخطئةُ في الأمرْ، فقال العزيزُ كلمتَه الشهيرةْ، التي تترددُ في التاريخِ مدى العصورِ الطويلةْ: ﴿إِنَّهُۥ مِن كَيۡدِكُنَّۖ إِنَّ كَيۡدَكُنَّ عَظِيمٞ﴾ [يوسف:28]''.

السجنُ سنوات: يوسفُ في الظلمات

تابعت ''سُلافة'' بصوتٍ خفيضٍ باكْ: ''ورغم ظهورِ براءةِ يوسفَ وانجلاءِ الحقِّ والصدقْ، فقد سجنوه سنواتٍ لتهدأَ الفضيحةُ ويذهبَ عنه الخلقْ، دخلَ السجنَ مظلوماً بلا ذنبٍ ولا جرمْ، وبقي فيه بضعَ سنينَ في ظلماتِ الألمْ''.

نظرت ''سُلافة'' إلى الأرنب ''وَجيب'' وقالت بحكمةٍ وعظةْ: ''يا وَجيب، أنتَ بقيتَ في البئرِ دقائقَ معدودةْ، ويوسفُ بقي في السجنِ سنينَ مديدةْ. لكن اللهَ كان معه فلم يضعْ أجرَ من أحسنَ عملاً، وكان في السجنِ يدعو إلى اللهِ ويفعلُ خيراً جملاً''.

خروجُ يوسف: تعبيرُ رؤيا الملك

ارتفع صوتُ ''سُلافة'' بحماسٍ وابتهاجْ: ''ورأى ملكُ مصرَ رؤيا عجيبةً في المنامْ، سبعَ بقراتٍ سمانٍ يأكلهنَّ سبعٌ عجافْ، وسبعَ سنبلاتٍ خضرٍ وأخرَ يابساتٍ في الأطرافْ، فلم يستطع أحدٌ تفسيرَها من الكهنةِ والحكماءْ، وضاقتْ بهم الحيلُ في تلك الأنحاءْ''.

''فتذكرَ الفتى الذي كان مع يوسفَ في السجنِ الأمينْ، فجاء إليه يستفسرُ عن تلك الرؤيا باليقينْ، ففسرها يوسفُ بأمرِ اللهِ العظيمْ، ونصحهم بما يجبُ أن يفعلوا في سنواتِ القحطِ والجوعِ الأليمْ''.

سأل الفيلُ ''خَطَّار'' باهتمامٍ ولهفةْ: ''فكيفَ كانت نهايةُ يوسفَ بعد ذلك يا حكيمةْ؟ وكيفَ أصبحَ بعد طولِ الغربةِ والأليمةْ؟''.

أجابت ''سُلافة'' بفرحٍ وابتهاجْ: ''أُخرج يوسفُ من السجنِ بعد طولِ انتظارْ، وجعله الملكُ على خزائنِ الأرضِ في ذلك الدارْ، وأصبح عزيزَ مصرَ في ذلك الزمانْ. من قاعِ الجبِّ إلى قمةِ المجدِ والعلياءْ، ومن ظلمةِ السجنِ إلى نورِ القصرِ والبهاءْ، هذا هو نصرُ اللهِ لمن صبرَ واتقى، هذا هو جزاءُ من آمنَ باللهِ وصدقَ ووفى''.

مجيءُ الإخوة: العفوُ عند المقدرة

واصلت ''سُلافة'' بحماسٍ وتشويقْ: ''وجاءت السنون العجافُ كما قال يوسفُ الصدِّيقْ، وأقبل إخوةُ يوسفَ يطلبون الطعامَ من مصرَ العزيزةْ، ولم يعلموا أن العزيزَ الذي يقابلهم هو أخوهم بلا تمييزةْ، فعرفهم يوسف ولم يعرفوه، وأخذ يدبر معهم ليأتوه بأخيه،

وأســر في نفســه قولتهم بعدما آوى أخاه إليه، وأعلمهم بعد تدبير من يكون، فكان الإخوةُ خائفينَ وجلينْ، ووقفوا بين يدي يوســفَ يترقبونَ ما يكونْ، فماذا قال يوســفُ لهؤلاء الذين ألقوه في الجبِّ ســـنينْ، وباعوه بثمنٍ بخسٍ وتركوه حزينْ، وأبكوا أباه حتى ذهب بصـــرُه الثمينْ؟''.

صـمتت ''سُـلافة'' لحظةً ثم قالت بصـوتٍ يجلجلُ كالرعدِ في الفضـاءْ: ''قال لهم بلسـانِ العفوِ والســماحةِ والرضــاءْ: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ ۖ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [يوسف:92] ثم خلع قميصه وأرسله إلى أبيه، ليعود إليه بصره ويأتيه''.

صـــاحَ الأســـدُ ''هَزْبَر'' بإعجابٍ وتقديرْ: ''يا له من عفوٍ عظيمٍ ونفسٍ كبيرةْ! يا لها من أخلاقٍ نبويةٍ طاهرةٍ منيرةْ!''.

هنا وقف غزالٌ عجوزٌ باكياً حزينْ، وقال بصوتٍ يقطرُ أسىً وأنينْ: ''رأيتُ بعيني كيفَ كان يعقوبُ يبكي على ولدِهِ حتى ذهب بصـــرُه في الكربْ، كان كلَّ يومٍ يجلسُ على الطريقِ ينتظرُ عودةَ يوسـفَ الحبيبْ، ويقول بلسـانِ الحسـرةِ والعذابْ: ﴿يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ [يوسف:84] حتى غاب''.

أكملت ''سُـلافة'' بصـوتٍ يفيضُ حناناً ورحمةْ: ''فلما جاءوه بقميصٍ يوسـفَ وألقوه على وجهه الكريمْ، ارتدَّ بصيراً بإذنِ اللهِ العظيمْ، قال يعقوبُ لمن حوله بلسانِ الإيمانِ والحكمةْ: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [يوسف:96]''.

أكملت ''سُـلافة'' بفرحٍ وابتهاجْ: ''ثم رفعَ أبويه على العرشِ وأجلسـهما في المكانْ، وخروا له سـجداً كما كانت الرؤيا في الزمانْ، وتحققَت رؤياه القديمةُ التي رآها صـغيراً في المنامْ: أحدَ عشرَ كوكباً والشمسَ والقمرَ رأيتُهم لي ساجدينَ على الدوامْ''.

الموعظةُ الختامية: عبرةُ يوسفَ في الدنيا

نظرت ''سُـلافة'' إلى الأرنب ''وَجيب'' وقالت بحكمةٍ وعظةْ: ''يا وَجيب، أرأيتَ كيفَ خرجَ يوســفُ من الجبِّ إلى المجدِ والعلياءْ؟ وكيفَ صــبرَ على البلاءِ فرفعه اللهُ إلى السماءْ؟ هذه هي سنةُ اللهِ مع عبادهِ المؤمنينْ، وهذه هي بشارةُ الصابرينَ المحتسبينْ''.

ثم التفتت إلى الجميعِ وقالت موعظتَها البليغةْ: ''انظروا كيفَ نصــرَ اللهُ يوســفَ على من كادوا له، من الجبِّ إلى السجنِ ومن السجنِ إلى المُلكِ، لقد صبرَ على البلاءِ وعفَّ عن الشهواتِ وسما، وعفا عند المقدرةِ فرفع اللهُ قدره وسمَّاهُ في الدنيا وفي الآخرةِ''.

أضـاف البوم ''بصـير'' بصـوتٍ يرتفعُ بالحكمةِ والبيانْ: ''وانظروا إلى حالِ الناسِ اليومَ في هذا الزمانْ، كم من إخوةٍ يتقاتلونَ على الميراثِ والمالِ والســلطانْ، كما كاد إخوةُ يوســفَ لأخيهم بالأمسِ، كم من عائلاتٍ تفككت بسببِ الحسدِ والغيرةْ، وكم من حقوقٍ ضـاعت تحتَ وطأةِ الطمعِ والمرةْ''.

أضاف الأسد "هزبَر" بتحذيرٍ وعظةْ: ''وكم من موظفٍ إذا تولى منصباً تكبرَ وتجبرَ وطغى، ونسيَ أن التواضـعَ من شيمِ الكرامِ ومن هديِ من اصـطفى، أما يوسـفُ عليه السـلام، فلما صـار عزيزَ مصـرَ العزيزةْ، لم يتكبرْ بل كان متواضـعاً ونفسـه عزيزة، وعفا عن إخوته وأحسـنَ إليهم بكلِّ عزةْ''.

وأضـاف الثعلبُ ''حِيَل'' بذكائهِ المعهودْ: ''وكم من ظالمٍ يسـتغلُ ضـعفَ العمالِ والخدمْ، لأنهم لا ناصرَ لهم في هذا العالمِ الأصـمْ، كما استُضـعفَ يوسـفُ في بيتِ العزيزِ وكادوا له وكـذبـوا عـلـيـهْ، لـكـن الـلـهَ نصـــرَه ونـاصـــرَ كـلَّ مـظـلـومٍ فـي الـدنـيـا إليهْ''.

الفصل العاشر

في قصةِ أيوبَ ذي الصبرِ الجميل

في دارِ المريض: زيارةٌ وموعظة

كان الجوُّ في الغابةِ هادئاً، والشمسُ تميلُ للمغيب، والطيورُ تهدأُ شيئاً فشيئاً بعد تعبِ النهار، وفي أحدِ البيوتِ البسيطة، كان القنفذ ''شَوْك'' طريحَ الفراش، قد ألمَّ به مرضٌ شديد، وأنهكه الألمُ والحمى.

اجتمعتِ الحيواناتُ حولَه تزوره وتواسيه، في مشهدٍ يملؤه الحنانُ والإخاء، كانت الحمامة ''هَديل'' تمسحُ على رأسه بريشها الناعم، والثعلب ''حِيَل'' يحضرُ له الماءَ البارد، والأسد ''هَزْبَر'' يجلسُ بقربه بكبرياءٍ مخفوضة، والفيل ''خَطَّار'' يظلله بخرطومه من حرارةِ الشمس.

صاحَ الأرنب ''وَجيب'' بصوتٍ حزين: ''يا شَوْك، كيفَ تجدُ نفسك اليوم؟ لقد أشفقنا عليك من شدةِ الألمِ والحمى''.

رفع القنفذ ''شَوْك'' رأسَه المتعب، وقال بصوتٍ خافتٍ كحفيفِ الأوراق: ''أجدُ يا وَجيب ما لا يتمنى أحد، جسدي يحترق، وعظامي تئن، والليلُ عندي أطولُ من ألفِ سنة، لقد مللتُ الدعاءَ وضاق صدري، وأصبحتُ أتساءل: إلى متى؟''.

هنا، تحركتِ السُّلحفاة ''سُلافة'' في مكانها، ونظرت إلى الجميعِ نظرةً مليئةً بالحكمة، وقالت: ''يا شَوْك، يا صغيري الحبيب، لا تيأسْ من روحِ الله، إن في قصصِ الأنبياءِ لمواساةً لكلِّ مكروب، وعبرةً لكلِّ مبتلى. أتسمحُ لي أن أقصَّ عليك وعلى إخوانك قصةَ نبيٍّ ابتلي أعظمَ البلاء، فصبرَ أجملَ الصبر، وكانت نهايتُه إلى فرجٍ عظيمٍ من الله؟''.

صاح الجميعُ بحماسٍ رغم الحزن: ''نعم يا سُلافة، حدثينا. لعلَّ في قصتها شفاءً لقلوبنا، وعزاءً لشَوْك المسكين''.

بدايةُ القصة: أيوبُ النبيُّ الشاكر

بدأت ''سُلافة'' بصوتٍ يقطرُ حكمةً وبياناً: ''يا أهلَ الغابِ الكرام، اسمعوا قصةً هي من أعجبِ القصص، وأروعِ العبر، إنها قصةُ نبيِّ اللهِ أيوبَ -عليه السلام- كان أيوبُ من ذريةِ يعقوب بن إسحاقَ بن إبراهيمَ الخليل، وكان رجلاً صالحاً كثيرَ المالِ والولد، يملكُ الأراضيَ الواسعةَ والأنعامَ الكثيرة، وكانت له قصورٌ عظيمةٌ وحياةٌ هنيئة''.

سأل الثعلب ''حِيَل'' بفضول: ''وما الذي جعلهُ مميزاً بين الأنبياءِ يا سُلافة؟''.

أجابت ''سُلافة'' بحب: ''كان أيوبُ -عليه السلام- من أكثرِ الناسِ شكراً لله على نعمه، وأعظمِهم إحساناً للفقراءِ والمساكين، كان يطعمُ الجائع، ويكسو العاري، ويؤوي الغريب، ويعينُ الضعيف، وكان دائمَ الذكرِ لله، كثيرَ التسبيحِ والاستغفار''.

الابتلاءُ العظيم: حينَ يختبرُ اللهُ الصابرين

خفضت ''سُلافة'' صوتَها قليلاً، وقالت بأسى: ''ولكن اللهَ أرادَ أن يرفعَ درجته، ويزيدَ في حسناته، فابتلاه ببلاءٍ عظيمٍ شديد، فسلَّطَ الشيطانَ على أمواله، فأهلكها كلها، نعم يا أحبتي، أهلكتِ النارُ قصورَه، وماتت مواشيه، وضاعت ثروته في لحظاتٍ معدودة''.

صاحَ الذئب ''نَاب'' بدهشة: ''يا إلهي! ذهبَ كلُّ شيءٍ في لحظة! فكيفَ كان ردُّ فعله؟''.

أكملت ''سُلافة'': ''لم يجزعْ أيوبُ ولم يشكُ، بل قال: اللهمَّ لك الحمدُ، أعطيتَ وأخذت، وأنت على كلِّ شيءٍ قدير، ثم زادَ البلاءُ، فابتلي في أولاده فماتوا جميعاً في لحظةٍ واحدة، انهارَ عليهم البيتُ وهم فيه''.

بكتِ الحمامة ''هَديل'' وقالت: ''يا إلهي! يفقدُ أبناءه كلَّهم في لحظة! أيُّ قلبٍ يتحملُ هذا؟''.

أكملت ''سُلافة'': ''ولكن أيوبَ صبرَ واحتسب، وقال: اللهمَّ لك الحمدُ، أخذتَ وأعطيت، ولك الحمدُ على كلِّ حال. ثم كان البلاءُ الأكبر''.

البلاءُ في الجسد: المرضُ الطويل

صمتت ''سُلافة'' قليلاً، ثم نظرت إلى القنفذ ''شَوْك'' المريض، وقالت بصوتٍ خفيض: ''ثم ابتلاه اللهُ في جسدِه، فمرضَ مرضاً شديداً طويلاً، قيل: إنه لبثَ في مرضِه ثمانيَ عشرةَ سنة، وكان مرضُه عظيماً، حتى تناثرَ لحمُه، وتقرَّحَ جلدُه، وأصبحَ لا يستطيعُ الحركة، وتركه الناسُ إلا امرأته الصابرة، التي بقيتْ تخدمه وترعاه''.

رفع القنفذ ''شَوْك'' رأسَه المتعب، وقال بدموعٍ: ''ثمانيَ عشرةَ سنة؟! وأنا منذُ شهرٍ فقط وأنا أشكو. يا إلهي، أيُّ صبرٍ هذا؟!''.

هنا، تحركتْ في مكانِها ناقةٌ عجوز، كانت ترعى قريباً من دارِ المريض، فتقدمتْ بخطىً وئيدة، وقالت بصوتٍ حزين: ''أنا ناقةٌ من إبلِ أيوبَ –عليه السلام– كنتُ في قطيعِه قبلَ البلاء، نعيشُ في مراعيَ خضراءَ ومياهٍ غزيرة، كان أيوبُ سيداً كريماً، يطعمنا ويسقينا، ويحسنُ إلينا. فلما نزلَ به البلاء، رأيتُ كيفَ تداعتِ الإبلُ من حولي، وكيفَ أهلكتها النيرانُ الواحدةَ تلو الأخرى، بقيتُ وحدي شاخصةً أنظرُ إلى سيدي وهو يزدادُ ضعفاً ومرضاً''.

ثم تقدمَ حصانٌ عجوز، وقال بصوتٍ يقطرُ حزناً: ''وأنا حصانُ أيوبَ الذي كان يركبه في أيامِ عزَّته، كنتُ أشهدُ كرمَه مع الناس، وعدلَه مع الفقراء. فلما ابتلي، رأيتُه يخرجُ من قصرِه

متكئاً على عصـاه، وجلدُه يتسـاقطُ قطعاً، والناسُ اسـتطالوا مرضـه فملوا من زيارته وهجروه، بكيتُ عليه بكاءً طويلاً''.

وتقدمتْ نعجةٌ هرمة، وقالت بصـوتٍ باكٍ: ''وأنا كنتُ من غنمِه التي كانت تدرُّ لبناً ورزقاً، كنتُ أرى أيوبَ كلَّ صباحٍ يدعو لنا بالبركة، ويشربُ من لبننا، فلما ابتلي، انقطعتْ أصواتُنا، وتبعثرتِ القطعان، وبقيتُ أذكرُ تلك الأيامَ بحسرةٍ وحنين''.

صبرُ أيوبَ الجميل

رفعت ''سُـلافة'' صـوتَها بإعجاب: ''ورغم كلِّ هذا البلاءِ العظيم، صـبرَ أيوبُ صـبراً جميلاً، لم يتذمرْ، ولم يسـخطْ، ولم يشـتكِ على الله، كان يقول: ربي أعطاني، وربي أخذ، وله الحمدُ على كلِّ حال، وكان يذكرُ اللهَ ويسبحه في كلِّ وقت''.

سـأل القرد ''صَـفْصَـف'' بدهشـة: ''ثمانيَ عشـرةَ سـنةً من البلاء؟! أيُّ بشـرٍ يسـتطيعُ هذا الصبر؟!''.

أجابت ''سُـــلافة'': ''كان صـــبرُه من الله، وكان يعلمُ أن ما عند الله خيرٌ وأبقى، وكان الشيطانُ يأتيه فيوسوسُ له، لكنه كان يردُّ عليه بطاعةِ الله''.

نداءُ أيوبَ في الظلمات

ارتفع صـوتُ ''سُـلافة'' بخشـوع: ''وبعد طولِ بلاء، وبعد أن طالَ به الأمد، رفعَ أيوبُ يديه إلى السماء، ونادى ربه نداءً خاشعاً حزيناً، قال كما في القرآن العظيم: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [الأنبياء:83]''.

صاحَ الأسد ''هَزْبَر'' بحكمة: ''لقد صبرَ حتى ملَّ الصبرُ من الصبر، ثم دعا اللهَ وهو موقنٌ بالإجابة، لم يقل: أين عدلك يا رب؟ لم يقل: لماذا فعلت بي هذا؟ بل قال: ﴿أَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾''.

واصلت ''سُلافة'' بشوق: ''فاستجابَ اللهُ لدعاءِ نبيه، وأمره أن يقومَ ويضربَ الأرضَ برجله، فقامَ أيوبُ من مكانه -وهو الذي كان لا يستطيعُ الحركةَ- وضربَ الأرضَ برجله، فتفجرتْ عينُ ماءٍ باردة، قال تعالى: ﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ ۖ هَٰذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ [ص:42]''.

سأل الفيل ''خَطَّار'' بدهشة: ''فماذا حدثَ بعد أن شربَ واغتسل؟''.

أجابت ''سُلافة'' بفرح: ''شربَ أيوبُ من ذلك الماء، واغتسلَ به، فإذا بجسدِه يعودُ كما كان، صحيحاً معافى، أجملَ مما كان، وأذهبَ اللهُ عنه كلَّ داء، وأبدلهُ صحةً وعافية. قال تعالى: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ﴾ [الأنبياء:84]''.

عودةُ النعم: الخيرُ مضاعفاً

تابعت ''سُلافة'' بفرح: ''ولم يكتفِ اللهُ بشفائه، بل أعادَ له أمواله مضاعفة، ورزقه أولاداً جدداً، وأعطاه من الخيرِ ما لا يُحصى. قال تعالى: ﴿وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ﴾ [الأنبياء:84]''.

صاحَ القرد ''صَفْصَف'' بفرح: ''يا للهول! عادَ له كلُّ شيءٍ مضاعفاً!''.

أكملت ''سُلافة'': ''نعم يا صَفْصَف، وكان من رحمةِ اللهِ به أنه ردَّ له زوجته التي صبرت معه، وأعطاه من الخيرِ أضعافَ ما كان، وعاشَ أيوبُ بعد ذلك حياةً هنيئة، شاكراً لله على نعمه''.

هنا، تقدمتِ الناقةُ العجوز مرةً أخرى، وقالت بفرحٍ يملؤها: ''وبعد شفاءِ أيوبَ، رزقه اللهُ من الإبلِ والمواشي أضعافَ ما كان، وكنتُ أنا من بين تلك النعم، ورأيتُ كيفَ عادتِ الحياةُ إلى دياره، وكيفَ عادَ الناسُ إليه يتقربون من بعدما هجروه''.

وتقدمَ الحصانُ العجوز وقال: ''ورأيتُ أيوبَ وقد عادت إليه صحته، يركبُني ويجوبُ الأرضَ شاكراً لله، داعياً إلى الصبرِ والإيمان''.

وقالتِ النعجةُ الهرمة: ''وصار لبنُنا أطيبَ مما كان، ونسلُنا أكثرَ مما كان، وكلُّ ذلك ببركةِ صبرِ أيوبَ وشكرِه''.

هنا، دارَ بين الحيواناتِ نقاشٌ طويلٌ حولَ الصبرِ والبلاء.

قال الثعلب ''حِيَل'' بذكائه: ''إن قصةَ أيوبَ تعلِّمنا أن البلاءَ ليس دليلاً على غضبِ الله، بل قد يكونُ اختباراً ورفعَ درجات''.

أضاف البوم ''بَصير'' بحكمته: ''لقد صبرَ أيوبُ حتى ملَّ الصبرُ من صبره، ثم جاءه الفرجُ من حيث لا يحتسب، وهكذا هي سنَّةُ الله مع عباده المؤمنين''.

قال الأسد ''هَزْبَر'' بجلال: ''وأعظمُ ما في القصة أن أيوبَ لم يشتكِ على الله، بل اشتكى إلى الله، الفرقُ كبيرٌ بين من يشتكي ربَّه، ومن يشتكي إلى ربِّه''.

أضافت الحمامة ''هَديل'' بحنان: ''وزوجتُه التي صبرت معه، إنها أيضاً مثالٌ للصبرِ والوفاء، رغم تعبِ السنين، وطولِ البلاء، بقيتْ معه تخدمه وتعينه''.

قال الذئب ''نَاب'' بخشونة: ''كم من الأزواج اليومَ من يتزوجون على السراءِ ويفرون ويفترقون عند الضراء!''.

العظةُ لكل مريض: أنتَ في مركبِ أيوب

نظرت ''سُلافة'' إلى القنفذ ''شَوْك'' المريض، وقالت بصوتٍ يفيضُ حناناً: ''يا شَوْك، أرأيتَ كيفَ صبرَ أيوبُ على بلائه؟ لقد كان مرضُه أشدَّ من مرضِك، وابتلاؤه أعظمَ من ابتلائك، ومع ذلك لم ييأسْ من روحِ الله، وكانت عاقبتُه إلى فرجٍ عظيم، فاصبرْ كما

صبر، واحتسبْ كما احتسب، وثقْ بأن اللهَ سيكشفُ عنك الضرَّ، ويبدلُ حالَك إلى خيرٍ مما كان''.

بكى القنفذ ''شَــوْك'' دموعاً مختلطةٍ بالألمِ والأمل، وقال: ''يا سُــلافة، لقد أعدتَ إليَّ الأمل، وأعدتَ إليَّ الإيمان، سأصبرُ كما صبرَ أيوب، وأحتسبُ كما احتسب، وأرجو من اللهِ أن يمنَّ عليَّ بالشفاءِ كما منَّ على أيوب''.

الموعظةُ الختامية: الصبرُ مفتاحُ الفرج

نظرت ''سُلافة'' إلى الجميع، وقالت: ''يا أهلَ الغاب، انظروا كيفَ نصرَ اللهُ أيوبَ بعد طولِ صبر، لقد ابتلي في ماله فصبر، وفي ولده فصبر، وفي جسده فصبر، ثم جاءه الفرجُ من الله، فعادَ له كلُّ شيءٍ مضاعفاً''.

قال الأسد ''هَزْبَر'' بخشوع: '' فاتعظوا يا أحبتي من قصةِ أيوب، فالصبرُ مفتاحُ الفرج، والبلاءُ ليس نهايةَ الطريق، والضرَّاءَ تعقبها السراء، والعسرَ يتبعه اليسر، وتذكروا أن اللهَ لا يضيعُ أجرَ من أحسنَ عملاً، وأن مع الصبرِ نصراً، ومع البلاءِ عطاءً''.

أضافت الحمامة ''هديل'' وقد رأت في عيونِ الحاضرينَ شغفَ المعرفة: ''وانظروا يا أحبتي إلى حالِ الناسِ اليومَ في هذا الزمان، كم من مبتلىً يظنُّ أن لا فرجَ له، فإذا به يخرجُ من كربته كما خرجَ أيوبُ، وكم من مريضٍ يئسَ من الشفاء، فمنَّ اللهُ عليه بالعافية، وكم من فقيرٍ ضاقتْ به الدنيا، ففتحَ اللهُ له أبوابَ الرزق''.

وبعد أيامٍ قليلة، وبفضلِ اللهِ ثم ببركةِ الدعاءِ والصبر، بدأ القنفذ ''شَوْك'' يتحسن شيئاً فشيئاً. وعادت إليه صحتُه، وعاد يمشي بين إخوانه في الغابة، وهو يحمدُ اللهَ على نعمه، واجتمعتِ الحيواناتُ من جديد تحتَ السدرةِ العتيقة، وفي مقدمتهم شَوْك الذي عادَ إليه نضارته وحيويته.

ثم قال القنفذ ''شَوْك'' بصوتٍ يملؤه الإيمان: ''يا إخواني، لقد تعلمتُ من قصةِ أيوبَ أن المرضَ ليس نهايةَ الطريق، وأن الصبرَ مفتاحُ الفرج، وأن اللهَ لا يضيعُ أجرَ من أحسنَ عملاً. فشكراً لكم على زيارتكم، وشكراً لكِ يا سُلافة على هذه القصةِ التي أعادت إليَّ الأملَ والحياة''.

وقالتِ الناقةُ العجوز: ''وتذكروا أيوبَ كلما مرَّ بكم بلاء، فصبرُه كان سببَ خلاصه''.

وتقدمَ الحصانُ العجوز وقال: ''وتذكروا أن بعد العسرِ يسراً، كما عادتِ الخيلُ إلى إسطبلاتِ أيوبَ بعد غياب''.

وتقدمتِ النعجةُ الهرمة وقالت: ''وتذكروا أن اللهَ لا يضيعُ أجرَ المحسنين، كما ردَّ اللهُ لأيوبَ أهله وماله أضعافاً مضاعفة''.

ثم تفرقوا في أمانِ الله، وكلٌّ يحملُ في قلبِه دروسَ قصةِ أيوبَ الصابر، الذي ضُربَ به المثلُ في الصبرِ على البلاء، والذي علَّمَ الدنيا أن بعد العسرِ يسراً، وأن مع الصبرِ نصراً، وأن اللهَ مع الصابرين.

الفصل الحادي عشر

في بخسِ الميزان، وعاقبةِ أهلِ النقصان

تحتَ السدرةِ العتيقة: صمتُ التأملِ وسؤالُ الثعلب

ما إن أسدلتِ السُّلحفاة ''سُلافة'' ستارَ قصةِ ثمود وما جرى لأهلِها من عذابٍ أليمْ، حتى ساد صمتٌ ليس كأيِّ صمتٍ في الغابةِ والنجومْ، كان صمتاً فيه من الخشيةِ ما يجمدُ الدماءَ في العروق، ومن الذهولِ ما يخرسُ الهواءَ في كلِّ سوق، حتى الأسد ''هَزْبَر'' غضَّ طرفَه المهيب، وكفَّ عن الحركةِ عرفُه الرهيب.

لكن الثعلب ''حِيَل''، الذي لا يطيقُ السكونَ في المجالس، ولا يهدأ له بالٌ حتى يعرفَ ما وراءَ الشجون، قال بصوتٍ فيه من المكرِ ما فيه من الحذر، ومن التساؤلِ ما يحرقُ القلوبَ بالفكر: ''يا سُلافةُ، يا حكيمةَ الغابِ ويا راويةَ الأحقابْ، لقد رويتِ لنا عن أقوامٍ أهلكهم الجحودْ، وعن آخرين أهلكهم الكبرُ والفسادُ والوعيدْ، فهل هناك من بابٍ للشرِّ بعدُ يا ترى لم يُفتح؟ وهل بقي من طريقٍ للهلاكِ لم يتضحْ؟ لقد رأينا الكبرَ والقتلَ والتحدي والمناوشة، فهل هناك خطيئةٌ أخرى كانت للناسِ غاششة؟''.

بدايةُ الحكاية: قومُ مدين وتطفيفُ الميزان

تبسمتِ السُّلحفاة ''سُلافة'' تبسماً حزيناً يملؤه الأسى، وقالت بصوتٍ يحملُ حكمةَ الأزمان: ''لقد سألتَ يا ''حِيَل'' عن داءٍ خفيٍّ في النفوسْ، وعن شرٍّ ليس بالجليِّ في الناسْ، سألتَ عن هلاكِ قومٍ لم يعبدوا صنماً ظاهراً، ولم يرتكبوا فاحشةً أمامَ كلِّ ناظر، بل كان شرُّهم في أيديهم وأموالهم، وفي أخذِ حقوقِ الناسِ واحتيالهم''.

قاطعها القنفذ ''شَوْك'' بفضول: ''ومن هم هؤلاءِ القومُ يا تُرى؟ وكيفَ كان هلاكُهم؟''.

أجابت ''سُــلافة'': ''لقد كان هناك قومٌ اســمهم ''مدين''، يســكنون أرضــاً على طريقِ القوافلِ والتجارة، وكانوا من أهلِ البيعِ والشــراءِ والمحاصــيلِ والزراعة، لكنهم كانوا إذا باعوا الناسَ شيئاً بخسوا الميزان، وإذا اشتروا منهم استوفوا بالمكيالِ ملآن، كانوا يسرقون الناسَ في وضحِ النهار، بحجةِ البيعِ والشراءِ وتحت ستارِ الوقار، وإذا مرَّت بهم قافلة، أخذوا منها الإتاوة، وهدَّدوا المسافرينَ بالقوةِ والقساوة''.

قاطعها القندس ''سَدَّاد'' وكان يحبُّ الدقةَ في كلِّ شيءٍ ويبغضُ النقصانْ، وكان مهندساً بارعاً في بناءِ السدودِ والميزانْ، وقال باستنكارٍ شديد: ''وما هذه الخطيئةُ بجانبِ الشركِ والكفران؟ أهي سرقةٌ صغيرةٌ في ميزان، تُهلكُ أمماً وتُزلزلُ أركان؟''.

ردَّ البوم ''بَصير'' من عزلتِه على غصنِه العالي، وكأن صوته صدىً للحقائقِ الأزلية: ''يا سَدَّاد، إن اللهَ لا ينظرُ إلى صغرِ المعصيةِ أو كبرها، بل ينظرُ إلى عظمةِ من عُصيَ وجلَّ جلاله، ثم إن بخسَ الميزانِ ليس مجردَ سرقةٍ عابرة، بل هو فسادٌ يهدمُ الثقةَ بين الناس، ويجعلُ حياةَ الناسِ في قلقٍ وحرقة، إنه إعلانُ حربٍ على الضعيفِ والمسكين، وأكلُ أموالِ الناسِ بالباطلِ باسمِ الدينِ والقانونِ المبين''.

أضافت ''سُلافة'' بصوتٍ يملؤه الأسى: ''صدقتَ يا بصير. وإلى هؤلاءِ القومِ الأنذال، بعثَ اللهُ نبيَّه ''شعيباً'' -عليه السلام- وكان يُعرفُ بخطيبِ الأنبياءِ لحسنِ البيانِ وجمالِ المقال، فجاءهم ناصحاً أميناً، وقال لهم بقلبٍ على حالِهم حزيناً: ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْۦ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ [الأعراف:85]''.

حوارُ شعيبٍ مع قومه

سأل الأرنب ''وَجيب'' ببراءة: ''فهل شكروا له النصحَ والبيان؟ أم قابلوا الإحسانَ بالكفرِ والنكران؟''.

أجابت ''سُلافة'' بحسرةٍ بالغة: ''بل ما كان جوابُهم إلا أن قالوا في استهزاءٍ وتبجّح، وبصوتٍ أقبحَ من القبيحِ وأوقح: ﴿يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ﴾ [هود:87]. لقد سخروا من صلاتِه، وجعلوا من عبادتِهم حجةً لسرقاتِهم وأباطيلِهم''.

هنا، زمجر الذئب ''نَاب'' بغضبٍ وقال: ''ما أوقحَ اللصَّ حين يتكلمُ باسمِ الحرية! فحريةُ الذئبِ في الغابة، هي هلاكُ بقيةِ الدوابِّ المستطابة! إنهم يريدون حريةَ أكلِ أموالِ الناسِ بلا حساب''.

أكملت ''سُلافة'' بصوتٍ يرتعشُ كأنه ورقةٌ في مهبِّ الريح: ''ثم انتقلوا من السخريةِ إلى التهديد، وقالوا له وللمؤمنين معه من دونِ وعيد: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ [الأعراف:88]''.

الموقفُ الأخير: إعلانُ البراءة

صاحَ الأسد ''هَزْبَر'' بغضبٍ ملكيّ: ''وماذا كان ردُّ شعيبٍ عليه السلام على هذا التهديدِ الظالم؟''.

أجابت ''سُلافة'': ''فلما يئسَ منهم نبيهم الصابر، وتمادوا في غَيّهم والفجورِ المكابر، قال لهم قولتَه الأخيرة التي تفيضُ يقيناً: ﴿اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ ۖ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ﴾ [هود:93]''.

ثم أضـــافت بصـــوتٍ يجلجلُ كالرعد: ''ثم جاء أمرُ الله... ولم يأتِ من جهةٍ واحدة، بل جاء من كلِّ ناحيةٍ وأرض''.

العذابُ الثلاثي: يومُ الظلة

صـمت الجميعُ والرهبةُ تملأُ النفوس، وأكملت ''سُـلافة'' بتفاصـيلَ مرعبة: ''أرسـلَ اللهُ عليهم في البدايةِ حراً شـديداً لا يُطاق، لا يمنعُه ظلٌّ ولا ماء، حتى كادت أنفاسُـهم أن تنقطع. فصــاروا يهربون من بيوتِهم إلى الصــحراء، يبحثون عن نســمةِ هواءٍ تروي صــدورَهم الظمأى، ثم رأوا في الأفقِ سحابةً عظيمةً سوداء، تملأُ السماءَ ظلاً وغطاء. فظنوها سحابةَ مطرٍ ونجاة، فاجتمعوا تحتها يطلبون الظلّ والبرودةَ والحياة''.

هنا، ضـحكَ الثعلب ''حِيَل'' ضـحكةً مريرةً فيها ألمُ السـخرية: ''ما أشـبهَ الليلةَ بالبارحة! فكما اســـتســـقى قومُ عادٍ بالهلاك، اســـتظلّ هؤلاءِ بالعذابِ الفتاك! إنها ســـنةُ اللهِ في المستهزئين''.

قالت ''سُـلافة'' والخوفُ يجلجلُ في صـوتها: ''صـدقتَ يا حِيَل، ما كانت سـحابةَ ظلٍّ ورحمة، بل كانت سـحابةَ غلٍّ ونقمة، فلما اكتملوا تحتها جميعاً، أمطرت عليهم شــرراً من نارٍ فظيعا، ثم أخذتهم الرجفةُ من تحتِهم، فزلزلتِ الأرضُ زلزالَها، وهدمتِ البيوتَ على من فيها، ثم جاءتِ الصيحةُ من فوقِهم، فخلعت قلوبَهم من أماكنها''.

'' فـاجتمع عليهم العـذابُ من كـلِّ مكـان: نـارٌ من فوقِهم تحرقُهم، وزلازلٌ من تحتِهم تطحنُهم، وصـــيحةٌ تخلعُ أفئدتَهم، فماتوا جميعاً في أماكنِهم، جاثمينَ على رُكَبِهم، لم تغنِ عنهم أموالُهم التي سرقوها، ولا موازينُهم التي بخسوها، ولا بيوتُهم التي شيدوها''.

نجاةُ شعيبٍ والمؤمنين

ســألتِ الغزالة ‘‘رَشــاقة’’ بصــوتٍ خافت: ‘‘وماذا حدثَ لشــعيبٍ ومن معه من المؤمنين؟’’.

أجابت ‘‘سُـلافة’’: ‘‘لقد نجا شـعيبٌ ومن آمن معه برحمةِ اللهِ وفضـلِه، فقد أخرجهم اللهُ من تلك القريةِ الظالمة قبلَ أن يحلَّ بها العذاب، وعاشـوا في الأرضِ آمنين، شـاكرين لربِّهم على نجاتِهم من ذلك العذابِ المهولِ والعقاب’’.

الموعظةُ الختامية: الظلمُ في الميزان

زأر الأسـد ‘‘هَزْبَر’’ زئيراً عظيماً ارتجفت له الغابةُ والأرجاء، وقال بصـوتٍ كأنه الرعدُ في الســماء: ‘‘هكذا يكونُ عقابُ من يأكلُ السُّــحت، ويجعلُ من قوتِه أداةً للنحت... نحتِ لحمِ الضعيفِ والمسكين!’’.

ثم نظرت ‘‘سُـلافة’’ إلى الوجوهِ الشـاحبة والقلوبِ الخاشـعة، وقالت موعظتَها التي كانت كصـاعقةٍ واقِعة: ‘‘إن اللهَ الذي حرم الشـركَ والفحش، هو نفسـه الذي حرم السـرقةَ والظلمَ والغش، فلا يظننَّ أحدُكم أن الظلمَ في المالِ هين، وأن أكلَ حقِّ الضــعيفِ أمرٌ ليّن، فكم من مملكةٍ زالت بسببِ درهمٍ حرام، وكم من حضارةٍ انهارت لأنها على الظلمِ تقام’’.

أضافت ‘‘سُلافة’’ وهي تربطُ بين القصةِ وبين هذا الزمن: ‘‘وانظروا يا أحبتي إلى حالِ الناسِ اليومَ في هذا الزمان، كيف يبخســون الميزانَ في كلِّ مكان، ترى التاجرَ يغشُّ في بضـاعتِه، والموظفَ يأخذُ الرشوةَ في معاملتِه، والشركاتِ تحتكرُ السلعَ لترفعَ أسعارَها، والبنوكَ تأكلُ الربا بأضـعافٍ مضـاعفة، كلُّهم يظنون أن أموالَهم التي جمعوها سـتنفعهم، وهم لا يدرون أن كلَّ درهمٍ حرامٍ سيكونُ شاهداً عليهم يومَ القيامة’’.

وتابعت بتحذير: ‘‘وكما أهلكَ اللهُ قومَ مدين بالظلّةِ والرجفةِ والصـــيحة، فإنه قد يهلكُ الظـالمينَ اليومَ بـأنواعٍ من العـذاب: أزمـاتٍ مـاليـةٍ تفتـكُ بهم، وحروبٍ تجـاريـةٍ تـدمرُهم، وصـراعاتٍ تفرّقُ كلمتَهم، فالعبرةُ يا أحبتي أن نكون كما أراد الله لنا، وأن نتعاملَ بالصـدقِ والأمـــانــة، وأن نــؤديَ الــحــقــوقَ إلــى أهــلــهــا، فــإن الــلــهَ يــحــبُّ المحسنين’’.

الفصل الثاني عشر

في قصةِ فرعونَ ذي الأوتاد، وهلاكِه هو وكلِّ من فسدَ وعاد

تحتَ السدرةِ العتيقة: صمتُ الرهبةِ وسؤالُ الأسد

ما إن أتمَّتِ السُّلحفاة ''سُلافة'' قصةَ قومِ مدينَ وما جرى لأهلِها من عذابٍ أليمْ، حتى عمَّ المجلسَ صمتٌ مهيبٌ ثقيلٌ كظلِّ الغيومْ، كان صمتَ من أدركَ أن للهِ في خلقِه أمراً عجيباً لا يُردّ، وأن هلاك الأممِ قد يكونُ لأسبابٍ شتّى، فمنها الظاهرُ الذي يُرى، ومنها ما خفيَ عن العيونِ فاستتر.

زأر الأسد ''هَزْبَر'' زئيراً لم يكن كعادتِه زئيرَ فخرٍ وقوةٍ وسطوة، بل كان زئيرَ تساؤلٍ فيه من الخشيةِ نبرةٌ حزينة، وفيه من الخوفِ رجفةٌ دفينة. قال بصوتٍ كأنه الرعدُ البعيدُ في أعماقِ السماء: ''يا سُلافةُ، يا حكيمةَ الغابِ ويا راويةَ الأنباءْ، لقد سمعنا عن أقوامٍ أهلكهم الشركُ والفساد، وعن ملوكٍ أهلكهم الكبرُ والعناد، فهل هناك من جمعَ كلَّ هذه الشرورِ في شخصِه، وبنى مملكتَه على الظلمِ من يومِه لأمسِه؟ هل بلغ الطغيانُ بأحدٍ أن يجمعَ بين ادعاءِ الربوبية، وقتلِ الأبرياءِ بلا رحمةٍ ولا روية؟''

نظرتِ السُّلحفاة ''سُلافة'' إلى الأسد، وقد خيم على وجهها ظلٌّ كثيفٌ كظلِّ الجبالْ، وقالت بصوتٍ عميقٍ مخيفٍ يجلجلُ كالزلزالْ: ''لقد سألتَ يا سيدَ الغابِ ويا ملكَ الوحوشْ، عن قصةِ أعظمِ الطغاةِ وأقسى من وطئَ الترابَ وعاش، سألتَ عن فرعونِ مصر، الذي لم يترك باباً للشرِّ إلا واقتحمه وكسر، ملكٌ طغى وبغى وعلا في الأرضِ بغيرِ الحق، وعلى مُلكِه علا وسما حتى بلغَ الأفق، ادّعى الألوهيةَ من دونِ حياءٍ ولا خجل، وقال لقومِه

في غطرسةٍ وخيلاءَ وعَجَل: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات:24]، وقال أيضاً: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾ [القصص:38]''.

قاطعها الثعلب ''حِيَل'' بدهائه المعروف، وقد لمعت عيناه ببريقٍ من الدهشة والاستنكار:

''أيدَّعي الألوهيةَ هذا الطاغيةُ الجبار؟ ألم ينظر إلى نفسِه الضعيفةِ التي تموت، ألم يرَ أنه يحتاجُ للطعامِ والشرابِ ويقضي الحاجةَ ويصيرُ إلى فوت؟''.

ردَّ البوم ''بَصير'' من عزلتِه على غصنِه العالي، بصوتٍ يخرجُ من قلبِ الحكمة: ''يا حِيَل، إن الطغيانَ إذا استحكمَ في القلوب، يُعمي البصيرةَ عن رؤيةِ أبسطِ العيوب، لقد استعبدَ فرعونُ قوماً من بني إسرائيل، فجعلهم خدماً له في كلِّ عملٍ ثقيل، وكان يذبحُ أبناءَهم الذكورَ الوليدة، ويستبقي نساءَهم للخدمةِ والذلِّ والهوانِ الشديد، فعل ذلك خوفاً من نبوءةٍ أخبرته أن طفلاً من بني إسرائيل، سيكونُ هلاكُ ملكِه على يديه عاجلاً غيرَ آجل''.

هنا، انتفض الذئب ''نَاب'' بصوتِه الأجشِّ المتوحش، وقال بغضبٍ يملأُ جوانحَه: ''يقتلُ الأطفالَ خوفاً على مُلكِه؟ ما أعجبَ هذا الجبانَ في بطشه! أيظنُّ أنه بقتلِ الرضَّعِ يغلبُ القدر، ويدفعُ عن نفسِه ما كان في الكتابِ قد سُطِر؟ إنه لفي ضلالِه يعمهون''.

تدخلتِ الحمامة ''هَديل'' بصوتٍ باكٍ مرتعشٍ كأنه نواحُ الناي في ليلةِ الوداع: ''يا ويلاه! يقتلُ الأبرياءَ الصغارَ بدمٍ بارد؟ ألم تكن في القومِ امرأةٌ رشيدة، أو أمٌّ ذاتُ كبدٍ ليست بجليدة؟ كيف كانت الأمهاتُ ترى أطفالَها تُذبح أمامَ عيونها، ولا يصرخنَ ولا يَنُحنَ على فلذاتِ أكبادِها؟''.

أجابتها ''سُلافة'' بصوتٍ يحملُ من العجبِ ما يحمل، ومن الأسى ما يفيض: ''وهنا يكمنُ مكرُ اللهِ الذي هو خيرُ الماكرين، وتدبيرُه الذي يفوقُ تدبيرَ العالمين، شاءَ اللهُ أن يتربى الطفلُ الذي سيُهلكُ فرعون، في بيتِ فرعون نفسه، ففي عامِ ولادةِ موسى عليه

الســـلام، خافت عليه أمُّه من الذبحِ والهوان، فأوحى اللهُ إليها وحيَ إلهام، كما قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي ۖ إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص:7]".

التابوتُ في النيل: قدَرُ اللهِ النافذ

واصــلت "سُــلافة" بصــوتٍ يخفتُ تارةً ويعلو تارة: "فصــنعتْ له تابوتاً صــغيراً محكماً، وألقتهُ في نهرِ النيلِ العظيم وقلبُها يكادُ يطيرُ فرقاً وألماً، فســاقَه الماءُ بقدرةِ القادرِ إلى قصــرِ فرعون، فالتقطته الجواري وهنَّ لا يعلمنَ ما يكون، فلما رأتهُ الســيدةُ "آســية" زوجةُ فرعون، وكانت امرأةً مؤمنةً تكتمُ إيمانها في قلبِها، وقعت محبتُه في قلبِها كأنها نورُ الســماء. فقالت لفرعون في رجاءٍ وحنان: ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾ [القصص:9]".

ضـحكَ الثعلب "حِيَل" ضـحكةً ماكرةً فيها دهاءٌ وسـخرية: "يا للهول! إنه القدرُ الإلهيُّ العجيب! فوافق فرعونُ وهو لا يدري، أن عدوهُ الذي يقتلُ من أجلِه الآلافَ من الأطفال، قد باتَ في قصــرِهِ وتحت أمرِهِ يجري، يرضــعُ من طعامِه ويشــربُ من شــرابِه ويمشــي في رحابِه!".

أكملت "سُــلافة": "وكبر موســى في قصــرِ الملكِ آمناً مطمئناً، حتى إذا اكتملَ شــبابُه واشــتدَّ عظمُه، أتاه من اللهِ الأمرُ والحكم، وأرســله اللهُ إلى فرعون، ومعه أخوه هارون الذي جعله اللهُ وزيراً ومعيناً، فدخلا على الطاغيةِ في قصــرِهِ المشــيد، وقالا له بلســانِ الحقِّ وأمرِهِ الوحيد: ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ﴾ [طه:47]".

المواجهةُ الأولى: العصا واليدُ البيضاء

ســـأل الأرنب ''وَجيب'' ببراءةٍ وخوف: ''وكيفَ اســـتقبلَ فرعونُ هـذا الطلبَ الجريء؟''.

أجابت ''سُـلافة'': ''سـخر منهم فرعونُ وازدراهم في البداية، وذكّر موسى بأنه هو من ربّاهُ وحماهُ وآواه، ثم طلبَ منه آيةً على صـدقِ دعواه، فما كان من موسـى إلا أن ألقى عصـاهُ فإذا هي ثعبانٌ مبين، حيةٌ عظيمةٌ تكادُ تبتلعُ كلَّ ما هو لعين، ثم أدخل يدهُ في جيبِه ثم أخرجها، فإذا هي بيضاءُ للناظرين من غيرِ سوءٍ، نورٌ يسطعُ كأنه القمرُ في الليلةِ الظلماءِ''.

صـاحَ القرد ''صَـفْصَـف'' من فوق غصـنِه: ''يا إلهي! أيُّ معجزاتٍ هذه؟ فماذا كان ردُّ فرعون؟''.

أكملت ''سُـــلافة'': ''فما كان من فرعون إلا أن قال في عناده وكفره: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَـــاحِرٌ عَلِيمٌ﴾ [الشـعراء:34]. وجمع له سـحرةَ مملكتِهِ أجمعين من كلِّ فجٍّ عميق، في يومِ عيدٍ معلومٍ ومشـهود، وفي ذلك اليومِ المشـهود، قال السـحرةُ لموسى في غرورٍ وتحدٍّ: ﴿إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ﴾ [طه:65]. فقال لهم موســى بثقةِ من يعلم أن النصــرَ له: ﴿أَلْقُوا﴾''.

يومُ الزينة: انهزامُ السحرة

تابعت ''سُلافة'' بتفاصيلَ مثيرة: ''فألقوا حبالَهم وعصيَّهم، فإذا هي حياتٌ صغيرةٌ تسعى، وخُيّل للناسِ من سحرِهم أنها أفاعٍ كبرى تسعى وتلتف، فأوجس موسى في نفسِه الخوف، فأوحى إليه ربُّه: ﴿لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَىٰ * وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا﴾ [طه:68-69]''.

هنا تدخلَ النمر ''أَرْقَط'' بفارغ الصبر: ''وماذا حدث بعد ذلك؟''.

أجابت ‘‘سُـلافة’’: ‘‘فألقى موسى عصـاه، فانقلبت إلى حيةٍ عظيمةٍ حقيقية، وابتلعت كلَّ ما ألقوا من سحرٍ وزورٍ في لحظةٍ واحدة، فعلم السحرةُ أن هذا ليس بسحرٍ من صنعِ البشر، بل هو من عندِ ربِّ البشر، فخرّوا ساجدين، وقالوا بصوتٍ واحدٍ وهم بالحقِّ ناطقين: ﴿آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ * رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ﴾ [الشعراء:47-48]’’.

زمجر الأســـد ‘‘هَزْبَر’’ بغضـــبٍ عارم: ‘‘وماذا فعل الطاغيةُ حين رأى جنودَه قد آمنوا، وبحقيقةِ الأمرِ أيقنوا؟’’.

أجابته ‘‘سُـلافة’’ بصوتٍ يرتجفُ من هولِ الذكرى: ‘‘لقد جنَّ جنونُه، وتوعدهم في حينِه. قال لهم: ﴿آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّـحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَـــلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَـــدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾ [طه:71]’’.

‘‘ فقتلهم جميعاً في ذلك اليومِ العصـيب، فكانوا شـهداءَ الحقِّ بعد أن كانوا سـحرةَ القوم. لقد آمنوا في لحظةٍ فخسروا الدنيا وربحوا الآخرة’’.

الآياتُ التسع: الطوفانُ والجرادُ والقمل

واصـــلت ‘‘سُـــلافة’’: ‘‘ثم أرســـل اللهُ على قومِ فرعون الآياتِ تلو الآيات: الطوفانَ والجرادَ والقُمَّلَ والضـفادعَ والدم، تسـعَ آياتٍ بينات. فكلما جاءتهم آية، اسـتغاثوا بموسـى وتضرعوا، فإذا كشفها اللهُ عنهم، عادوا إلى كفرِهم وبؤسِهم وعنادِهم’’.

سأل القنفذ ‘‘شَوْك’’ بفضول: ‘‘وكيفَ كانت هذه الآياتُ يا تُرى؟’’.

أجابت ‘‘سُـــلافة’’: ‘‘جاءهم الطوفانُ فأغرقَ زروعَهم وبيوتَهم، فاســتغاثوا فرفع. ثم جاءهم الجرادُ فأكلَ كلَّ أخضـــرٍ ويابس، فاســـتغاثوا فرفع. ثم جاءهم القُمَّلُ فكان في طعامِهم وشـرابِهم وفرشِـهم، لا يدعون منه مخلصـاً، ثم جاءتهم الضـفادعُ فملأت بيوتَهم وأطعمتَهم،

حتى كان الرجلُ يجلسُ على ضـفدعٍ وهو لا يشـعر، ثم جاءهم الدمُ فصـارت مياهُهم كلها دماً، لا يجدون ماءً عذباً للشرب، ومع كلِّ هذا، كانوا إذا كُشف عنهم العذابُ نقضوا العهدَ وعادوا للكفرِ والارتياب''.

الخروجُ من مصر والمطاردةُ العظيمة

تابعت ''سُلافة'': ''فلما يئسَ منهم موسى، وأمره اللهُ بالخروج، خرج بقومِه ليلاً من مصـرَ في ظلمةِ الليل، فعلم فرعونُ بذلك فتبعهم بجنودِه، حتى وصـل موسـى وقومُه إلى شـاطئِ البحرِ، فكان البحرُ من أمامِهم هائجاً عميقاً، وفرعونُ وجنودُه من ورائهم يطاردونهم بجيشٍ عرمرم، فقال أصحابُ موسى في يأسٍ وقنوط: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ [الشعراء:61]''.

صاحَ الأرنب ''وَجيب'' بخوف: ''يا للهول! البحرُ أمامهم والعدوُّ خلفهم! فكيفَ نجوا؟''.

أجابت ''سُـلافة'' بثقة: ''فقال موسـى بقلبٍ يملؤه اليقينُ بالله: ﴿كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء:62]. فأوحى اللهُ إليه: ﴿أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ﴾ [الشعراء:63]. فضـرب موسـى البحرَ بعصـاه، فانفلق البحرُ بإذنِ اللهِ إلى نصـفين، فكان كلُّ فرقٍ كالطودِ العظيم، وظهر في وسطِه طريقٌ يابسٌ لا ماءَ فيه ولا طين. فعبر موسى وقومُه بسلامٍ وأمان''.

غرقُ فرعون: نهايةُ الطاغية

أكملت ''سُـلافة'' بصـوتٍ يجلجل: ''فلما رأى فرعونُ ذلك، دخل بجيشِـه خلفَهم في الطريقِ اليابس، وهو يظنُّ أنه قادرٌ على اللحاقِ بهم والإيقاع، حتى إذا تكامل جيشُه في قلبِ البحر، وخرج آخرُ رجلٍ من بني إسـرائيل إلى البرِّ الآخر، أمرَ اللهُ البحرَ أن يعودَ كما كان، فانطبق على فرعونَ وجنودِه، فبدأ الغرقُ والطغيانُ يصارعانِ الطغيان''.

قال الثعلب ''حِيَل'' بسخرية: ''وها هو الطاغيةُ الذي ادّعى الربوبية، يغرقُ في ماءٍ لا يملكُ له دفعاً ولا حيلة!''.

أكملت ‘‘سُلافة’’: ‘‘وفي تلك اللحظاتِ الأخيرة، لحظاتِ الموتِ والحقيقة، وحين أدركه الغرقُ وبلغتِ الروحُ التراقي، قال فرعونُ كلمتَه الأخيرة التي لم تنفعه: ﴿آمَنتُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس:90]’’.

صاحَ البوم ‘‘بَصير’’ بحكمة: ‘‘لقد آمنَ حين لا ينفعُ الإيمان، وتابَ حين تردُّ التوبةُ وتُرفض!’’.

أكملت ‘‘سُلافة’’: ‘‘فجاءه الردُّ من اللهِ العزيزِ الحكيم، ليس ردَّ قبولٍ بل ردَّ طردٍ وإهانة: ﴿آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ * فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً﴾ [يونس:91-92]’’.

الموعظةُ الختامية: دروسٌ من هلاكِ فرعون

صمتت ‘‘سُلافة’’ قليلاً، وقد بدا على وجهها تعبُ آلافِ السنين، ونظرت إلى الجمعِ وقالت موعظتَها التي كانت خلاصةَ كلِّ العبر: ‘‘فيا أهلَ الغاب، انظروا إلى نهايةِ أعظمِ الطغاة، لم تُقبل توبتُه في آخرِ لحظة، لأنها كانت توبةَ المضطرِّ لا توبةَ المختار، إن اللهَ يقبلُ التوبةَ ما لم تصلِ الروحُ إلى الحلقوم، وما لم يرَ العبدُ العذابَ المحتوم، فلا تغتروا بقوتِكم، ولا بملكِكم، ولا ببطشِكم، فتؤخروا التوبةَ حتى يفوتَ الأوان’’.

أضافت الحمامة ‘‘هديل’’ وقد رأتْ شيئاً مِن أحوالِ الناس: ‘‘وانظروا يا أحبتي إلى حالِ الناسِ اليومَ في هذا الزمان، كم من طاغيةٍ ظنَّ أن مُلكَه باقٍ لا يزول، فإذا به يهلكُ في ليلةٍ أو نهار، كم من فرعونٍ حديثٍ ادّعى الألوهيةَ أو العظمةَ في الأرض، فإذا به يُذلُّ ويُهان، ويموتُ كما يموتُ الفقراءُ والمساكين، إنها سنةُ اللهِ في الطغاةِ والمتكبرين، أن يُملي لهم حتى إذا أخذهم لم يُفلتهم، فلا تظنوا أن القوةَ في الجيشِ والعتاد، ففرعونُ كان له جنودٌ لا تُحصى وأوتاد، ومع ذلك أغرقه اللهُ في البحرِ وهو مُهان، ولا تظنوا أن المالَ والبنينَ ينفعان، ففرعونُ كان له من الدنيا ما يتمنى، ومع ذلك لم يغنِ عنه حين جاء أمرُ الله شيئاً’’.

أضاف البوم ''بَصير'' الذي يرى في الظلام: '' وتذكروا دائمًا أن من حاربَ الله، غلبهُ الله، ومن نازعَ اللهَ في كبريائِه، قصمهُ الله، فكلُّ قوةٍ في الأرضِ إلى زوال، ولا يبقى إلا قوةُ الكبيرِ المتعال، فخافوا اللهَ الذي أهلكَ فرعونَ وجنودَه، ونجّى موسى بقلبِه وعُبّادَه، فإنه هو القويُّ العزيز، الذي يفعلُ ما يشاءُ ويريد''.

الفصل الثالث عشر

في قصة قارون الذي بغى، وعاقبةِ من على خالقهِ طغى

تحتَ السدرةِ العتيقة: صمتُ التأملِ وسؤالُ الثعلب

ما إن أطبقَ البحرُ على فرعونَ وجندِه في قعرِ اليمّ، وانجلى عن وجهِ التاريخِ ذلك الغمّ، حتى ساد المجلسَ صمتٌ كصمتِ القبورِ في ظلمةِ الظلامْ، كانت الحيواناتُ قد استنفدت كلَّ مشاعرِ الذهول، وصارت أرواحُها تتأملُ في مصيرِ كلِّ طاغيةٍ مغرور، وتفكرُ في عاقبةِ كلِّ جبارٍ كفور.

لكن الثعلب "حِيَل"، الذي لا يرى في الدنيا إلا المالَ والسلطةَ والجاه، ولا يهدأ له بالٌ حتى يفهمَ أسبابَ العلوّ في الحياة، قال بصوتٍ فيه من دهاءِ الدنيا ما فيه من السؤال، وفيه من طمعِ البشرِ ما يخفي خلفه الاحتيال: "يا سُلافةُ، يا حكيمةَ الغابِ ويا راويةَ الأحقابْ، لقد رأينا نهايةَ ملكِ الجبابرة، وهلاكَ القوةِ القاهرة، فهل يموتُ الشرُّ بموتِ الطاغيةِ صاحبِ الصولجان؟ أم أن للغرورِ أبوابًا أخرى تفتحُ على النيران؟ لقد كان فرعونُ يملكُ الجيشَ والعرشَ والقصور، فماذا عن الذي يملكُ الذهبَ والكنوزَ على مرِّ العصور؟ هل يُفتنُ المرءُ بماله كما يُفتنُ بسلطانه؟ وهل يطغى بذهبه كما يطغى بتيجانه؟ فكم نرى اليومَ من أغنياء، يملكون الأرضَ وما عليها من أشياء، يسيرون في موكبٍ فخيم، ويظنون أنهم في نعيمٍ مقيم!".

نظرتِ السُّلحفاة "سُلافة" إلى الثعلب نظرةً فهمت بها ما وراء كلامه من شغفٍ بالدنيا ولهفة، وقالت بصوتٍ يحملُ حكمةَ الأزمانِ وتجاربَ السنين: "لقد نبشتَ يا "حِيَل" عن فتنةٍ هي أختُ السلطانِ التوأم، وعن داءٍ هو في كلِّ زمانٍ أعظم، فتنةُ المالِ التي إذا تمكنت

من قلبٍ أعمته، وعن رؤيةِ الحقِّ أصـمته، سـأروي لكم قصـةَ ''قارون''، الذي كان من قومِ موسى –عليه السلام–، لكنه لم يتعظ بما جرى لفرعونَ وما قاسى''.

قاطعها القرد ''صَـفْصَـف'' من فوق غصـنِه، وهو يتأرجحُ كالمجنون: ''قارون؟ ومن يكونُ هذا القارون؟ أهو ملكٌ أم نبيٌّ أم تاجرٌ مأفون؟''.

أجابت ''سُـلافة'' بابتسـامةٍ حزينة: ''كان قارونُ من قومِ موسى، بل من بني إسرائيل، آتاه اللهُ من الكنوزِ ما إن مفاتحَهُ لتنوءُ بالعصـبةِ أولي القوة. تخيلوا يا سـادة، لم تكن كنوزُه هي التي تُحمل، بل مفاتيحُ خزائنِه وحدها، يحملها ثلةٌ من الرجالِ الأشـــداء، فيكادُ ظهرُهم أن ينحني من العناء! فكيف كانت تلك الكنوز؟ كانت أنهارًا من الذهبِ تجري، وجبالاً من الفضةِ في كلِّ شبرٍ تسري، ويواقيتَ وزبرجدًا أغلى من كلِّ ما في البرِّ والبحر''.

وصفُ الزينة: موكبُ الغرور

واصـلت ''سُـلافة'' وصـوتُها يرسـمُ لوحةً من البهرجة الزائفة: ''فبدل أن يشـكرَ اللهَ على ما أعطاه، بغى على قومِه وتكبَّرَ بما حواه، خرجَ على قومِه في زينتِه، في موكبٍ لم ترَ العينُ مثله، خرجَ على خيل وبغالٍ بيضاء، تزيّنها سروجٌ من أرجوانٍ وأرديةٌ حمراء، خرجَ ومعه أربعةُ آلافِ فارسٍ على الخيول، وجواريهِ الحسـانُ تضـربُ له بالدفوفِ والطبول، كانت ثيابُه من حريرٍ وذهب، تسـحبُ على الأرضِ في خيلاءَ وعجب، فكان يتبخترُ في الأرضِ مرحًا، ويظنُّ أن الأرضَ وما عليها صارت له مسرحًا''.

هنا، تدخل القندس ''سَدَّاد'' وكان عملياً يحبُّ البناءَ والعمران، فقال بإعجابٍ لا يخلو من حيرة: ''وماذا فعل بماله؟ هل بنى به مدناً وقناطر؟ أم شـــقَّ به أنهاراً وحفائر؟ فالمالُ قد يكونُ قوةً للبناءِ والإصلاح، وقد يكونُ سبباً للخيرِ والفلاح!''.

أجابت ''سُلافة'': ''لكنه لم يفعل شيئاً من ذلك يا ''سَدَّاد''، كان همه الوحيدُ أن يرى الناسُ عظمتَه، وأن تخشعَ الأعناقُ لهيبته، فلما رآه أهلُ الدنيا من قومِه، الذين لا يرون إلا بريقَ الذهبِ ولونه، قالوا في حسرةٍ ولهفة: ﴿يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [القصص:79]''.

تعليقاتُ الحيوانات: بين التمني والتحذير

هنا، تدخلتِ الحمامة ''هَديل'' بصوتِها الحنون المرتعش، وقد اغرورقت عيناها بالدموع: ''يا للحسرة! كيف تمنوا ما فيه هلاكه؟ ألم يروا أن بريقَ الذهبِ قد يكونُ للروحِ شَرَكَه؟ اليوم نرى الناسَ يتمنون حياةَ الأثرياء، ويتابعون أخبارَهم في الصباحِ والمساء، ولا يعلمون أن تلك القصورَ قد تكونُ سجوناً، وأن تلك الأموالَ قد تكونُ ديوناً للآخرةِ وشجوناً!''.

ردَّ البوم ''بَصير'' من عزلته المعهودة، بصوتٍ كأنه صدى الحق: ''يا هَديل، إن بريقَ الدنيا يُعمي الأبصار، ويجعلُ من الهلاكِ مطمعاً للأنظار، ولكن أهلَ العلمِ يرون ما لا يراه الجاهلون، ويزنون الأمورَ بميزانِ الحقّ لا بميزانِ المفتونين''.

أكملت ''سُلافة'': ''صدقتَ يا بصير؛ فإن أهلَ العلمِ والإيمانِ من قومِه، قالوا لهم ناصحين: ﴿وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا... وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ﴾ [القصص:80]''.

نصيحةُ العلماء لقارون

تابعت ''سُلافة'': ''ثم ذهبوا إلى قارونَ نفسِه، وقالوا له في شفقةٍ وحنان: ﴿لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ. وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [القصص:77]''.

صاحَ الذئب ''نَاب'' باستهزاءٍ وغضب: ''وهل يسمعُ من أصمَّته رنّةُ الدرهم في الدار؟ وهل يرى من أعمته لمعةُ الدينار؟ فماذا كان جوابُه على هذا النصحِ الثمين، من ذلك المتعجرفِ اللعين؟''.

قالت ''سُلافة'' بصوتٍ يحاكي صلفَ قارون: ''لقد نظر إليهم في كبرياءٍ وازدراء، وقال قولتَه التي كانت سببَ كلِّ شقاء؛ قال لهم في غرورٍ ما بعده غرور: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي﴾ [القصص:78]''.

نقاشٌ حاد: أنا، وصنعتُ نفسي

هنا، ثارت ثائرةُ الحيوانات، وتداخلت أصواتُها في نقاشٍ حامٍ:

قال الثعلب ''حِيَل'' وقد لمعت عيناه بذكاءٍ: ''أترون؟ إنها نفسُ الكلمةِ التي يرددها كثيرٌ من الأثرياءِ اليوم: ''أنا بنيتُ ثروتي بنفسي''، ''أنا بدأتُ من الصفر''، ''أنا بذكائي وجهدي وصلتُ إلى ما وصلت إليه''، ينسون أن اللهَ هو الذي أعطاهم العقلَ والصحةَ والفرصة، ويسندون الفضلَ لأنفسهم وحدها!''.

أضاف الأسد ''هَزْبَر'' بزئيرٍ هادئ: ''لقد نسبَ الفضلَ إلى علمِه وذكائِه، ونسيَ فضلَ ربِّه وعطائِه، ظنَّ أنه بعبقريتِه في التجارةِ والصناعة، جمعَ هذا المالَ في كلِّ ساعة''.

قالت الحمامة ''هَديل'' بحسرة: ''وهذه يا أهلَ الغاب، هي قاصمةُ ظهرِ كلِّ مغرور، حين ينسى الرازقَ ويفتخرُ بما في يده من شرور''.

تابعت ''سُلافة'': ''ولقد بلغ به الكبرُ أنه حاول أن يؤذي نبيَّ اللهِ موسى بالمكر، فاتفق مع امرأةٍ بغيٍ لتقذفه بالبهتان، فبرأه اللهُ منها في ذلك الزمان''.

العقوبةُ من جنس العمل

صـــمتت ''سُـــلافة'' للحظة، وبدا وكأنها تســـتمعُ إلى صـــوتِ أنينٍ قادمٍ من باطنِ الأرض، ثم قالت بصـــوتٍ خفيضٍ يرتجف: ''فلما بلغَ الغرورُ به هذا المبلغ، وجحدَ النعمةَ وتجبّر، جاءه أمرُ الله الذي لا يُدفع، أمرٌ لم يكن صاعقةً من السماء، ولا طوفانًا من الماء، بل جاء العقابُ من جنسِ العمل، ومن نفسِ الأرضِ التي تبخترَ عليها في خيلاءَ وملل''.

توقفت قليلاً، ثم أكملت: ''في لحظةٍ من اللحظات، وبينما هو في قصرِه بين كنوزِه وزيناتِه، أمر اللهُ الأرضَ أن تبتلعه، فخســـفَ اللهُ به وبدارِه ال، ض. بدأت الأرضُ تموجُ من تحته، وتنشقُّ لتبتلعه هو وكلَّ ما يملك، فبدأ يغوصُ في التراب، هو وذهبُه وفضتُه وخدمُه وكلُّ من كـان في دارِه من الأحبـاب، كـان يغوصُ ببطء، وهو يرى كنوزَه التي جمعهـا تغوصُ معـه، وتتحولُ إلى جزءٍ من طينِ الأرضِ وترابِها، فلا يستطيعُ منها فكاكًا ولا هربًا''.

صاحَ القنفذ ''شَوْك'' مرتعداً: ''يا للهول! إنها نفسُ الأرضِ التي كان يمشي عليها متكبراً، تبتلعه الآن!''.

أكملت ''سُـلافة'': ''ويُقالُ إنه ما زالَ يخســفُ به إلى يومِ القيامة، ليكونَ في كلِّ يومٍ في عذابٍ وندامة. ﴿فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُـــرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِـــرِينَ﴾ [القصص:81]''.

عبرةُ الناظرين

ارتفع صـوتُ ''سُـلافة'': ''فلما رأى الذين تمنوا مكانَه بالأمس ما حلَّ به، اهتزت قلوبُهم وقالوا في خوفٍ ورجاء: ﴿وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَا أَن مَّنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ [القصص:82]''.

هنا، تدخل الفيل ''خَطَّار'' بصوتِه الرزين: ''هكذا تكونُ العبرةُ يا سادة، إن الذين يتمنون ما في أيدي الأغنياء، لا يرون ما وراءَ تلك الأموال من أخطار، كم من غنيٍّ بات لاهياً، فأصبح في خبرِ كان!''.

الموعظةُ الختامية: أنا، وصنعتُ نفسي

نظرت ''سُلافة'' إلى عيونِ الحيواناتِ المذهولة، وإلى الثعلب ''حِيَل'' الذي بدا وكأنه فقد كلَّ حيله، وقالت موعظتَها الأخيرة التي كانت أثقلَ من كلِّ كنوزِ الأرض: ''اعلموا أن فتنةَ المالِ قد تكونُ أشدَّ من فتنةِ السلطان، فالمالُ يزينُ لصاحبِه القوة، ويُنسيه أن فوقَ كلِّ ذي قوةٍ قوة، فلا تغتروا بما تجمعون، ولا بما تكتنزون، فكلُّ ذلك ليس من علمِكم ولا من ذكائِكم، بل هو من فضلِ اللهِ ورزقِه لكم''.

أضاف الغراب ''نعّاب'' وقد كان يوماً يعيش قُرب أهل الثراء: ''وانظروا إلى حالِ الناسِ اليومَ، كم من غنيٍّ يقول: ''أنا كوَّنتُ ثروتي بنفسي''، ''أنا بدأتُ من الصفر''، ''أنا بذكائي وجهدي وصلتُ'' يتناسون أن اللهَ هو الذي أعطاهم العقلَ السليم، والصحةَ الجسيمة، والفرصةَ المناسبة، ينسون أن آلافاً مثلهم بدؤوا من نفسِ النقطة وبنفس الجهد لكنهم لم ينجحوا، فليس النجاحُ بمجردِ الجهدِ والذكاء، بل هو بتقديرِ اللهِ أولاً وآخراً، وكما خسفَ اللهُ بقارونَ الأرضَ، فإنه قد يخسفُ بأموالِ غيرِه بطرقٍ أخرى: إفلاسٌ مفاجئ، أزماتٌ مالية، سرقاتٌ، حروبٌ وحروق، أو أمراضٌ تذهبُ بالمالِ وبالصحة معاً، فالعبرةُ يا سامعين أن نكونَ من الشاكرين، لا من المغرورين، وأن نعلمَ أن المالَ عاريةٌ في أيدينا، وليس ملكاً لنا، وسنُسألُ عنه يومَ القيامة: من أين اكتسبناه؟ وفيمَ أنفقناه؟''.

رفعتِ الحمامة ''هَديل'' رأسَها، وقالت بصوتٍ يقطرُ إيماناً: ''فمن شكر، زاده اللهُ وباركَ له، ومن كفرَ بالنعمةِ سلبه اللهُ إياها وجعلها عليه حسرةً ووبالاً، فاحذروا أن تقولوا يوماً

''هذا مالي من جهدي وتعبي''، بل قولوا دائمًا ''هذا من فضـلِ ربي'' فكلُّ مالٍ لا يُشـكَرُ اللهُ عليه، هو قنطرةٌ إلى الجحيمِ لا إلى النعيم''.

الفصل الرابع عشر

في حيلة أهلِ السبتِ اللئام، وعاقبةِ المسخِ في الأجسام

تحتَ السدرةِ العتيقة: صمتُ الرهبةِ وسؤالُ الثعلب

ما إن ابتلعتِ الأرضُ قارونَ وكنوزَه في جوفِها السحيقْ، وانطوت صفحةُ من أعمى الغرورُ رموزَه في كلِّ طريقْ، حتى ساد المجلسَ صمتٌ كصمتِ المقابرِ في ظلمةِ القبورْ، كانت الحيواناتُ تتنفسُ بهدوءٍ وخوفٍ وحذر، كأن أرواحَها قد أُرهقت من سماعِ أخبارِ الهالكين، وتأملِ مصيرِ الغابرينَ عبرَ العصورْ.

لكن الثعلب ''حِيَل''، الذي لا يرى نهايةً لدروبِ المكرِ والاحتيال، ولا حدًا لتلاعبِ البشرِ في الحلالِ والحرام، قال بصوتٍ فيه من دهاءِ الثعالبِ ما فيه من الفضول، ومن حبِّ المعرفةِ ما يخفي خلفَه الكثيرَ من الأقوال: ''يا سُلافةُ، يا حكيمةَ الغابِ ويا راويةَ الأحقابْ، لقد رويتِ لنا عن أقوامٍ أهلكهم الجهرُ بالمعصية، والكفرُ الصريحُ بلا تقية، فهل هلكَ قومٌ لأنهم تحايلوا على الأمرِ الإلهي؟ وهل نجا أحدٌ لأنه أظهرَ الطاعةَ وأخفى المكرَ والنية؟ فكم نرى اليومَ من يلتفُّ على القانون، ويأكلُ الحقوقَ بلسانٍ حنون، ويُظهرُ الورعَ وفي قلبِه ألفُ شيطانٍ مجنون!''.

بدايةُ الحكاية: قومُ السبتِ وابتلاءُ السمك

ابتسمتِ السُّلحفاة ''سُلافة'' ابتسامةً باهتةً حزينة، كأنها رأت في سؤالِ ''حِيَل'' صورةَ العصرِ بأكمله، وقالت بصوتٍ يحملُ حكمةَ الأزمانِ وتجاربَ السنين: ''لقد سألتَ يا ''حِيَل'' عن داءٍ هو أشدُّ خطورةً من الكفرِ الصريح، لأنه يأتي بثوبِ الطاعةِ والوجهِ

المليح، سألتَ عن قصةِ ‘‘أصحاب السبت’’، الذين ظنوا أنهم أذكى من ربِّهم، وأن حيلتَهم ستنجيهم من غضبِه وعقابِه وجحيمِه’’.

قاطعها القرد ‘‘صَـفْصَـف’’ من فوق غصـنِه المتأرجح، وهو يتقلبُ كالمعتاد: ‘‘أصـحابُ السبت؟ ومن هم هؤلاءِ يا تُرى؟ هل كانوا يعبدونَ السبتَ كما يعبدُ الناسُ الأصنام؟’’.

أجابت ‘‘سُلافة’’ بابتسامةٍ صابرة: ‘‘لا يا صَفْصَف، ليس الأمرُ كذلك، لقد كان هناك قومٌ من بني إسرائيل، يسكنون قريةً على شاطئِ البحرِ العميق، وكانوا من أمهرِ الصيادينَ في كلِّ طريق، فابتلاهم اللهُ باختبارٍ يســير، ليظهرَ صــادقَهم من كاذبِهم في المصــير، أمرهم ألا يصــطادوا الســمكَ يومَ الســبتِ المبارك، وأن يجعلوه يومًا للراحةِ والعبادةِ لربِّ الخلائقِ المالك’’.

قاطعها ثعلبُ الماء ‘‘غَوَّاص’’، وكان من عشـاقِ الأسـماكِ والصـيد، فقال بلهفةٍ وحماس: ‘‘وما وجهُ الاختبارِ في هذا يا سُلافة؟ أهو مجردُ يومٍ واحدٍ يتركون فيه الصيدَ والاحترافَة؟’’.

أجابته ‘‘سُلافة’’ بصوتٍ فيه من العجبِ ما فيه، ومن الأسرارِ ما تخفيه: ‘‘وهنا كان مكمنُ البلاءِ يا ‘‘غَوَّاص’’. فبأمرِ اللهِ العليمِ الحكيم، كانت الأســماكُ تأتي يومَ الســبتِ أفواجًا أفواجا، وتتراقصُ على وجهِ الماءِ أمواجًا أمواجا، كانت تأتي إلى الشــاطئِ ظاهرةً للعيان، تكادُ تُمســكُ باليدِ من كلِّ مكان، أما في غيرِ يومِ الســبتِ من الأيام، فكانت تختفي في أعماقِ البحرِ المظلم، فلا يجدون منها إلا النزرَ اليسيرَ بعد عناءٍ وتعبٍ وصبر’’.

هنا، لمعت عينا الثعلب ‘‘حِيَل’’ وقال بإعجابٍ لم يستطع إخفاءه، وكاد لعابُه يسيل: ‘‘يا لها من فتنةٍ عظيمة! المالُ يأتيكَ راكضًا في اليومِ الذي حُرِّمَ عليكَ فيه العمل! فماذا فعلوا؟ هل صبروا على هذا البلاءِ العظيم، أم اتبعوا حيلةَ الشيطانِ الرجيمِ الخبيث؟’’.

الفرقُ الثلاث: بين الصامد والمحتال والساكت

قالت ''سُلافة'' بصوتٍ يرتفعُ شيئاً فشيئاً: ''لقد انقسمَ القومُ ثلاثَ فرق، لكلٍّ منها في الهلاكِ أو النجاةِ فرق. أما الفرقةُ الأولى: وهم الأكثريةُ من البشر، فقد زين لهم الشيطانُ حيلةً ماكرةً تزلزلُ الحجر، قالوا: إن اللهَ حرمَ علينا الصيدَ يومَ السبتِ بلا جدال، ولكنه لم يحرمْ علينا الإعدادَ له قبلَ الوقتِ والمآل!''.

سأل الأرنب ''وَجيب'' ببراءة: ''وكيفَ ذلك يا سُلافة؟ وكيفَ يكونُ الإعدادُ بلا صيد؟''.

أجابت ''سُلافة'': ''كانوا يحفرون الحفائرَ على الشاطئِ يومَ الجمعة، وينصبون الشباكَ والحبائلَ في خديعةٍ جمعة، فتأتي الأسماكُ يومَ السبتِ بكثرتِها الزاخرة، فتدخلُ تلك الحفائرَ ولا تستطيعُ الخروجَ منها باكرة، فيتركونها طوالَ يومِ السبتِ حبيسةً أسيرة، ثم يأتون يومَ الأحدِ ليأخذوها فريسةً نفيسة!''.

ضحك القرد ''صَفْصَف'' ضحكةً طائشة، وقال: ''يا لهم من أذكياء! لقد أخذوا السمكَ ولم يصطادوا يومَ السبت! لقد وجدوا المخرجَ من الأمر، وتجنبوا الوزرَ والحرج!''.

زأر الأسد ''هَزْبَر'' زئيرًا خفيفًا لكنه حاسم، وقال: ''صه يا ''صَفْصَف''! أتسمي هذا ذكاءً وفطنة؟ بل هو استهزاءٌ بربِّ الأرضِ والسماء! أيظنون أن اللهَ لا يعلمُ ما في الصدور، وما تخفيهِ القلوبُ من فجور؟ إنهم يخدعون أنفسَهم، وليس ربَّهم الجبار''.

أكملت الحمامة ''هَديل'' بصوتِها الحنون: ''يا للأسف! إنهم يظنون أن اللهَ ينظرُ إلى الظواهر، وأنه يرضى بالحيلِ والمخادعات. وما علموا أن اللهَ ينظرُ إلى القلوبِ وما تخفي من نوايا''.

تابعت ''سُلافة'' بصوتٍ يفيضُ بالأسى: ''صدقتِ يا هَديل. أما الفرقةُ الثانية: فكانت فرقةً مؤمنةً قليلة العدد، فكانوا ينهونهم عن هذا المنكر، ويصرخون في وجوههم، ويحذرونهم من

عاقبةِ التحايلِ على أمرِ اللهِ الأكبر. وأما الفرقةُ الثالثة: وهي فرقةُ السوءِ والخذلان، فقد كانوا لا يفعلون المنكرَ بأنفسهم، ولكنهم لا ينهون عنه ولا يحركون لسانًا''.

نقاشٌ حاد: دورُ الناصحين

سأل الفيل ''خَطَّار'' بصوتِه الرزين: ''وماذا قالت الفرقةُ الساكتة للفرقةِ الناصحة؟''.

أجابت ''سُــــلافة'': ''قالوا للفرقةِ المؤمنةِ الناصــــحة: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ۙ اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَــدِيدًا﴾ [الأعراف:164]. كانوا ســلبيين، لا يهمهم إلا نجاةُ أنفســـهم، فكانوا كالخرسِ في فعلهم، كالأمواتِ لا يأمرون بمعروفٍ ولا ينهون عن منكر''.

هنا تدخل الذئب ''نَاب'' بصــوتِه الأجشِّ المتوحش: ''ولكن أليس لهم عذرٌ؟ لقد رأوا أن القومَ قد تمادوا في غيِّهم، وأن النصحَ لا يجدي معهم!''.

ردَّ البوم ''بَصـــير'' من عزلته بحكمةٍ بالغة: ''يا نَاب، ليس لأحدٍ عذرٌ في تركِ الأمرِ بالمعروف والنهيِ عن المنكر، فمن رأى منكرًا فليغيّره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعفُ الإيمان، والساكتُ عن الحقِّ كمن يرضى بالمنكرِ ويوافق عليه، فهو شريكٌ للفاعلين في الإثمِ والخسران''.

مرورُ الأيام واقترابُ العقاب

واصــلت ''سُــلافة'' بصــوتٍ يخفتُ ويعلو: ''ومرتِ الأيامُ والشــهور، والمحتالون يزدادون غنى وثراء، والمؤمنون يزدادون حزنًا وعناء، حتى جاء يومُ العقاب، الذي لا ينفعُ فيه حيلةٌ ولا أسبابٌ ولا داء''.

صــمتت قليلاً، ثم أكملت: ''في ذلك اليومِ العصــيب، اســتيقظ أهلُ القرية على صــمتٍ رهيب، لم يسمعوا صوتًا للفرقةِ العاصية، لا بكاءَ أطفالٍ ولا صراخَ نساء، لا حركةَ رجالٍ ولا

نباحَ كلاب، فذهب بعضُـــهم ليرى ما الخبر، فوجدوا بيوتَهم مغلقةً عليهم من الداخلِ والخارجِ في حذر".

مشهدُ المسخ: قردةٌ خاسئون

ارتعش صوتُ "سُلافة" وهي تروي المشهدَ المفزع: "فتسوَّروا الجدرانَ والحوائط، ليروا ما حلَّ بهؤلاءِ العصاةِ الساقطين، وهنا كانت الصدمةُ التي تتجمدُ لها الدماء، وتنشقُ لها قلوبُ الأحياء، لقد وجدوهم جميعًا، رجالاً ونساءً وأطفالاً، قد مُسخوا قردةً خاسئين!".

أكملت "سُلافة" بصوتٍ يرتجف: "لم يموتوا، بل تحولت أجسادُهم إلى أجسادِ قردةٍ حقيرة، وعقولُهم باقيةٌ تعرفُ ما حلَّ بها من مصـــيبةٍ كبيرة، فكان القردُ منهم يعرفُ قريبَه الإنســان، فيأتي إليه وتدمعُ عيناه، ويحاولُ النطقَ فلا يســتطيع، ويحاولُ البكاءَ فيخرجُ من حنجرته صوتٌ كالنباح، بقوا على هذا الحالِ ثلاثةَ أيام، يرون أهلَهم ويبكون ولا يستطيعون الكلام، ثم أهلكهم اللهُ جميعًا بعد ذلك، فلم تبقَ لهم باقيةٌ ولا مقام".

نجاةُ الناصحين وهلاكُ الساكتين

سأل الأرنب "وَجيب" بخوفٍ ورجاء: "وماذا حدث للفرقةِ المؤمنةِ الناصحة؟".

أجابت "سُـــلافة": "لقد نجتِ الفرقةُ المؤمنةُ الناهيةُ عن المنكرِ وحدها، أما الفرقةُ العاصية، فقد مُسخت، والفرقةُ الساكتة، فلا يُعلمُ مصيرُها على وجه اليقين، والمشهور أنها هلكت مع الهالكين، لأن من رأى المنكرَ وســكتَ عليه، فهو شــريكٌ للفاعلين في الإثمِ والموبقات".

الموعظةُ الختامية: تحايلُ هذا الزمان

نظرت ''سُلافة'' إلى الثعلب ''حِيَل'' الذي كان يرتجفُ وقد فقد كلَّ مكره، وقالت موعظتَها التي كانت كسيفٍ مسلول: ''فيا أهلَ الغاب، إن هذه القصةَ هي قصةُ كلِّ زمان ومكان، فكم من الناسِ اليومَ يتحايلون على شـــرعِ اللهِ بأســـاليبَ ماكرة؟ من يأكلُ الربا ويسميهِ فائدةً مصرفية، ومن يبررُ الرشوةَ ويسميها هديةً عرفية، ومن تخلعُ حجابَها وتسميهِ حريةً شخصية، ومن يغشُ في تجارتِه ويسميها شطارةً وعبقرية''.

أضـاف البوم ''بَصـير'': ''يظنون أنهم يخدعون اللهَ بتغييرِ الأسـماء، وهم في الحقيقةِ إنما يخدعون أنفسَـهم ويشـترون الشـقاء، يقولون: هذه معاملةٌ بنكية، وليسـت ربًا، هذا برنامجٌ ترفيهي، وليس غناءً، هذه علاقةٌ حرة، وليسـت زنا، هذه شـفاعةٌ وإكرامية، وليسـت رشـوة مؤذية، وهكذا يبدلون الأسماءَ والمسميات، والأمرُ واحدٌ في حكمِ الديَّان''.

ردت ''سُلافة'' وقد استحسَنَتْ قَولَ بَصير: ''وانظروا إلى حالِ الناسِ كيف يتحايلون على القوانينِ والشـرائع، ترى التاجرَ يضـعُ بضـاعتَه الفاسـدةَ تحتَ بضـاعةٍ جيدة، ويبيعُها للناسِ على أنها من النوعيةِ الجديدة، وترى الموظفَ يأخذُ الرشـــوةَ تحتَ اســـمِ ''هدية'' أو ''عمولة''، وترى المرابيَ يسمي الربا ''فوائد'' و''أرباحًا'' مدخولة''.

رفعتِ الحمامة ''هَديل'' رأسَـها وقالت: ''وكما مسـخَ اللهُ أولئك القومَ قردةً خاسـئين، فإنه قـد يمســـخُ قلوبَ هؤلاءِ المتحـايلين، فيجعلهـا كقلوبِ البهـائم لا تعرفُ معروفًا ولا تنكرُ منكرًا، هذا هو المسـخُ المعنوي الذي هو أشـدُّ من المسـخِ الجسـدي، فتصـبحُ قلوبُهم لا تؤمنُ بالله، ولا ترجو ثوابَه، ولا تخافُ عقابَه، وكأنهم أنعامٌ بل هم أضلُّ سبيلاً''.

هنا وقف الأســد ''هَزْبَر'' وقال بجلال: ''يا سُــلافة، لقد نبهتنا إلى خطرِ الســكوتِ عن المنكر، فكيف لنا أن ننجوَ من هذا الداءِ العضال؟''.

أجابت ‘‘سُـــلافة’’: ‘‘يا هَزْبَر، إن النجاةَ تكونُ بالأمرِ بالمعروف والنهيِ عن المنكر، كما فعلتِ الفرقةُ المؤمنةُ الناجية، من رأى منكرًا فليغيِّره بيده إن اســـتطاع، فإن لم يســـتطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، ومن سكتَ عن الحقِّ وهو قادرٌ على قولِه، فهو شريكٌ في الإثمِ مع الفاعلين. وقد قال النبيُّ ﷺ: ‘‘مَن رَأَى مِنكُم مُنكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فإِنْ لَمْ يَسْـتَطِعْ فَبِلِسَـــانِـهِ، فـإِنْ لَـمْ يَسْـــتَطِعْ فَبِقَلْبِـهِ، وَذَلِـكَ أَضْـــعَفُ الإِيـمَـانِ’’ [رواه مسلم]’’.

الفصل الخامس عشر

في جحود بني إسرائيلَ وعنادِهم

تحتَ السدرةِ العتيقة: صمتُ التساؤلِ وفضولُ الثعلب

ما إن انتهتِ السُّلحفاة ''سُلافة'' من قصةِ أصحابِ السبتِ وما جرى لهم من مسخٍ وتحويلْ، حتى ساد المجلسَ صمتٌ عميقٌ كصمتِ الليلِ في ليلةِ الأفولْ، كانت الحيواناتُ تتأملُ في مصيرِ الأقوامِ التي تحايلت على أمرِ اللهِ فكانت عاقبتُها الخزيَ والويلْ.

لكن الثعلب ''حِيَل''، الذي لا يشبعُ من القصصِ والعبر، ولا يهدأُ له بالٌ حتى يقتنصَ من كلِّ حكايةٍ درر، قال بصوتٍ فيه من الفضولِ ما فيه من اللهفةِ والحذر: ''يا سُلافةُ، يا حكيمةَ الغابِ ويا راويةَ الأسفارْ، لقد رويتِ لنا عن أقوامٍ أهلكهم اللهُ بأنواعِ العذابِ والنكالْ، ولكنّي أتساءلُ عن هؤلاء القوم، كانوا مع نبيٍّ كريم، ورأوا الآياتِ الباهرةَ بأمِّ العين، ثم عادوا إلى الجحودِ والعنادِ في كلِّ حين، أخبرينا عن بني إسرائيلَ مع نبيهم موسى الكليم''.

بدايةُ الحكاية: نعمٌ لا تُحصى وجحودٌ لا يُوصف

نظرتِ السُّلحفاة ''سُلافة'' إلى الثعلب نظرةً فيها من الأسى ما فيها، وقالت بصوتٍ يقطرُ حزناً وتألماً: ''لقد سألتَ يا ''حِيَل'' عن قصةٍ هي من أعجبِ القصص، وعن قومٍ جمعوا من الخبثِ ما لم يجمعهُ بشر، إنهم بنو إسرائيل، الذين أنعم اللهُ عليهم بنعمٍ لا تُعدّ ولا تُحصى، فقابلوها بالكفرِ والجحودِ والعصيان، وآذوا نبيَّهم أذىً لا يطاق، ووقفوا منه مواقفَ تدمي القلوبَ وتُبكي العيون''.

قاطعها القرد ''صَفْصَف'' من فوق غصنِه المتأرجح: ''أليسوا هم قومَ موسى الذين أهلك اللهُ بهم فرعونَ وجنودَه؟ أفلا يكونون شاكرين لهذه النعمة؟''.

أجابت ''سُلافة'' بأسى: ''بل هم هم يا صَفْصَف، لقد أنجاهم اللهُ من فرعونَ وجبروتِه، وأغرقَ عدوَّهم أمامَ أعينهم، ثم أورثهم الأرضَ المباركة. ولكن ما إن جاوزوا البحرَ حتى بدأ العجبُ العجاب''.

الموقف الأول: طلبُ الأصنام بعد رؤيةِ الآيات

تابعت ''سُلافة'' بصوتٍ يعلو ويهبط: ''بعد أن عبروا البحرَ سالمين، وابتلعَ اليمُّ فرعونَ وجنودَه أجمعين، مروا على قومٍ يعكفون على أصنامٍ لهم يعبدونها من دونِ الله. فماذا كان منهم؟''.

صاحَ الذئب ''نَاب'' بدهشة: ''لا تقولي إنهم تأثروا بهم!''.

قالت ''سُلافة'': ''بل قالوا لموسى -والعياذُ بالله-: ﴿يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ [الأعراف:138]. تخيلوا يا أهلَ الغاب، بعد كلِّ هذه المعجزاتِ الباهرة، وبعد أن رأوا بعيونِهم شقَّ البحرِ وغرقَ الطغاة، يطلبون إلهاً من صنعةِ البشر!''.

هنا تدخل البوم ''بَصير'' بحكمته: ''إنها طبيعةُ البشرِ إذا ضعفَ إيمانُهم، مالوا إلى ما يرونَ بأعينِهم من أصنامٍ مادية، ونسوا ربَّهم الذي لا تراه العيون''.

أكملت ''سُلافة'': ''فغضبَ موسى غضباً شديداً، وقال لهم: ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [الأعراف:138]. وذكَّرهم بنعمِ اللهِ عليهم، وأن الذي يستحقُّ العبادةَ هو اللهُ وحده لا شريكَ له''.

الموقف الثاني: طلبُ رؤيةِ الله جهرة

واصـــلت ''سُـــلافة'': ''ولم يكتفوا بذلك، بل ذهبوا أبعدَ من هذا الضـــلال، قالوا لموسى عليه السلام بكلِّ وقاحة: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة:55]''.

صـــاحَ الأرنب ''وَجيب'' مرتعداً: ''يا إلهي! أيطلبون رؤيةَ اللهِ في الدنيا؟! ألم يعلموا أنه لا يراه أحدٌ في الدنيا؟''.

أكملت ''سُـلافة'': ''فأخذتهم الصـاعقةُ وهم ينظرون، فماتوا جميعاً، ثم أحياهم اللهُ بعد ذلك رحمةً بموســـى ونبيِّه، لعلهم يشـــكرون، ولكنهم عـادوا إلى عنادِهم وجحودِهم بعد حين''.

الموقف الثالث: عبادةُ العجل في غيبةِ موسى

هنا تدخل القندس ''سَـــدَّاد'' بفضـــول: ''وما قصـــةُ العجلِ التي نســـمعُ عنها يا سُلافة؟''.

أجابت ''سُلافة'' بصوتٍ يملؤه الأسى: ''لما ذهب موسى لمناجاةِ ربِّه في الطور، ووعدهم بثلاثينَ يوماً ثم تمَّت أربعين، اســـتخلف عليهم أخاه هارون، ولكن رجلاً منافقاً يســـمى ''الســـامري'' كان له في الأمرِ شـــأن، جمع ما كان معهم من حُليِّ الذهب، وصـــاغ لهم عجلاً جسداً له خوار، فقال لهم: ﴿هَٰذَا إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ﴾ [طه:88]''.

صاحَ الأسد ''هَزْبَر'' بغضب: ''أيعبدون عجلاً من ذهب بعد كلِّ تلك الآيات؟!''.

استطرادٌ وعظة: العجلُ في كلِّ زمان

هنا توقفت ''سُـــلافة'' قليلاً، ونظرت إلى الحيواناتِ نظرةً عميقة، وقالت بصـــوتٍ يرتفعُ شـيئاً فشـيئاً: ''يا أهلَ الغاب، إن قصـةَ العجلِ ليسـت مجردَ حكايةٍ قديمة، بل هي

صـــورةٌ تتكررُ في كلِّ زمانٍ ومكان، فالعجلُ الذي عبدَه بنو إســـرائيل لم يكن ســـوى رمزٍ للشـــهواتِ والمادياتِ التي تُنســـي الإنســـانَ ربَّه، وكم لنا اليومَ من عجولٍ نعبدها من دونِ الله!''.

سألتِ الغزالة ''رَشاقة'' بفضول: ''وما هي هذه العجولُ يا سُلافة؟ حدثينا نستفد''.

أجابت ''سُـلافة'' بصـوتٍ يجلجل كالوعظ: ''أما رأيتم الناسَ اليومَ كيف عبدوا المالَ حتى صـــار إلههم الأكبر؟ كم من إنســـانٍ يلهثُ وراءَ الدرهمِ والدينار، والســـلطة والنفوذ والجاه، ويتركُ الصلاةَ والعبادةَ والذكر؟ هذا هو عجلُ هذا الزمان!''.

أضـــاف الثعلب ''حِيَل'' بدهائه: ''وكم من الناسِ يلهثون وراءَ الموضـــةِ والماركات، يغيرونَ ملابسَهم كلَّ موسمٍ ليسعدوا، فإذا هم في عبوديةٍ لأصحابِ العلامات!''.

أكملت ''سُـلافة'': ''صـدقتَ يا حِيَل. ترى الفتاةَ تتابعُ أحدثَ صـيحاتِ الموضـة، وتنامُ وتصـــحو على أخبارِ المصـــممين والمشـــاهير، وتشـــتري ما لا تحتاج بثمنٍ غالٍ، هذا هو عجلُها الذي ترقصُ حوله وتعبده!''.

هنا تدخل القرد ''صَـفْصَـف'' بحماس: ''وما رأيكم في أولئك الذين لا يفتحون أعينَهم إلا على هواتفهم؟ يرون الدنيا كلَّها في شاشةٍ صغيرة، ويعبدون مواقع التواصل والألعاب ومتابعة وبث المشاهد المصورة ساعاتٍ طويلة!''.

صاحَ الذئب ''نَاب'' باستهزاء: ''لقد أصبحَ الهاتفُ الذكي إلهَهم الذي يسجدون له صباحَ مساء!''.

أكملت ''سُلافة'' وهي تهزُّ رأسَها أسفاً: ''وكم من شابٍّ وشابّةٍ عبدوا المشاهيرَ والمؤثرين، يقلدونهم في كلِّ صـغيرةٍ وكبيرة، في الملبسِ والمأكلِ والمشـربِ وحتى طريقةِ الكلام، هؤلاء المشاهيرُ هم عجولُ هذا الزمان!''.

أضـافت الحمامة ''هَديل'' بحزن: ''وأصبحَ الشـبابُ يتابعون حياةَ هؤلاء المشـاهيرِ كأنها دينٌ جديد، يعرفون تفاصيلَ حياتهم الخاصة، وينسون ذكرَ اللهِ وعبادتَه''.

تابعت ''سُـلافة'': ''وكم من إنسـانٍ أصـبحت له أصـنامٌ يعبدها من دونِ الله؟ ترى الواحدَ منهم متعلقاً بسيارتِه الجديدة، أو ببيتِه الفخم، أو بمظهرِه الجسـدي، يقضـي السـاعاتِ في صالةِ الرياضةِ ليكونَ جسدهُ مثلَ الأصنام، وينسى أن هذا الجسدَ سيبلى في التراب!''.

صـاحَ الفيل ''خَطَّار'' بصـوتِه الرزين: ''إنها واللهِ عجولٌ كثيرة، لكنها كلها من ذهبِ الدنيا الزائف، وخوارُها هو ضجيجُ الإعلاناتِ ووسائلِ التواصل وحب الشهرة المزيف!''.

أكملت ''سُـلافة'': ''لقد أصـبحَ الناسُ يعبدون المظاهر، كما عبدَ بنو إسـرائيل الظاهر، يركضـون وراءَ ''الإعجابات'' و''المتابعين'' و''المشـاهدات''، ويظنون أن هذه الأرقامَ هي مقياسُ النجاحِ في الدنيا، كم من إنسـانٍ يُفطرُ ويغدو على ذكرِ عددِ متابعيه، وينسـى أن هناك رباً يراه ويحصي عليه أنفاسَه!''.

العودةُ إلى قصةِ العجل

هنا عادت ''سُلافة'' إلى القصةِ الأصلية، وقالت: ''نعم يا أحبتي، لقد عبدوا العجلَ بعد كلِّ الآيات، فلما رجع موسى ورآهم على هذه الحال، ألقى الألواحَ من شـدةِ الغضـب، وأخذ برأسِ أخيه يجره إليه، ثم أحرق العجلَ ونسفَه في اليمِّ نسفاً، وعاقب السامريَّ بأن قال له: ﴿فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ﴾ [طه:97]''.

الموقف الرابع: طلبُ الطعامِ الدنيوي

قاطعتِ الحمامة ''هَديل'' بصـــوتِها الحنون: ''أليس اللهُ قد أنزل عليهم المنَّ والسلوى؟''.

أجابت ''سُـــلافة'': ''بلى. كان اللهُ يظللهم بالغمام، وينزل عليهم المنَّ والســـلوى، طعاماً طيباً لا يحتاجون معه لعناء. ولكنهم ضـاقوا ذرعاً بهذا الطعامِ الإلهي، وقالوا لموسـى بملءِ أفواههم: ﴿لَن نَّصْـــبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ مِن بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا﴾ [البقرة:61]''.

ضحكَ الثعلب ''حِيَل'' ضحكةً ساخرة: ''يا للعجب! يستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير! إنها طبيعةُ النفوسِ التي لا ترضى بما قسم الله لها''.

ربطٌ واقعي: استبدالُ النعمة

أضـــافت ''سُـــلافة'' وهي تنظرُ إلى الجمع: ''وكم من الناسِ اليومَ يســـتبدلون نعمةَ الإســـلامِ بضـــلالِ الغرب، ونعمةَ الحجابِ بموضـــةِ التبرجِ والســـفور، ونعمةَ القرآنِ بأغاني المشـــاهيرِ والمطربين، يســـتبدلون الذي هو خيرٌ بالذي هو أدنى، ثم يندمون حين لا ينفع الندم''.

أكملت ''سُـــلافة'': ''فقال لهم موســـى: ﴿أَتَسْـــتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ ۚ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ﴾ [البقرة:61]. ثم أذن اللهُ لهم بدخولِ مصر، ولكن كانت عاقبتهم أن ضُربت عليهم الذلةُ والمسكنة، وباءوا بغضبٍ من الله''.

الموقف الخامس: قصةُ البقرة والتشديدُ على النفس

هنا تحرك النمر ''أَرْقَط'' بفضـول: ''حدثينا يا سُـلافة عن قصـةِ البقرة التي سـميت باسمها سورةُ البقرة''.

رفعت ''سُـلافة'' رأسَـها وقالت: ''كان في بني إسـرائيل رجلٌ غنيٌّ قتله ابنُ أخيه طمعاً في ميراثه، ثم ألقى جثته في طريقِ قبيلةٍ أخرى وادعى أنهم قتلوه، فاختلفوا وتنازعوا حتى كادوا يقتتلون، فأتوا موسى ليسألوا اللهَ أن يبين لهم القاتل''.

سأل الأرنب ''وَجيب'' ببراءة: ''وكيف عرفوا القاتل؟''.

أكملت ''سُـــلافة'': ''فأوحى اللهُ إلى موســـى أن يأمرهم بذبح بقرة. قال لهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾ [البقرة:67]''.

صاحَ القرد ''صَفْصَف'' ضاحكاً: ''يطلبون معرفةَ القاتل فيؤمرون بذبح بقرة؟! إنها لحكمةٌ عظيمة!''.

أكملت ''سُـلافة'': ''لكنهم –كما هي عادتهم– لم يمتثلوا مباشـرة، بل أخذوا يســألون ويتشـــددون. قالوا: ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾ [البقرة:67]، فردَّ موســـى: ﴿أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾''.

هنا تدخل البوم ''بَصـير'' بحكمته: ''ولو أنهم ذبحوا أيَّ بقرة لأجزأتهم، ولكنهم شـددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم''.

ربطٌ واقعي: التشديدُ في الدين

أضافت ''سُلافة'': ''وهكذا ترونَ الناسَ اليومَ يشددون على أنفسهم في الدينِ بغيرِ علم، فيضيقون ما وسع اللهُ ورسولُه، ترى من يحرمُ الحلالَ بتأويلٍ فاسد، ومن يوجبُ ما لم يوجبِ اللهُ على العباد، ترونهم يكفرون المســلمين، ويقتلون الأبرياء المســالمين، بفهمهم الخاطئ للدين، ولو أنهم اتبعوا الوسطَ الذي جاء به الإسلامُ لكان خيراً لهم''.

الموقف السادس: أذيتهم لموسى عليه السلام

صمتت ''سُلافة'' قليلاً، ثم قالت بصوتٍ خفيض: ''ولم يكتفوا بكلِّ هذا الجحود، بل آذوا نبيَّهم أذىً شخصياً. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا ۚ وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا﴾ [الأحزاب:69]''.

سألتِ الغزالة ''رَشاقة'' بخوف: ''وكيف آذوه يا سُلافة؟''.

أجابت ''سُلافة'': ''كانوا يغتسلون عراة، وكان موسى –عليه السلام– يستحيي فيغتسل وحده، فقالوا: ما يمنع موسى أن يغتسل معنا إلا أنه آدر –أي منتفخ الخصيتين– فاتهموه بالعيب الخلقي، فذهب يغتسل يوماً ووضع ثيابه على حجر، ففرَّ الحجر بثوبه، فخرج موسى يعدو خلفه حتى رآه بنو إسرائيل فإذا هو من أحسنِ الناسِ خَلقاً، فبرَّأه الله مما قالوا''.

ربطٌ واقعي: أذيةُ الصالحين

أضافت ''سُلافة'': ''وكم من الناسِ اليومَ يؤذون الصالحين بالكذبِ والبهتان، ترى الواحدَ منهم إذا رأى رجلاً صالحاً، اتهمه في دينه أو عرضه، وحاول أن ينتقصَ من قدره، كما يشخصون في مسلسلاتهم وبرامجهم بالكذب والزور على أهل الدين، وهذه واللهِ خصلةٌ ذميمةٌ من خصالِ بني إسرائيل''.

الموقف السابع: الجبن ورفض دخولِ الأرض المقدسة

ارتفع صوتُ ''سُلافة'': ''وأعظمُ مواقفهم جبناً وخزياً، حين أمرهم اللهُ بدخولِ الأرضِ المقدسة التي كتبها لهم، بعد أن أهلك الجبارين الذين كانوا فيها، قال لهم موسى: ﴿يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ [المائدة:21]''.

سأل الفيل ''خَطَّار'' باهتمام: ''فماذا كان جوابهم؟''.

أجابت ''سُلافة'' بصوتٍ يقطرُ أسفاً: ''قالوا بكلِّ جبنٍ وخوف: ﴿يَا مُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا﴾ [المائدة:22]''.

صاحَ الأسد ''هَزْبَر'' باستنكار: ''أيخافون من البشر وقد رأوا آياتِ اللهِ في هلاكِ الجبابرة؟!''.

أكملت ''سُلافة'': ''ثم قالوا –وهذا ما لا يُصدق–: ﴿فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ [المائدة:24]''.

صُعقتِ الحيواناتُ من هذا الردِّ الوقح، وعلت أصواتُهم بالاستنكار.

أكملت ''سُلافة'': ''هنا يئس موسى منهم، ودعا ربه: ﴿رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي ۖ فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ [المائدة:25]''.

''فكان العقابُ شديداً: حرم اللهُ عليهم دخولَ الأرضِ المقدسة أربعين سنة، يتيهون في الأرضِ حائرين، لا يهتدون إلى سبيل. قال تعالى: ﴿فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ ۛ أَرْبَعِينَ سَنَةً ۛ يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ [المائدة:26]''.

التيهُ المعاصر

أضافت ''سُلافة'' وهي تنظرُ إلى الجمع: ''وكم من الناسِ اليومَ يعيشون في تيهٍ لا يقلُّ عن تيهِ بني إسرائيل! تراهم يتيهون في متاهاتِ الشهواتِ والشبهات، يركضون وراءَ السرابِ ويظنون أنه الماء، تاهت عقولُهم في متاهاتِ الإلحادِ والشكوك، وتاهت قلوبُهم في حبِّ الدنيا والمنسيات، وتاهت أرواحُهم في غياهبِ المعاصي والموبقات، لا يهتدون إلى سبيلٍ ولا يجدونَ إلى الحقِّ طريقاً''.

وتابعت: ‘‘والإنسانُ المعاصرُ يعيشُ تيهَ مواقع التواصل (السوشيال ميديا) يقضي ساعاتٍ وساعاتٍ يقلبُ الصفحاتِ ولا يزدادُ إلا ضياعاً وتيهاً، يتابعُ حياةَ الآخرين وينسى نفسَه، يلهثُ وراءَ الإعجاباتِ والمشاهداتِ ولا يشبع، هذا واللهِ هو التيهُ بعينه!’’.

الموعظةُ الختامية: دروسٌ من جحودِ بني إسرائيل

نظرت ‘‘سُلافة’’ إلى الحيواناتِ وقد أخذتهم العبرة، وقالت موعظتَها البليغة: ‘‘فيا أهلَ الغاب، انظروا إلى قومٍ رأوا الآياتِ الباهرة، وعاينوا المعجزاتِ النيرة، ثم عادوا إلى الجحودِ والعناد، لقد ضرب اللهُ لنا بهم المثلَ في نكرانِ الجميل، وفي قلَّةِ الوفاءِ مع القليل والكثير، إنهم كانوا كلما رأوا آية، طلبوا آيةً أخرى. وكلما أنعم اللهُ عليهم بنعمة، قابلوه بالكفر والجحود’’.

صاحَ الأسد ‘‘هَزْبَر’’ وقال: ‘‘ فاتعظوا من قصصِ الغابرين، واحذروا من التشبهِ بهؤلاء القوم في سوءِ خلقهم مع أنبيائهم، فإنَّ أذيةَ المؤمنين ذنبٌ عظيم، وأذيةَ الأنبياءِ أعظم، وانظروا إلى أحوالِ الناسِ الآن، كم منهم يشبهون بني إسرائيل في جحودِهم وعنادِهم، ترى الواحدَ منهم تترى عليه النعمُ من كلِّ جانب، فينسى المنعمَ ويجحدُ الفضل، وإذا نصحه ناصح، قال كما قالوا: ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾’’.

وكما طلبوا استبدالَ المنِّ والسلوى بالبقلِ والعدس، ترى الناسَ اليومَ يستبدلون نعمةَ الإسلامِ بالضلال، ونعمةَ الأمنِ بالخوف وهَدمِ البلادِ والدوَل، ونعمةَ الصحةِ بالشهوات، وكما تشددوا في أمرِ البقرةِ فشدد اللهُ عليهم، ترى الناسَ اليومَ يتشددون في دينِ اللهِ بغيرِ علم، فيضيقون على أنفسهم وعلى الناس، ولو أنهم استسلموا لأمرِ اللهِ وسنةِ نبيِّه لوسعهم الإسلامُ برحمتِه’’.

رفعتِ الحمامة ‘‘هَديل’’ رأسَها وقالت: ‘‘وإن أعظمَ ما نتعلمه من قصةِ بني إسرائيل أن نُحسنَ الظنَّ بالله، وأن نرضى بقضائِه، وأن نؤمنَ بنبيِّه، وألا نكونَ من الذين يجادلون في

آياتِ اللهِ بغيرِ سـلطان، ولا من الذين إذا أمروا بشـيءٍ قالوا: ولِمَ؟ وإذا نُهوا عن شـيءٍ قالوا: كيف؟ بـل نسـلمُ للـه تسـليمـاً، ونقول: سـمعنـا وأطعنـا، غفرانـك ربنـا وإليـك المصير".

الفصل السادس عشر

في قصةِ يونسَ ذي النون، وكيفَ نجَّاه اللهُ من ظلماتِ بطن الحوتِ

تحتَ السدرةِ العتيقة: دهشةُ الحيواناتِ من مشهدِ الحوت

كان البحرُ قريباً من الغابةِ يترامى بأمواجِه الزرقاءْ، والنسيمُ العليلُ يحملُ رائحةَ الملحِ والندى في الفضاءْ، كانت الحيواناتُ تجلسُ تحتَ السدرةِ العتيقة كعادتها، تتفيأُ ظلالَ الحكمةِ والعبراتْ، وتتناقلُ أخبارَ الدنيا والحكاياتْ.

وفجأةً، سمعَ الجميعُ صوتاً هائلاً قادماً من البحرْ، صوتَ ارتطامٍ عظيمٍ وموجٍ يتراكضُ كالدهرْ، نظرتِ الحيواناتُ نحوَ البحرِ فإذا به يهتاجُ ويموجْ، والأمواجُ تتلاطمُ كأنها جيوشٌ تخرجُ من البروجْ.

وإذا بحوتٍ عظيمٍ يظهرُ من أعماقِ الماءْ، فاغراً فاهُ كأنه بابُ دارِ الفناءْ، يلتهمُ أسرابَ الأسماكِ بشراهةٍ عجيبةْ، ويقذفُ بها في جوفِه بسرعةٍ رهيبةْ.

صاحَ القردُ "صَفْصَف" من فوقِ غصنِه مرتعباً خائفاً: "يا إلهي! انظروا إلى هذا الحوتِ العظيمْ، كيفَ يبتلعُ الأسماكَ بكلِّ هذا الكرمِ والجُرمِ والأليمْ!".

وقال الأرنبُ "وَجيب" وهو يرتجفُ من الخوفِ والرعبْ: "أيُعقلُ أن يكونَ في البحرِ مثلُ هذا الوحشِ العجيبْ؟ إنه يلتهمُ كلَّ ما يصادفُه بلا رحمةٍ ولا هوادةْ، وكأنَّ البحرَ كلَّه له مادةْ".

أما الحمامةُ "هَديل" فقد أخفتْ رأسَها تحتَ جناحِها خوفاً وجزعاً، وقالت بصوتٍ خافتٍ كالنسماتْ: "يا لهولِ المنظرِ يا إخواني، يا لقسوةِ هذا الحوتِ في الأزماتْ".

هنا، تدخلتِ السُّلحفاةُ "سُلافة" بحكمتها البالغةْ، وقالت بصوتٍ يملؤه الوقارُ والحكمةُ الدافقةْ: "يا أهلَ الغابِ الكرام، لا تخافوا من هذا الحوتْ، فكلُّ مخلوقٍ بأمرِ اللهِ يحيا ويموتْ، هذا الحوتُ الذي ترونه اليومَ في البحرِ العظيمْ، قد كان له شأنٌ عظيمٌ في سالفِ الأزمانِ والقديمْ، أتسمحون لي أن أقصَّ عليكم قصةَ نبيِّ اللهِ يونسَ ذي النونْ، وكيفَ كان هذا الحوتُ سبباً في نجاتهِ بعد أن كان في بطنِه مسجونْ؟".

صاح الجميعُ بحماسٍ وشوقٍ ولهفةْ: "نعم يا سُلافة، حدثينا عن يونسَ والحوتِ العظيمْ، وعن الظلماتِ التي كان فيها كاليتيمْ".

بدايةُ القصة: يونسُ وقومُه في نينوى

بدأت "سُلافة" بصوتٍ يجلجلُ كالرعدِ البعيدْ، وصوتُها يملؤه الحكمةُ والوعيدْ: "يا أهلَ الغابِ الكرام، اسمعوا قصةً هي من أعجبِ القصصْ، وأروعِ العبرِ وأسمى النُّصصْ، إنها قصةُ نبيِّ اللهِ يونسَ بن متى –عليه السلامْ– الذي أرسله اللهُ إلى أهلِ نينوى في أرضِ العراقِ بكلِّ احترامْ، كانوا قوماً يعبدون الأصنامَ والأوثانْ، قد ضلوا عن طريقِ الرحمنِ واتبعوا الشيطانْ".

سأل الأرنبُ "وَجيب" ببراءةٍ وفضولْ: "وكيفَ كانت دعوتُه لهم يا سُلافةُ يا بنتَ الأصولْ؟".

أجابت "سُلافة" بصوتٍ يقطرُ حزناً وعبراتْ: "دعاهم يونسُ عليه السلام إلى عبادةِ اللهِ وحده بلا شريكْ، ونهاهم عن عبادةِ ما لا ينفعُ ولا يضرُّ من ملكٍ أو مملوكْ، وظلَّ ينصحُهم ويدعوهم بالحكمةِ والموعظةِ الحسنةْ، لكنهم قابلوه بالإعراضِ والصدودِ والطغيانِ في كلِّ ساعةٍ وسنةْ".

هنا تدخل الذئبُ ‘‘نَاب’’ بفضـولٍ واستفسـارْ: ‘‘وكم لبثَ فيهم يدعوهم يا تُرى يا حكيمةَ الدارْ؟’’.

أجابت ‘‘سُـلافة’’ بصـوتٍ عميقٍ كهديرِ البحارْ: ‘‘لبثَ فيهم زمناً طويلاً لا يُحصـى، وقيل: ثلاثاً وثلاثين سنةً لا تُستثنى، ومع ذلك، ما آمن معه إلا القليلُ النادرْ، واستمرَّ الأكثرون في كفرهم وضلالهم الفاجرْ’’.

غضبُ النبي: خروجٌ بغير إذن

خفضت ‘‘سُلافة’’ صوتَها قليلاً بأسىً وحنينْ، وقالت بصوتٍ يملؤه الأسفُ والأنينْ: ‘‘وهنا، يا أهلَ الغابةِ الكرام، حدثَ ما لم يكن في الحسـبانْ، ضـاق صـدرُ يونسَ من قومه وامتلأ غضـــباً وامتهـانْ، فقررَ هجرَهم والخروجَ من بين أظهرهم في كلِّ مكـانْ، وأخبرهم أن العذابَ ســـيأتيهم بعد ثلاثةِ أيامٍ وأزمانْ، ثم خرجَ من قريته مغاضـــباً قبل أن يأذنَ اللهُ له بالخروجِ في ذلك الزمانْ، وقبل أن يتبينَ أمرَ قومه ومآلهم في الخسرانْ’’.

صـــاحَ الأســـدُ ‘‘هَزْبَر’’ بحكمةٍ وتدبيرْ: ‘‘إنها العجلةُ يا أحبتي، والعجلةُ من الشـــيطانِ المغرور، كان على يونسَ –عليه السـلام– أن يصـبرَ كما صـبرَ غيرهُ من الأنبياءِ والرسـلِ في الأمورْ، وأن ينتظرَ أمرَ اللهِ في السراءِ والضرورْ’’.

أكملت ‘‘سُـلافة’’ بصـوتٍ خفيضٍ كالنسـماتْ: ‘‘نعم يا هَزْبَر، وقد وصـفه اللهُ في كتابه العزيزْ بأنه كان من الآبقينَ، قال تعالى في محكمِ التنزيلْ: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ [الصافات:139-140]’’.

في طريقِ البحر: السفينةُ والقرعة

واصلت ''سُلافة'' بصوتٍ مشوقٍ جذابْ: ''سار يونسُ عليه السلام حتى وصلَ إلى شاطئِ البحرِ العجابْ، فوجدَ سفينةً راسيةً تستعدُّ للإبحارِ والذهابْ، فركبها مع الركابِ والمسافرينْ، وأبحروا في وسطِ البحرِ آمنينْ''.

وفجأةً، هاجتِ الرياحُ وتعالتِ الأمواجُ كالجبالْ، وكادتِ السفينةُ أن تغرقَ في ذلك الحالْ، فقال الملاحونَ وهم في ذهولْ: إن في السفينةِ عبداً آبقاً من سيده يا أهلْ، ولا بدَّ من إلقائهِ في البحرِ لتنجوَ السفينةُ ومن فيها يا أبطالْ.

سأل القردُ ''صَفْصَف'' بحماسٍ وفضولْ: ''وكيفَ عرفوا أنه هو يا تُرى في تلك الأصولْ؟''.

أجابت ''سُلافة'' بصوتٍ رهيبْ: ''اتفقوا على أن يقترعوا يا صديقي الحبيبْ، فمن خرجتْ قرعتُه ألقوه في البحرِ الرهيبْ، فأجروا القرعةَ الأولى فخرجتْ على يونسَ النبيِّ النجيبْ، فأعادوها الثانيةَ فخرجتْ عليه شيء عجيبْ. فأعادوها الثالثةَ فخرجتْ عليه بلا مغيبْ. فعلم يونسُ –عليه السلام– أن هذا أمرُ اللهِ الحكيمْ، وأنه لا مفرَّ من قضائهِ القديمْ''.

اللحظةُ الحاسمة: يونسُ في اليم

صمتت ''سُلافة'' قليلاً بخشوعٍ وإيمانْ، ثم قالت بصوتٍ خفيضٍ بلا نسيانْ: ''وقف يونسُ على حافةِ السفينةِ في ذلك الزمانْ، ونظر إلى البحرِ الهائجِ والأمواجِ المتلاطمةِ في كلِّ مكانْ، ثم ألقى بنفسه في اليمِّ يتوكأُ على الرحمنْ، وفي تلك اللحظةِ العصيبةِ الرهيبةْ، كان أمرُ اللهِ قد سبق في الغيوبِ الغريبةْ''.

وفجأةً، تحركَ في الماءِ القريبِ من مجلسِ الغابةْ شيءٌ عظيمٌ هائلٌ عجيبْ، واهتزَّتِ الأرضُ من تحتِ أقدامِ الحيواناتِ الرطيبةْ، وإذا بالحوتِ الضخمِ الذي رأوه من قبلْ، يظهرُ من بينِ

الأمواجِ برأسِه الضخمِ والعيونِ الواسعةِ كالخيلْ، وقال بصوتٍ عميقٍ يخرجُ من أعماقِ البحرِ المهيبْ:

شهادةُ الحوت: أنا الحوتُ الذي ابتلعَ النبي الكريم

''يا أهلَ الغابةِ الكرام، اسمعوني يا أحبابْ، فأنا لستُ مجردَ حوتٍ عابرٍ في الماءِ العجابْ، بل أنا الحوتُ الذي ابتلعَ نبيَّ اللهِ يونسَ –عليه السلام– بأمرِ ربِّه القادرِ الوهابْ''.

صاحتِ الحيواناتُ مذعورةً ومندهشةْ، وتقدمَ الفيلُ ''خَطَّار'' بحذرٍ وقلقٍ وعَطَشةْ: ''أنت؟! حدثنا يا "لُجَي"، كيفَ كان الأمرُ في تلك الحادثةْ؟ وكيفَ التقمتَ النبيَّ في تلك الفترةْ؟''.

أجاب الحوتُ بصوتٍ عميقٍ مهيبْ، وصوتُه كالرعدِ في الغيوبْ: ''في ذلك اليومِ العظيمِ المشهودْ، بينما كنتُ أسبحُ في أعماقِ البحرِ والسدودْ، وإذا بأمرِ اللهِ يأتيني بلا مزيدْ؛ أنِ التقطْ يونسَ عبدي الصالحْ، ولا تؤذِه ولا تكسرْ له عظماً في الجارحْ، ولا تأكلْ له لحماً ولا تُدمِ له جارحْ، فانطلقتُ مسرعاً كالسهمِ في الفضاءْ، وإذا بي أرى جسدهُ يهوي في الماءِ كالضياءْ، فالتقمتهُ بفمي بلطفٍ وإحسانْ، وأوحى اللهُ إليَّ أن أطويَ به في بطني وأجوبَ به البحارَ في كلِّ مكانْ''.

سأل النمرُ ''أَرْقَط'' بدهشةٍ وفضولْ: ''وكيفَ كان يونسُ في بطنك يا لُجَي؟ وكيفَ عاشَ في تلك الظلماتِ الطوالْ؟''.

أكمل الحوتُ بصوتٍ خاشعٍ باكْ، وصوتُه يقطرُ حزناً وأشواقْ: ''كان في بطنِي يا أحبتي في ظلماتٍ ثلاثْ: ظلمةُ الليلِ، وظلمةُ البحرِ، وظلمةُ بطنِ الحوتِ في ذلك الغراسْ، لكن العجبَ العجيبَ يا إخوانْ، أني كنتُ أسمعُه يسبحُ اللهَ ويذكرهُ في كلِّ أوانْ، كنتُ أسمعُ

تسـبيحَه في أحشـائي، ونورَه في ظلمائيْ، فكان ذلك التسـبيحُ نوراً يضـيءُ ظلمتي، وراحةً تملأُ في تلك الأنحاءِ وحشتي''.

تسبيحُ يونس: دعاءُ الكرب

رفع الحوتُ صوتَه بخشوعٍ وإيمانْ، وصوتُه يملؤه الخشوعُ والحنانْ: ''كان يرددُ في الظلماتِ قولَه العظيمْ، الذي صارَ دعاءَ المكروبينَ في كلِّ الوجودِ والقديمْ: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء:87]''.

بكتِ الحمامةُ ''هَديل'' وقالت بحزنٍ وأســـى: ''يا إلهي! أيُّ دعاءٍ هذا العظيمْ؟ إنه دعاءُ المعترفِ بذنبهِ التائبِ إلى ربِّه الحليمْ''.

أكمل الحوتُ بصـــوتٍ يفيضُ إعجاباً وتقديرْ: ''وكان من عجيبِ ما رأيتُ في تلك الأيامْ، أن دوابَّ البحرِ والحيتانَ كانت تسمعُ دعاءَه فتُسبِّحُ معه بلا كلامْ، وكأنَّ الخلقَ كلَّه يشاركُه التسبيحَ والاستغفارْ، ويشهدُ له بالقبولِ في ذلك الدارْ''.

سأل الثعلبُ ''حِيَل'' بذكاءٍ وفطنةْ: ''وكم لبثَ في بطنك يا لُجَي وأنت تدور به في أعماق البحار؟''.

أجاب الحوتُ بصـــوتٍ عميقٍ رزينْ: ''لم أكن أعد الأيام، لكن ربما ثلاثةُ أيامٍ أو ســـبعةْ، وربما أربعون يوماً معتدة. واللهُ أعلمُ بالمدةِ، لكن اللهَ استجابَ دعاءَه بكلِّ دقةْ، فأمرني أن أخرجَه إلى الشـاطئِ فلفظته سـقيماً ضـعيفاً هزيلاً، قد ذهبَ لحمُه وجلدُه من أثرِ الظلماتِ والويل''.

خروجُ يونس: شجرةُ اليقطين

واصل الحوتُ حديثَه بصوتٍ شجيٍ حزينْ: ''فلما نبذتهُ بالعراءِ وهو سقيمْ، أنبتَ اللهُ عليه شـــجرةً من يقطينْ، وهي شـــجرةُ القرعِ ذاتِ الظلالِ الوارفةْ، كانت تظلُّه من الشـــمسِ

وتحميه من الذبابِ في تلك الأطرافِ المترفةْ، وكان يأكلُ من ثمارها حتى عادت إليه عافيتهْ، ثم عاد إلى قومه فوجدهم قد آمنوا كلهم وأطاعوه".

أكملت "سُلافة" بعد أن شكرتِ الحوتَ على شهادتِه الصادقةْ، وقالت بصوتٍ يملؤه الفرحُ والبركةِ الدافقةْ: "بعد أن خرج يونسُ من قريته مغاضباً في تلك الحالْ، رأى قومُه أماراتِ العذابِ وأدركوا أنهم كانوا في ضلالْ، فخرجوا إلى رؤوسِ الجبالِ يبكونَ ويتضرعونْ، وفرقوا بين كلِّ والدةٍ وولدها من الحيوانِ وهم يصرخونْ، ثم تضرعوا إلى اللهِ وبكوا وتابوا توبةً صادقةْ، فقبلَ اللهُ توبتهم وكشفَ عنهم العذابَ في تلك البقعةِ الصادقةْ".

عودةُ يونس: لقاءٌ بعد الإيمان

تابعت "سُلافة" بفرحٍ وابتهاجْ: "فلما عاد يونسُ إلى قومه بعد أن شفاه اللهُ من ذلك العذابْ، وجدهم قد نبذوا عبادةَ الأصنامِ وأنابوا إلى اللهِ توابْ، فمكثَ فيهم يعلمُهم ويرشدهم إلى طريقِ الصوابْ، وكانوا مائةَ ألفٍ أو يزيدونَ من الأعرابْ".

الموعظةُ الختامية: العبرةُ من قصةِ يونس

نظرت "سُلافة" إلى الجميعِ نظرةً عميقةْ، وقالت موعظتَها الرقيقةْ: "يا أهلَ الغاب، انظروا كيفَ نصرَ اللهُ يونسَ على البلاءْ، وكيفَ أخرجهُ من الظلماتِ إلى النورِ والضياءْ، لقد خرجَ مغاضباً فابتلعه الحوت، فدعا ربهُ في الظلماتِ فاستجاب له خالق الملكُوت، فاتعظوا يا أحبتي من قصةِ يونسَ ذي النونْ، فالعجلةُ تندمُ والصبرُ مفتاحُ الظفرْ، والعبدُ إذا أذنبَ ثم تابَ توبةً صادقةً تابَ اللهُ عليه وغفرْ".

رفعتِ الحمامةُ "هَديل" رأسَها وقالت وقد رأت في عيونِ الحاضرينَ شغفَ المعرفةْ: "انظروا في هذا الزمانْ؛ كم من مكروبٍ يظنُّ أن لا فرجَ له في الأكوانْ، فإذا هو يخرجُ من كربته كما خرجَ يونسُ من بطنِ الحوتِ في كلِّ مكانْ، وكم من عَجولٍ يندمُ على عجلته،

كما ندمَ يونسُ على خروجهِ من قريتهِ، قبل أن يأذنَ له الرحمنْ، وكم من تائبٍ يقبلُ اللهُ توبته كما قبِلَ توبةَ أهلِ نينوى في ذلك الزمانْ''.

ثم التفتَ الحوتُ ''لُجَي'' إلى الجميعِ بصـــوتٍ عميقٍ حنونْ: ''يا أهلَ الغابةِ الكرام، لقد تشـرفتُ بحملِ نبيّ اللهِ في بطني أياماً متتاليات، وسـمعتُ تسـبيحَه في الظلماتِ، فكان ذلك أعظمَ شـرفٍ نلته في كلِّ السـنوات، فمن سبَّحَ اللهَ في الظلماتِ فرَّجَ اللهُ عنه كرباتِه، ونجَّاه من شدائدهِ وآتاه حسناتِه''.

ثم عادَ الحوتُ إلى الماءِ وغاصَ في الأعماقِ الســحيقةْ، والجميعُ ينظرون إليه بإجلالٍ وإكبارٍ وتحقيقةْ.

وتفرقوا في أمانِ اللهِ ورعايتِه وحفظِه ورحمتِه، وكلٌّ يحملُ في قلبِه دروسَ قصـــةِ يونسَ ذي النونْ، الذي نجا من الظلماتِ بالتســبيحِ والاســتغفارْ، وعاد إلى قومه بعد أن آمنوا به وأطاعوه.

الفصل السابع عشر

قصة داودَ وسليمانَ عليهما السلام، وكيفَ آتاهما اللهُ الحكمةَ والملكَ العظيم والإنعام

تحتَ السدرةِ العتيقة: صمتُ الترقبِ وسؤالُ الحمامة

ما إن انتهتِ السُّلحفاة "سُلافة" من قصةِ يونسَ ذي النون، ونجاتِه من بطنِ الحوتِ بالدعاءِ والتسبيحْ، حتى ساد المجلسَ صمتٌ مليءٌ بالتأملِ والتدبرِ والتصحيحْ، كانت الحيواناتُ تتأملُ في رحمةِ اللهِ الواسعة، كيفَ تداركَ عبدهُ بالنعمةِ بعد أن ألقاهُ في الظلماتِ الوجيعة.

وفجأةً، رفعتِ الحمامة "هَديل" رأسَها برشاقةٍ وحنين، وقالت بصوتٍ يفيضُ شوقاً وإيمانا:

"يا سُلافةُ، يا حكيمةَ الغابِ ويا راويةَ الزمانْ، لقد قصصتِ علينا قصصَ الأنبياءِ الكرام، فهل لنا أن نسمعَ قصةَ نبيَّيِ اللهِ داودَ وسليمان، هذين الملكينِ النبيين، اللذين آتاهما اللهُ الحكمةَ وفصلَ الخطاب، وسخرَ لهما الجبالَ والطيرَ والإنسَ والجنَّ والرياحَ والأسباب؟".

هنا تداخلت أصواتُ الحيواناتِ بالحماسِ والشوق:

قال الثعلب" حِيَل" بدهائه: نعم يا سُلافة، حدثينا عن داودَ الذي ألانَ اللهُ له الحديد.

وزأر الأسد" هَزْبَر" بفضول: وعن سليمانَ الذي كان يفهمُ منطقَ الطيرِ والحيوان.

وصاحَ الفيل" خَطَّار" بإعجاب: وعن ملكهِ الذي لم يعهدْ له مثيلٌ في الأكوان.

ابتسمت "سُلافة" ابتسامةَ من يحملُ في جعبته كنوزاً من الحكايات، وقالت بصوتٍ يجلجلُ بالحكمةِ والبيان:

بدايةُ القصة: داودُ النبيُّ الملك

"يا أهلَ الغابِ الكرام، اســمعوا قصــةً هي من أعجبِ القصــص، وأروعِ العبر، إنها قصــةُ نبيَّيِ اللهِ داودَ وسـليمانَ -عليهما السـلام- كان داودُ -عليه السـلام- رجلاً صـالحاً، آتاه اللهُ الملكَ والنبوةَ معاً، فكان أولَ من جمعَ اللهُ له بين الملكِ والنبوةِ من بني إســرائيل. قال تعالى: ﴿وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ﴾ [البقرة:251]".

سأل الأرنب "وَجيب" ببراءة: "وما هي الحكمةُ التي آتاه اللهُ إياها؟".

علمُه وفصلُ الخطاب

أجابت "سُلافة": "آتاه اللهُ علمَ القضاءِ وفصلَ الخطاب، فكان يحكمُ بين الناسِ بالعدلِ والحق، ومن أشهرِ قصصِ حكمه، قصةُ الحرثِ الذي نفشت فيه غنمُ القوم".

أكملت "سُلافة": " وكان داودُ عليه السلام من أحسنِ الناسِ صوتاً في التسبيح، وكانت الجبالُ والطيرُ تسبحُ معه إذا سبح. قال تعالى: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِـيِّ وَالْإِشْرَاقِ * وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص:18-19]".

الجبالُ والطيرُ تسبح: شهادةٌ من الجبال

هنا، تحركَ في الأفقِ البعيدِ ظلُّ جبلٍ شــامخ، واهتزَّتِ الســدرةُ من أعماقِ الأرض، وإذا بصوتٍ عميقٍ يخرجُ من باطنِ الجبال، صوتٍ يسبحُ اللهَ ويحمده.

صاحتِ الحيواناتُ مذعورةً ومندهشة: "ما هذا الصوتُ العظيم؟!".

فتزلزل الجبل "شَــامِخ" -وكان من أقدمِ جبالِ الأرض- وقال بصــوتٍ يجلجلُ كالرعدِ في الفضـاء: "يا أهلَ الغابة، أنا جبلٌ من تلك الجبالِ التي سـخرها اللهُ مع داودَ للتسـبيح، لقد

كنّا نُسبِّحُ معه إذا سبح، ونُهلِّلُ معه إذا هلل، وكان صوته العذبُ يهزُّ أركانَنا، فتتجاوبُ معه أصداؤُنا في كلِّ وادٍ وسهل. قال تعالى: ﴿يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ﴾ [سبأ:10]".

قصةُ الحرث: حكمُ داودَ وسليمان

صاحَ الذئب "نَاب" بفضول: "وما قصةُ الحرثِ والغنمِ يا سُلافة؟".

أجابت "سُلافة" بتفصيل: "جاء رجلان إلى داودَ عليه السلام يختصمان: أحدهما صاحبُ حرثٍ (أرضٍ مزروعة) قد نبتت عناقيدُها، والآخر صاحبُ غنم. فشكا صاحبُ الحرث أن غنمَ الآخرِ نفشت في حرثه ليلاً، فأكلتْ ما فيه من عنبٍ وزرعٍ وأفسدته. فقضى داودُ -عليه السلام- بأن تكونَ الغنمُ كلُّها لصاحبِ الحرث، تعويضاً له عما أفسدتْ".

هنا تدخل البوم "بَصير" بحكمته: "هذا حكمٌ عادلٌ في الظاهر، لكن اللهَ ألهمَ سليمانَ حكماً آخرَ كان أرفقَ وأحكم".

أكملت "سُلافة": "نعم يا بصير، فلما سمع سليمانُ -وكان غلاماً يافعاً- بهذا الحكم، قال: لو وليتُ أنا الأمرَ لقضيتُ بغير هذا، فعلمَ أبوه داودُ -عليه السلام- بذلك، فدعاه وقال: كيف تقضي بينهما يا بني؟ قال سليمان -عليه السلام-: أدفعُ الغنمَ إلى صاحبِ الحرث، فيكونُ له نسلُها وصوفُها وألبانُها ومنافعُها، ويبذرُ صاحبُ الغنمِ لأهلِ الحرثِ مثلَ حرثهم، فإذا عاد الحرثُ كما كان، ردَّ صاحبُ الحرثِ الغنمَ إلى صاحبها. فعجبَ داودُ من حكمه، وقال: أنت قضيتَ بها يا بني. قال تعالى: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ ۚ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [الأنبياء:79]".

صاحَ القرد "صَفْصَف" بإعجاب: "يا له من حكمٍ عادل! لقد راعى مصلحةَ الطرفين معاً".

داودُ والحديد: معجزةُ الإلانة

تابعت ''سُلافة'': ''ومن نعمِ اللهِ على داودَ عليه السلام، أنه ألانَ له الحديدَ، فكان يعملُ منه الدروعَ والصـــناعات. قال تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَـنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِـنَكُم مِّن بَأْسِكُمْ﴾ [الأنبياء:80]''.

سأل النمر ''أَرْقَط'' بدهشة: ''كيفَ كان يعملُ الحديدَ بلا نارٍ ولا آلات؟''.

أجابت ''سُـلافة'': ''كان الحديدُ في يديه كالعجين، يشـكله كيف يشـاء، لا يحتاجُ إلى نارٍ ولا مطرقة، وكان يصـنعُ منه الدروعَ المُسَـرَّدَة، وهي دروعٌ من حلقاتٍ متداخلة، خفيفةٌ على الجسم، قويةٌ في الدفاع، وقد علَّمَ الناسَ هذه الصنعةَ رحمةً بهم ''.

وفاةُ داودَ ووراثةُ سليمان

خفضت ''سُـلافة'' صوتَها قليلاً: ''وبعد حياةٍ حافلةٍ بالعبادةِ والملكِ والنبوة، قبضَ اللهُ داودَ –عليه السـلام–، وكان سـليمانُ –عليه السـلام– قد ورثَ من أبيه الملكَ والعلمَ والحكمة، ودعا ربه دعاءً عظيماً، قال: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّن بَعْدِي ۖ إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾ [ص:35]''.

سأل الفيل ''خَطَّار'' باهتمام: ''فماذا أعطاه اللهُ من الملكِ العظيم؟''.

أجابت ''سُـلافة'': ''اسـتجابَ اللهُ له، فسـخرَ له الريحَ تجري بأمره رخاءً حيث أصـاب، وسخرَ له الجنَّ يعملون بين يديه بإذن ربه، وسخَّرَ له الشياطينَ تغوصُ له في البحرِ وتخرجُ اللآلئَ والجواهر، وعلمه منطقَ الطيرِ والحيوان، وكان له بسـاطٌ عظيمٌ يحملُه وجنودَه من الإنسِ والجنِّ والطير، تقطعُ به الريحُ المسافاتِ البعيدة في زمنٍ قياسي''.

تفقدُ الطير: قصةُ الهدهد

رفعت ''سُلافة'' صوتَها بحماس: ''وكان سليمانُ -عليه السلام- إذا جلس على كرسيه، جاءتِ الجنُّ والإنسُ والطيرُ فاصطفوا حوله، وكان لكلِّ طيرٍ مكانُه المقرر، وفي يومٍ من الأيام، تفقدَ سليمانُ الطيرَ فلم يرَ الهدهد، فغضبَ وقال: ﴿مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ * لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ [النمل:20-21]''.

هنا، سمعَ الحاضرون صوتَ حفيفِ أجنحةٍ من بعيد، وإذا بطائرٍ جميلٍ ذي تاجٍ أخضر وريشٍ ملوَّن، يهبطُ بينهم برشاقةٍ وخجل، إنه الهدهد ''تُوجَان''.

صاحَ الثعلب ''حِيَل'' مندهشاً: ''تُوجَان! لقد جئتَ في وقتِ القصة!''.

شهادةُ الهدهد: أنا الهدهدُ الذي غابَ بعلمِ الله

تقدمَ الهدهد ''تُوجَان'' بصوتٍ نديٍّ جميل، وقال: ''يا أهلَ الغابةِ الكرام، أنا ذلك الهدهدُ الذي غابَ عن مجلسِ سليمانَ -عليه السلام- بإذنِ الله، لا بمعصيتِه ولا بنسيان، ذهبتُ أستطلعُ الأخبارَ لأجلِ نبيِّ الله، وإذا بي أقعُ على خبرٍ عظيم، في أرضِ سبأَ باليمن، وجدتُ امرأةً تملكُهم، أوتيتْ من كلِّ شيءٍ، ولها عرشٌ عظيم، يقال لها ''بلقيس''، لكنها وقومُها يسجدون للشمسِ من دونِ الله، وقد زينَ لهم الشيطانُ أعمالهم فصدهم عن السبيل''.

رفع الهدهدُ صوتَه بخشوع: ''فلما عدتُ إلى سليمان، خفتُ من عقابه، لكني قلتُ بثقةِ من أيقنَ أنه على حق: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ [النمل:22]''.

سأل القرد ''صَفْصَف'' بحماس: ''فماذا فعل بك سليمانُ؟ هل عفا عنك؟''.

أجاب الهدهد: ''نعم يا صَفْصَف، فقد قال سليمان –عليه السلام–: ﴿سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [النمل:27]، ثم كتبَ كتاباً وأعطانيه، وأمرني أن أذهبَ به إلى بلقيس وقومها، وألقيه إليهم ثم أتولى عنهم فأنظر ماذا يرجعون ويفعلون، ففعلتُ، وألقيتُ الكتابَ في مخدعِ الملكة، ثم تنحيتُ أرقبُ ما سيكون''.

رسالةُ سليمان إلى بلقيس

أكملت ''سُـــلافة'' بعد شـــهادةِ الهدهد: ''فلما قرأت بلقيسُ الكتابَ، جمعتْ أشرافَ قومها وقالت: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ * إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ * أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ [النمل:29-31]''.

سأل النمر ''أَرْقَط'': ''فكيفَ كان ردُّ قومها؟''.

أجابت ''سُلافة'': ''قالوا لها: ﴿نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾ [النمل:33]. فكانت امرأةً حكيمةً، فأرســلتْ هديةً عظيمةً إلى ســليمان، لترى كيف سيتصرف، فلما وصلتِ الهدية، رفضها سليمان وقال: ﴿أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾ [النمل:36]''.

العفريتُ ومن عنده علمُ الكتاب

ارتفع صوتُ ''سُلافة'' بتشويق: '' قال سليمانُ لجنوده: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ [النمل:38]''.

هنا، سمعَ الحاضرون هديراً قوياً، وإذا بعفريتٍ من الجن يخرجُ من تحتِ الأرض، بصوتٍ أجشَّ قوي، وقال بفخر: ''أنا العفريتُ القويُّ الأمين، أنا الذي عرضتُ على سليمان –عليه السلام– أن آتيَه بعرشِ بلقيس قبل أن يقومَ من مقامه، قلتُ له: ﴿أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ

مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ﴾ [النمل:39]. وكنتُ صادقاً في عرضي، قادراً على حملِ هذا العرشِ العظيم من اليمن إلى الشام في ساعاتٍ معدودة".

ثم تقدمَ رجلٌ آخر، نورانيُّ الوجه، بهيُّ الطلعة، وقال بصوتٍ عميق: "كان عندي -بفضلِ ما علمني اللهُ من الكتاب- ما هو أسرعُ من ذلك، قلتُ لسليمان -عليه السلام-: ﴿أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ [النمل:40]، ودعوتُ اللهَ باسمه الأعظم، فإذا العرشُ قد استقرَّ بين يدي سليمان -عليه السلام- في لمحِ البصر".

سأل الأسد "هَزْبَر" بدهشة: "في لمحِ البصر؟! أيُّ سرعةٍ هذه؟!".

أكمل "صاحِبُ العِلْم": "نعم يا هَزْبَر، فالعلمُ الذي يهبه اللهُ لمن يشاء، يفعلُ ما لا تفعلهُ القوةُ وحدها، فلما رأى سليمانُ -عليه السلام- العرشَ مستقراً، قال: ﴿هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ [النمل:40]".

اختبارُ بلقيس: صرحُ الممرد

واصلت "سُلافة": "ثم أمر سليمانُ جنودَه أن يغيروا في عرشِ بلقيس بعضَ الصفات، لينظرَ أتهتدي أم تكونُ من الذين لا يهتدون، فلما جاءت بلقيس، قيل لها: أهكذا عرشك؟ قالت بذكائها وفطنتها: ﴿كَأَنَّهُ هُوَ﴾ [النمل:42]. ثم أدخلها الصرحَ الممردَ من قوارير، وهو قصرٌ عظيمٌ، أرضيتُه من زجاجٍ صافٍ يجري من تحته الماء. فلما رأته حسبته لجةً ماءً، فكشفت عن ساقيها حتى لا تبتل ثيابها، فقال سليمان: إنه صرحٌ ممردٌ من قوارير، فأدركت بلقيس الحقيقة، وقالت: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [النمل:44]".

وادي النمل: النملةُ الحكيمة

هنا، سمعَ الحاضرون حفيفاً خفيفاً تحت أقدامهم، وإذا بنملةٍ صغيرةٍ تتقدمُ برشاقةٍ وحذر، إنها النملة ''نَمُول''.

قالت النملة بصوتٍ رقيقٍ حكيم: ''يا أهلَ الغابة، أتذكرون يومَ مرَّ سليمانُ وجنودُه بوادي النمل؟ كنتُ أنا تلك النملةَ التي نادت قومَها، وحذرتهم من جيشِ سليمان، رأيتُ الجيشَ العظيمَ قادماً، جيشاً من الإنسِ والجنِّ والطير، منظماً يوزعُهم القادةُ في كلِّ ناحية، فخفتُ على قومي أن يحطمهم الجيشُ وهم لا يشعرون. فوقفتُ على صخرةٍ صغيرة، وناديتُ بأعلى صوتي: ﴿يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النمل:18]''.

صاحَ القرد ''صَفْصَف'' بإعجاب: ''يا لها من نملةٍ حكيمة! تخافُ على قومها، وتدعوهم إلى الاحتماء''.

أكملت النملة: ''فلما سمع سليمانُ قولي –وقد فهمه بعلمِ الله– تبسَّمَ ضاحكاً من قولي، وقال: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ [النمل:19]''.

تسخيرُ الريح: شهادةٌ من الهواء

هنا، هبتْ نسمةٌ هوائيةٌ عذبة، وسمعَ الحاضرون همساً خفيفاً في الأرجاء، وإذا بالريح ''نَسِيم'' تتقدمُ بصوتٍ رقيقٍ كالنسمات، قالت الريح: ''وأنا يا أحبتي، كنتُ مسخَّرةً لسليمان بأمرِ الله، كنتُ أحمِلُ بساطَه العظيم، وعليه جيشُه من الإنسِ والجنِّ والطير، أقطعُ بهم المسافاتِ البعيدة في زمنٍ قياسي، غدوِّي مسيرةُ شهر، ورواحي مسيرةُ شهر، قال تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾ [سبأ:12]''.

سأل الفيل ''خَطَّار'' بدهشة: ''وكيفَ كنتِ تحملين هذا الجيشَ العظيم؟''.

أجابت الريح: ''كان لسليمان بساطٌ من خشب، عليه ألفُ ركنٍ، في كلِّ ركنٍ ألفُ بيتٍ، تركبُ فيه الجنُّ والإنس، تحت كلِّ ركنٍ ألفُ شيطانٍ يرفعون البساط، فإذا ارتفع، هببتُ رخاءً بأمره، فأسيرُ به وساروا معي، أُقيلُ عند قومٍ بينه وبينهم شهر، وأُمسي عند قومٍ بينه وبينهم شهر، ولا يدري القوم إلا وقد أظلَّهم سليمانُ بجنوده، وإذا أراد السيرَ السريع، هببتُ عاصفةً قوية، وإذا أراد الراحة، هببتُ رخاءً لينة''.

عينُ القطر: النحاسُ المُذاب

تابعت ''سُلافة'': ''ومن نعمِ اللهِ على سليمان أيضاً، أنه أسالَ له عينَ القطر، وهي عينٌ من نحاسٍ مذابٍ تجري في الأرض، فيأخذون منها ما شاءوا. قال تعالى: ﴿وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ﴾ [سبأ:12]''.

سأل النمر ''أَرْقَط'': ''وما كان يصنعُ من هذا النحاس؟''.

أجابت ''سُلافة'': ''كانت الجنُّ تعملُ له من النحاسِ ما يشاء من محاريبَ وتماثيلَ وقدور، وكانت هذه الآياتُ كلها دليلاً على قدرةِ اللهِ وفضله''.

موتٌ عجيب: وفاةُ سليمان

خفضت ''سُلافة'' صوتَها بأسى: ''ولما قضى سليمانُ أجلَه، أراد اللهُ أن يُريَ الإنسَ والجنَّ أنه لا يعلمُ الغيبَ إلا الله، فمات سليمانُ وهو متكئٌ على عصاه، فظلَّ ميتاً أياماً والجنُّ تعملُ بين يديه، تظنُّه حياً يراقبها، حتى أرسلَ اللهُ دابةَ الأرضِ تأكلُ منسأتَه (عصاه)، فخرَّ على الأرض، فعلمتِ الإنسُ أن الجنَّ لو كانوا يعلمون الغيبَ ما لبثوا في العذابِ المهين''.

صاحَ الذئب ''نَاب'' بدهشة: ''يموتُ ويبقى قائماً أياماً؟! إنها لعبرةٌ عظيمة!''.

أكملت ''سُلافة'': ''نعم يا نَاب. قال تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾ [سبأ:14]''.

الموعظةُ الختامية: العبرةُ من قصةِ داودَ وسليمان

نظرت ''سُلافة'' إلى الجميع، وقالت: ''انظروا كيفَ آتى اللهُ داودَ وسليمانَ –عليهما السلام– من الملكِ والعلمِ والحكمةِ ما لم يؤتِ أحداً من العالمين، ومع هذا الملكِ العظيم، كانا من أكثرِ الناسِ تواضعاً وشكراً لله، فاتعظوا من قصةِ هذين النبيينِ الكريمين، فالملكُ الحقيقيُّ ليس في السيطرةِ على العباد، بل في شكرِ اللهِ على النعم، واستخدامِ هذه النعمِ في طاعته، والعلمُ الحقيقيُّ ليس في كثرةِ المعرفة دون عمل، بل في معرفةِ اللهِ والتقربِ إليه بالعمل والعلم معاً''.

ثم تزلزل الجبل ''شَامِخ'' وقال بصوتٍ عميق: ''يا أهلَ الغابة، تذكروا أن كلَّ شيءٍ في هذا الكونِ يسبحُ بحمدِ الله، فكونوا ممن يسبحون ويذكرون''.

وتقدم الهدهد ''تُوجَان'' وقال: ''وتذكروا أن الصدقَ في التبليغِ هو سبيلُ الأمانة، كما حملتُ رسالةَ سليمان''.

وتقدم العفريت القويُّ وقال: ''وتذكروا أن القوةَ لا تغني عن علم، وأن العلمَ أسرعُ من كلِّ شيء''.

وهبتِ الريحُ ''نَسِيم'' وقالت بهمسٍ عذب: ''وتذكروا أن الطاعةَ لله تجعلُ الرياحَ رخاءً والعيشَ هنيئاً''.

ثم تفرقوا في أمانِ الله، وكلٌّ يحملُ في قلبِه دروسَ قصـــةِ داودَ وســـليمان، الملكينِ النبيين، اللذين جمعا بين الحكمةِ والســـلطان، وبين العبادةِ والعمران، فكانا نعمَ العبدين، إنهما كانا من الأوابين.

الفصل الثامن عشر

في زكريا ويحيى، وابتداءِ أمرِ مريمَ العذراء، وجرائم اليهودِ في كلِّ زمانٍ ومكان

تحتَ السدرةِ العتيقة: خوفُ الحيواناتِ من تقلباتِ الجو

كانت ليلةً عاصفةً في الغابة، والريحُ تعصفُ بالأشجارِ بعنفٍ وجموحْ، والسماءُ تمطرُ بوابلٍ من المطرِ والثلوجِ والرياحِ والجنوحْ، اجتمعتِ الحيواناتُ تحتَ السدرةِ العتيقة تستظلُّ بأغصانها الوارفةْ، وترتجفُ من البردِ في تلك الساعاتِ العارفةْ.

كان القنفذُ "شَوْك" قد كوَّرَ نفسَه كالكرةِ من شدةِ البردْ، والحمامةُ "هَديل" ترفرفُ بجناحيها لتدفئَ صغارَها في ذاك الوهدْ، والفيلُ "خَطَّار" يحمي الصغارَ بجسمه الضخمِ من المطرْ، والأسدُ "هَزْبَر" يزأرُ زئيراً خفيفاً.

صاحَ الثعلبُ "حِيَل" بصوتٍ يرتجفُ من البردْ: "يا إلهي! ما أقسى هذه الليلةَ على قلوبِنا وأجسادنا! لولا هذه السدرةُ العتيقةُ لَهلكنا من البردِ والثلوجِ والطوفانْ".

نظرتِ السُّلحفاةُ "سُلافة" إلى السماءِ الملبدةِ بالغيومْ، وإلى الريحِ التي تعصفُ بكلِّ شيءٍ في الكونِ الرحيبْ، ثم قالت بصوتٍ يفيضُ حكمةً وتأملًا وغموضًا عجيبْ:

"يا أهلَ الغابِ الكرام، إن هذه الليلةَ العاصفةَ تذكرُني بقومٍ عاصفين، كانوا أقسى من هذه الرياحِ وأشدَّ وأعتى، إنهم بنو إسرائيلَ الذين قتلوا الأنبياءَ وأسالوا الدماءْ، وكان لنبيَّي اللهِ زكريا ويحيى –عليهما السلام– معهم قصصٌ تدمي القلوبَ وتُبكي العيونَ وتُذهلُ الأذكياءْ".

صاح الجميعُ بحماسٍ وشوقٍ ولهفةْ: "نعم يا سُلافة، حدثينا عن زكريا ويحيى وعن مريمَ العذراءْ، فقد سمعنا أنهم من آلِ عمرانَ أهلِ الصلاحِ والنقاءْ".

بدايةُ القصة: آلُ عمرانَ وامرأةُ العمران

بدأت ‘‘سُـلافة’’ بصـوتٍ يجلجلُ كالرعدِ البعيدْ، وصـوتُها يملؤه الحكمةُ والوعيدْ: ‘‘يا أهلَ الغابِ الكرام، اسمعوا قصةً هي من أعجبِ القصصْ، وأروعِ العبرِ وأسمى النُّصصْ، إنها قصـةُ آلِ عمرانَ الذين اصـطفاهم اللهُ على العالمينْ، عمرانَ الذي كانت امرأتُه عاقراً لا تلدُ سنينْ، كانت امرأةُ عمرانَ تدعو اللهَ ليلَ نهارْ، أن يهبَ لها ولداً يخدمُ المسجدَ ويتعبدُ في الدارْ’’.

سأل الأرنبُ ‘‘وَجيب’’ بفضولٍ واهتمامْ: ‘‘فماذا كان من أمرها يا سُلافةُ؟’’.

أكملت ‘‘سُـلافة’’ بصـوتٍ يقطرُ إيماناً ويقينْ: ‘‘اسـتجابَ اللهُ دعاءَها وحملتْ، وفرحتْ فرحاً عظيماً وظنتْ أن الجنينَ ذكرٌ كما نذرتْ، لكنها فوجئتْ عندما وضـــعتْ أنها أنثى، فخافتْ ألا يقبلَ اللهُ نذرَها، قالت كما حكى القرآنُ العظيمْ: ﴿رَبِّ إِنِّي وَضَـعْتُهَا أُنثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ﴾ [آل عمران:36]’’.

صاحَ الأسدُ ‘‘هَزْبَر’’ بإعجابٍ وتقديرْ: ‘‘يا لها من أمٍّ صالحةٍ مؤمنةْ، تقدمُ للهِ ما نذرتْه ولو كان أنثى، واللهُ يتقبلُ من المتقينْ’’.

أكملت ‘‘سُـــلافة’’: ‘‘فتقبلها اللهُ بقبولٍ حســـن، وأنبتها نباتاً حســـناً، وكفلها زكريا عليه السـلام، وكان زكريا نبيَّ بني إسـرائيلَ في ذلك الزمانْ، وكان زوجَ خالتها كما قيل في بعضِ البيانْ’’.

زكريا ومريم: كراماتُ الصديقة

واصلت ‘‘سُلافة’’ بصوتٍ يفيضُ نوراً وضياءْ: ‘‘بنى لها زكريا محراباً في المسـجدِ الأقصـــى تعبدُ فيه، وكان لا يدخلُ عليها إلا هو ليطمئنَّ عليها ويطعمها، وكان كلما دخلَ عليها المحرابَ في كلِّ صـــباحْ، يجدُ عندها رزقاً طيباً وفاكهةً غيرَ ما في الأسـواقِ والراحْ،

فاكهةُ الشتاءِ في الصيفِ وفاكهةُ الصيفِ في الشتاءْ، فتساءلَ متعجباً في ذلك الفضاءْ: ﴿يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا﴾ [آل عمران:37]".

صاحتِ الحمامةُ "هَديل" بدهشةٍ وإعجابْ: "يا إلهي! فاكهةٌ في غيرِ أوانها؟! إنها كرامةٌ من الرحمنْ".

أكملت "سُـــلافة": "فقالت مريمُ بكلِّ إيمانٍ ويقينْ: ﴿هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران:37]".

زكريا يدعو ربه: طلبُ الولد

تابعت "سُـلافة" بحماسٍ وتشـويقْ: "وهنا، رأى زكريا -عليه السـلام- هذه الكرامةَ العظيمةَ لمريمْ، فتحركتْ في نفسِه الرغبةُ في الولدِ وإن كان شيخاً هرمْ، فدعا ربه دعاءً خفياً في الظلماتْ، وتضـرعَ إليه في جوفِ الليلِ والغدواتْ. قال كما حكى القرآنُ العظيمْ: ﴿رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا * وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا * يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ [مريم:4-6]".

سـأل القردُ "صَـفْصَـف" بفضـولٍ وحماسْ: "فهل اسـتجابَ اللهُ دعاءَه يا تُرى في تلك الأنحاءْ؟".

بشارةُ الملائكة: يحيى اسمٌ عجيب

ارتفع صـوتُ "سُـلافة" بخشـوعٍ وإيمانْ: "استجابَ اللهُ دعاءَه واستجابْ، وبينما هو قائمٌ يصـــلي في المحرابْ، نادته الملائكةُ بالبشـــرى العظيمةِ العجابْ: ﴿يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا﴾ [مريم:7]".

صاحَ الفيلُ "خَطَّار" بدهشةٍ واستغرابْ: "اسْمُهُ يَحْيَى؟! ولماذا هذا الاسمُ العجيبْ؟!".

أجابت ''سُـلافة'' بحكمةٍ وتدبيرْ: ''لأن اللهَ أحياه بالإيمانِ وجعله نبيّاً في الصـغرْ، ولأنه سيحيا حياةً طاهرةً زكيةً تملؤها العبرْ، وكان هذا الاسمُ جديداً لم يُسمَّ به أحدٌ من البشرْ''.

صفاتُ يحيى عليه السلام

تابعت ''سُلافة'' بصوتٍ يفيضُ فخراً واعتزازْ: ''وذكرت له الملائكةُ صفاتٍ خمساً في تلك الآيةِ الكريمةْ، فقالت: ﴿مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ [آل عمران:39]''.

سأل النمرُ ''أَرْقَط'' بفضولٍ واستفسارْ: ''وما معنى هذه الصفاتِ الجليلةِ يا سُلافةُ يا بنتَ الأبرارْ؟''.

أجابت ''سُـلافة'' بصـوتٍ يملؤه البيانْ: ''أما (مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ) فتعني أنه سـيؤمنُ بعيسى ابنِ مريمَ ويصدقُ به، وكان يكبرُه بستةِ أشهرْ، وأما (سَيِّدًا) فتعني أنه سيكونُ سيداً في قومه في العلمِ والعملْ، وأما (حَصُورًا) فتعني أنه عفيفٌ عن الشـهواتِ لا يقربُ النسـاءَ تفرغاً لعبادةِ ربِّ الأرضِ والسماءْ''.

صاحَ الذئبُ ''نَاب'' بإعجابٍ وتقديرْ: ''يا له من نبيٍّ عظيمٍ زاهدٍ تقيْ!''.

أكملت ''سُلافة'': ''وأما (وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ) فتعني أنه سيؤتيه اللهُ النبوةَ وهو صغيرٌ في السنْ، كما آتى عيسى النبوةَ في المهدِ حين كان في الأكفانْ''.

آيةُ زكريا: الصمتُ ثلاثةَ أيام

واصلت ''سُلافة'' بصوتٍ مشوقٍ جذابْ: ''فلما سمع زكريا هذه البشارةَ العظيمةَ العجابْ، تعجبَ وقال: ﴿رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ [مريم:8]. فأجابه اللهُ: ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾ [مريم:9]''.

''فطلبَ زكريا آيةً على هذه البشرى يا إخوانْ، فقال اللهُ له: آيتُكَ ألاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ إِلاَّ رَمْزًا، وتظلَّ تذكرُ اللهَ بكرةً وأصيلاً في كلِّ أوانْ''.

ميلادُ يحيى: نشأةٌ صالحة

رفعت ''سُلافة'' صوتَها بخشوعٍ وحنينْ: ''ورزق اللهُ زكريا بيحيى، ونشأ الغلامُ نشأةً صالحةً في رياضِ النبوةِ والدينْ، قال تعالى فيه: ﴿يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ ۖ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا * وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَاةً ۖ وَكَانَ تَقِيًّا * وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا * وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ [مريم:12-15]''.

صاحتِ الحمامةُ ''هَديل'' بفرحٍ وابتهاجْ: ''يا له من سلامٍ عظيمٍ من اللهِ على هذا النبيِّ الكريمْ! سلامٌ يومَ ولدَ ويومَ يموتُ ويومَ يُبعثُ حياً في النعيمْ!''.

مقتلُ يحيى عليه السلام: فاجعةُ الاستشهاد

خفضت ''سُلافة'' صوتَها بحزنٍ وأسى، والدموعُ تترقرقُ في عينيها وتجري كالسواقي، وقالت بصوتٍ يقطرُ ألماً وحسرةً واشتياقْ: ''لكن هذه النهايةَ السعيدةَ لم تدمْ، فقد كان ليحيى -عليه السلام- نهايةٌ مأساويةٌ في ظلمِ الطغاةِ والأقوامْ، لقد قُتل شهيداً على يدِ طاغيةٍ من طواغيتِ بني إسرائيلَ اللئامْ''.

سأل الأرنبُ ''وَجيب'' بخوفٍ ورجفةْ: ''كيفَ قُتل يا سُلافة؟ ومن قتله في تلك السجفةْ؟''.

أجابت ''سُلافة'' بصوتٍ متهدجٍ باكْ: ''كان هناك ملكٌ من ملوكِ بني إسرائيلَ فاسقٌ فاجرْ، أراد أن يتزوجَ من امرأةٍ محرمةٍ عليه وهي ابنةُ أخيه أو بعضُ قرابته، وكان يحيى -عليه السلام- نبيَّ ذلك الزمانْ، فنهاه عن هذا الزواجِ المحرمِ وذكره بالرحمنْ، فأصرَّ الملكُ على زواجه، وأصرَّ يحيى على منعه وإبطاله، فدبرت تلك المرأةُ الفاجرةُ مكيدةً ليحيى -عليه

السـلام–، وطلبت من الملكِ أن يقتله، فرفض الملكُ في البدايةِ خوفاً من اللهِ ومن غضـبِ السماءْ، لكن المرأةَ لم تيأسْ، بل زينت له قتلَ النبيّ الأنفَس''.

هنا تقدمَ الذئبُ ''نَاب'' بغضبٍ وحنقْ: ''يا للخسةِ والانحطاط! أيقتلون نبيَّ اللهِ من أجلِ شهوةِ امرأةٍ فاجرةٍ وملكٍ أحمقْ؟!''.

أكملت ''سُلافة'' بحزنٍ وأسى: ''إن المرأةَ الفاجرةَ لما أصرَّت على طلبها، قالت للملك: سأرضى بأن تأتيَني برأسِ يحيى في طبقْ، فأمرَ الملكُ جلاوزتَه بقتلِ يحيى –عليه السلام– فقطعوا رأسَه الشريفْ، وكان ذلك أولَ شهيدٍ يقتلُ من الأنبياءِ غيلةً وسيفْ''.

بكتِ الحمامةُ ''هَديل'' بكاءً مراً حزيناً، وقالت بصـوتٍ متهدجٍ باكٍ: ''يا إلهي! نبيٌّ يقتلُ بهذه البشاعةْ، من أجلِ شهوةِ امرأةٍ وطاغيةٍ ماكرٍ وخدّاعةْ!''

مقتلُ زكريا عليه السلام: نهايةُ الأبِ الحزين

تابعت ''سُـلافة'' بصـوتٍ يفيضُ حزناً وعبراتْ: ''أما زكريا –عليه السـلام–، فقد كانت نهايتُه مأساويةً لا تقلُّ فظاعةْ، بعد مقتلِ ابنه يحيى –عليه السلام–، هربَ زكريا من بطشِ بني إسرائيلَ والطغاةْ، فاختبأ في شجرةٍ هناك في الفلاةْ''.

سـأل القردُ ''صَـفْصَـف'' بلهفةٍ وفضـولْ: ''في شـجرة؟! وكيفَ ذلك يا سُـلافةُ يا بنتَ الأصولْ؟''.

أكملت ''سُلافة'' بصوتٍ خفيضٍ كالنسيمْ: ''إن زكريا لما هربَ من قومه، اختبأ في شجرةٍ انشقتْ له فدخل فيها، فجاء الشيطانُ فأشارَ إلى مكانه، فأخذوا المنشارَ وقطعوا الشجرةَ وهو فيها، فكانت نهايتُه شـهيداً كما كان ابنُه من قبله، صـبراً واحتسـاباً لوجهِ ربِّه العليِّ القديرْ''.

صاحَ الأسدُ ''هَزْبَر'' بغضبٍ عارمْ: ''يا إلهي! يقطعونَ نبيَّ اللهِ بالمنشارِ وهو حي؟! أيُّ وحشيةٍ هذه وأيُّ جرمْ؟!''.

أجابت ''سُلافة'' بحسرةٍ بالغةْ: ''هكذا كان بنو إسرائيلَ يا هَزْبَر، يقتلون الأنبياءَ بغيرِ حق، ويسفكونَ الدماءَ الزكيةَ بلا وجلٍ ولا خلقْ، وقد قال اللهُ فيهم: ﴿وَقَتْلَهُمُ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ [النساء:155]، وقال: ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ [البقرة:87]''.

بشارةُ مريم: حملُها بعيسى

واصلت ''سُلافة'' بصوتٍ يفيضُ نوراً وضياءْ: ''وبعد مقتلِ زكريا ويحيى، جاءتِ القصةُ العظمى، قصةُ مريمَ وابنها المسيحِ عيسى، بينما كانت مريمُ في خلوتها تتعبدُ في المحرابْ، وإذا بجبريلَ عليه السلام يظهرُ لها في صورةِ بشرٍ سويٍّ في ثيابْ''.

صاحتِ الغزالةُ ''رَشاقة'' بخوفٍ ووجلْ: ''أرأى رجلاً في خلوتها؟! كيفَ كان مشهدُها في تلك الحالْ؟''.

أكملت ''سُلافة'': ''فزعت مريمُ وفزعتْ، وصرختْ به صرخةَ العفيفةِ الطاهرةْ: ﴿قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا﴾ [مريم:18]''.

سأل الفيلُ ''خَطَّار'' بفضولٍ واهتمامْ: ''فماذا قال لها جبريلُ في ذلك المقامْ؟''.

أجابت ''سُلافة'': ''قال لها جبريلُ مطمئناً: ﴿قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا﴾ [مريم:19]''.

''فتعجبت مريمُ وقالت: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾ [مريم:20]''.

معجزةُ الميلاد: كلمةٌ من الله

ارتفع صوتُ ''سُلافة'' بخشوعٍ وإيمانْ: ''فأجابها جبريلُ بقولٍ عظيمِ الشأنْ: ﴿قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌۖ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّاۚ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ [مريم:21]''.

''فحملتْ مريمُ بعيسى –عليه السلام– بأمرِ اللهِ العظيمْ، وانصرفتْ إلى مكانٍ قصيٍّ في فلسطينَ ليلاً في الظلامِ البهيمْ''.

مشهدُ الولادة: تحتَ جذعِ النخلة

وصفت ''سُلافة'' المشهدَ بتفاصيلَ مؤثرةْ: ''وفي مكانٍ بعيد، تحتَ جذعِ نخلةٍ يابسةٍ في الصحراءْ، جاءها المخاضُ والألمُ والبلاءْ، كانت وحيدةً خائفةً حزينةْ، لا أنيسَ لها في تلك الديارِ سوى ريحِ الصحراءِ السكينةْ''.

بكتِ الحمامةُ ''هَديل'' بحزنٍ وأسى: ''يا إلهي! تلدُ وحدها تحتَ نخلةٍ في البريةْ، كيفَ تحملتُ هذه الغربةَ القاسيةْ؟!''.

أكملت ''سُلافة'': ''فصرختْ في تلك اللحظاتِ العصيبةْ: ﴿يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾ [مريم:23]''.

''فناداها اللهُ من تحتِها: لا تخافي ولا تحزني، هزِّي جذعَ النخلةِ تساقطْ عليكِ رطباً جنياً، وكلي واشربي وطيبي نفساً يا مريم، وقولي لمن يسألُكِ عن ابنكِ: إني نذرتُ للرحمنِ صوماً فلنْ أكلمَ اليومَ إنسياً''.

عودةُ مريم إلى قومها: اتهاماتُ اليهود

واصلت ''سُلافة'' بحزنٍ وأسى: ''بعد أربعين يوماً من الولادةِ والرضاعْ، عادت مريمُ إلى قومها تحملُ ابنَها في القناعْ، فلما رأوها، صاحوا بها في استنكارٍ وتوبيخْ: ﴿يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا * يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾ [مريم:27-28]''.

صـاحَ الذئبُ ''نَاب'' بغضـبٍ واسـتنكارْ: ''يا للوقاحة! يتهمونَ مريمَ العذراءَ الطاهرةَ بالفاحشةْ، وهم الذين يقتلونَ الأنبياءَ ويسفكونَ الدماءَ في كلِّ ساحةْ!''.

أكملت ''سُلافة'': ''فأشارتْ لهم إلى عيسى أن كلموه، فاستنكروا قائلين: كيفَ نكلمُ من كان في المهدِ صبياً؟!''.

أولى معجزاتِ المسيح: الكلامُ في المهد

رفعت ''سُـلافة'' صـوتَها بخشـوعٍ وإعجابْ: ''وهنا، أنطقَ اللهُ عيسـى في المهدِ ليكونَ آيةً للناسِ في الآفاقْ، فقال: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا * وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا * وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا * وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ [مريم:30-33]''.

صـاحَ الأسـدُ ''هَزْبَر'' بإعجابٍ وتقديرْ: ''يا له من كلامٍ عظيمٍ في المهدِ يصـدحْ! يعلنُ عبوديتَه للهِ وهو في مهدِهِ يسبحْ!''.

معجزاتُ عيسى عليه السلام

واصـلت ''سُـلافة'': ''ولما كبر عيسـى عليه السـلام، آتاه اللهُ البينات، وأيده بمعجزاتٍ كثيرة، فكان يخلقُ من الطينِ كهيئةِ الطير، فينفخُ فيه فيكونُ طيراً بإذن الله، وكان

يبرئُ الأكمهَ والأبرصَ بإذن الله، ويحيي الموتى بإذن الله، وكان ينبئُ الناسَ بما يأكلون وما يدخرون في بيوتهم''.

سأل النمر ''أَرْقَط'' بدهشة: ''يحيي الموتى؟! أيُعقلُ هذا؟!''.

أجابت ''سُلافة'': ''إنها آياتُ اللهِ العظيمة، ليؤمنَ بها من كان له قلبٌ سليم، ولكن أكثرَ بني إسرائيلَ لم يؤمنوا به، بل كفروا به وآذوه وأرادوا قتله''.

مؤامرةُ اليهود على المسيح ورفعُه إلى السماء

أكملت ''سُلافة'' بصوتٍ خفيض: ''اجتمعَ أحبارُ اليهودِ وكبراؤهم، وتآمروا على قتلِ المسيحِ عيسى ابنِ مريم. فأرادوا صلبه، ولكن اللهَ نجاه من مكرهم. قال تعالى: ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُۖ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [آل عمران:54]''.

سأل القنفذُ ''شَوْك'' بفضولٍ واهتمامْ: ''فهل قتلوه يا سُلافة؟ وكيفَ كانت نهايتُه في تلك الأيامْ؟''.

أجابت ''سُلافة'': ''ألقى اللهُ شَبَهَ عيسى على رجلٍ آخرَ من أتباعهم، فظنوا أنه عيسى فصلبوه، أما عيسى -عليه السلام-، فرفعه اللهُ إليه، وسينزلُ آخرَ الزمانِ ليقتلَ المسيحَ الدجالَ، ويحكمَ بشريعةِ محمدٍ ﷺ ''.

الموعظةُ الختامية: بنو إسرائيلَ عبرَ التاريخ

نظرت ''سُلافة'' إلى الحيواناتِ وقد أخذتهم العبرة، والدموعُ تجري على خدودهم، وقالت موعظتَها البليغةَ الختامية بصوتٍ يجلجلُ كالرعدِ في الفضاءْ: ''يا أهلَ الغاب، انظروا كيفَ تعاملَ بنو إسرائيلَ مع أنبيائهم وأوليائهم، زكريا قتلوه بالمنشارِ وهو في الشجرةْ، ويحيى قطعوا رأسَه وأهدوه لامرأةٍ فاجرةْ، ومريمَ العذراءَ الطاهرةَ اتهموها بالزنا وهي البتولُ الطاهرةْ، وعيسى نبيَّ اللهِ كذبوه وآذوه وهموا بقتله لولا أن رفعه اللهُ إلى السماءِ العاليةْ''.

جرائمُ اليهودِ في كلِّ زمان

ارتفع صــوتُ ‘‘سُــلافة’’ وصــوتُها كالرعدِ في الأرجاءْ: ‘‘واليومَ نرى أن هؤلاء القومَ الذين يدعون أنهم أتباعُ موســى، ما زالوا على نفسِ المنهجِ والبلاءْ، يقتلون الأنبياءَ وأتباعَهم بالأمس، ويقتلون الأطفالَ والنساءَ والشيوخَ اليومَ في كلِّ مكانٍ وفناءْ’’.

أضـاف الذئبُ ‘‘نَاب’’ بغضبٍ عارمْ: ‘‘لقد رأينا مجازرَهم في بلاد المسلمين عبرَ التاريخْ، يقتلون الأطفالَ على مرأى من العالمِ في فلسطين، ويهدمون البيوتَ فوقَ رؤوسِ ساكنيها في كلِّ وقتٍ وساعة وحين’’.

قام الأسدُ ‘‘هَزْبَر’’ وصاح غاضباَ: "إن هؤلاء القومَ الذين قتلوا الأنبياءَ بالأمس، هم أنفسُهم الذين يقتلون الأطفالَ والنســاءَ اليوم، وما تغيرت طباعُهم، ولا تبدلت أخلاقُهم، ولا تحولت نفوسُــهم، فهم على ما كانوا عليه في عهدِ موســى وعيســى؛ جبابرةٌ متكبرون، قتلةٌ للأبرياء، مــفســـــدون فــي الأرضِ بــغــيــرِ حــق، لــكــن وعــد الآخــرة آتٍ ووعــد الــلــه حق’’.

الفصل التاسع عشر

في أصحابِ الفيلِ الرزين، وعبرةُ من يستهزئُ بالدينِ في كلِّ زمانٍ وحين

تحتَ السدرةِ العتيقة: غرورُ القوة وخيلاءُ الأجساد

كان الجوُّ في الغابةِ هادئاً، والشمسُ تميلُ نحو المغيب، والطيورُ تترنمُ بألحانِ المساءِ الحزين، اجتمعتِ الحيواناتُ تحتَ السدرةِ العتيقة كعادتها، يتجاذبونَ أطرافَ الحديث، ويتناقلونَ قصصَ الأيامِ والسنين.

وفجأةً، دخلَ الفيلُ "خَطَّار" على المجلسِ بخطواتٍ ثقيلةٍ تزلزلُ الأرض، يجرُّ خرطومَه الطويل بكلِّ فخرٍ واعتزاز، ويهزُّ رأسَه الضخم وكأنه ملكُ الغابةِ بلا منازع، التفَتَ حولَه نظرةَ المتكبرِ المعجبِ بنفسه، ثم قال بصوتٍ رزينٍ يملؤه الغرور:

"يا أهلَ الغابة، انظروا إليَّ، ألستُ أضخمَكم جثةً، وأقواكم بطشاً، وأعظمَكم هيبةً وسلطاناً؟ بخرطومي أقتلعُ الأشجار، وبقدميَّ أهدمُ الديار، وجلدي الغليظُ لا تؤثرُ فيه أنيابُكم ولا مخالبُكم، من يستطيعُ أن يقفَ أمامي أو يجابهني؟ إنني أنا القويُّ الذي لا يُقهر، والعظيمُ الذي لا يُغلب!".

صاحَ الأسد "هَزْبَر" باستنكار: "رويدَكَ يا خَطَّار، فالقوةُ ليست في ضخامةِ الجسد، ولا في قسوةِ البأس، كم من جبارٍ أهلكته ذبابة، وكم من عظيمٍ قصمته بعوضة!".

ضحكَ الفيلُ مستهزئاً: "بعوضة؟! يا هَزْبَر، أتستهينُ بقوتي بهذا المخلوقِ الحقير؟ إنني أسحقُ آلافَ البعوضِ بخرطومي في لحظة!".

هنا تدخلتِ السُّلحفاة ''سُلافة'' بحكمتها المعهودة، وقالت بصوتٍ عميق: ''يا خَطَّار، لقد ذكرتَ البعوضةَ فذكرتني بقصةٍ عظيمة، وقومٍ أهلكهم اللهُ بأضعفِ خلقه، إنها قصةُ أصحابِ الفيل، الذين جاءوا بفيلٍ عظيمٍ لهدمِ الكعبة، فأرسلَ اللهُ عليهم طيراً أبابيل، دمرتهم تدميراً''.

بدايةُ القصة: أبرهةُ والكنيسةُ التي أرادَها قبلةً للعرب

بدأت ''سُلافة'' بصوتٍ يجلجلُ كالرعدِ البعيد: ''يا أهلَ الغابِ الكرام، اسمعوا قصةً هي من أعجبِ القصص، وعبرةً لكلِّ من طغى وتجبر، كان في أرضِ اليمنِ ملكٌ اسمه ''أبرهةُ الحبشي''، وكان نائباً للنجاشي ملكِ الحبشة على تلك الديار، وكان هذا الملكُ نصرانياً، فرأى العربَ يحجون إلى الكعبةِ في مكةَ في كلِّ عام، ويتوافدون إليها من كلِّ مكان''.

سأل القرد ''صَفْصَف'' من فوق غصنِه: ''وماذا صنعَ هذا الملكُ؟ هل منعَهم من الحج؟''.

أكملت ''سُلافة'': ''لا يا صَفْصَف، بل فكرَ في حيلةٍ أخرى، بنى كنيسةً عظيمةً في صنعاء، لم يرَ الناسُ مثلَها في جمالِها وارتفاعِها، سَمَّوها ''القُلَّيس'' لارتفاعِها الشاهق، ثم نادى في مملكته: إن الحجَّ إلى هذه الكنيسةِ أفضلُ من الحجِّ إلى الكعبة، وأرادَ أن يصرفَ العربَ عن بيتِ اللهِ الحرام''.

تدنيسُ الكنيسة: شرارةُ الغضب

واصلت ''سُلافة'' بصوتٍ يحملُ نبرةَ التشويق: ''سمعَ بذلك رجلٌ من بني كنانة، فغضبَ لله ولبيتِهِ غضباً شديداً، فذهبَ إلى تلك الكنيسةِ في ظلمةِ الليل، ودخلها في خفية، ثم لطَّخَ قبلتَها بالعذرةِ والأذى، فلما رأى سَدَنَةُ الكنيسةِ ذلك، رفعوا أمرَهم إلى أبرهة، فقالوا له: إنما صنعَ هذا بعضُ قريشٍ غضباً لبيتهم الذي ضاهيتَ به هذا البيت''.

صاحَ الذئب ''نَاب'' بغضب: ''يا له من ردٍّ فعلٍ عظيم! لقد أرادَ أن يُريَ هذا الملكَ المتكبر أن بيتَ اللهِ له مكانتُه عند العرب''.

أكملت ''سُلافة'': ''فحلفَ أبرهةُ غاضباً: ليسيرنَّ إلى مكةَ وليهدمَنَّ الكعبةَ حجراً حجراً، وتأهبَ لذلك في جيشٍ عرمرم، واستصحبَ معه فيلاً عظيماً لم يُرَ مثلُه، يقال له ''محمود'' وقيل: كان معه ثمانيةُ أفيال أو اثنا عشر فيلاً''.

مقاومةُ العرب: قصةُ ذي نَفَر ونُفيل بن حبيب

تابعت ''سُلافة'' بتفاصيلَ مثيرة: ''فلما سمعتِ العربُ بمسيره، أعظموا ذلك جداً، ورأوا أن حقاً عليهم أن يدافعوا عن البيت، فخرج إليه رجلٌ من أشرافِ اليمن، يقال له ''ذو نَفَر''، فدعا قومَه ومن أجابَه من سائرِ العربِ إلى حربِ أبرهة، فقاتلوه فهزمهم أبرهة، وأسرَ ذا نفر فاستصحبه معه''.

سأل الأرنب ''وَجيب'' بلهفة: ''ثم ماذا حدث؟''.

أكملت ''سُلافة'': ''ثم مضى أبرهةُ حتى إذا كان بأرضِ خثعم، عرض له ''نُفيلُ بن حبيب الخثعمي'' في قومه، فقاتلوه فهزمهم أبرهة، وأسر نفيلاً. فلما أراد قتله، قال له نفيل: أيها الملك، لا تقتلني، فإني دليلكَ بأرضِ العرب، وهاتان يداي لك على قومي بالسمع والطاعة، فاستبقاه، وخرج معه يدله على الطريق''.

هنا تدخل النمر ''أَرْقَط'' بدهشة: ''يا للهول! لقد تحولَ المدافعُ عن البيتِ إلى دليلٍ للجيش!''.

أجابت ''سُلافة'' بأسى: ''نعم، وهكذا تفرقَتِ القبائلُ العربيةُ عن الدفاعِ عن البيت، وخذله بعضُهم، فلما مرَّ أبرهةُ بالطائف، خرج إليه ''مسعود بن معتب'' في رجالِ ثقيف، فقالوا: أيها الملك، نحن عبيدك، سامعون لك مطيعون، ليس عندنا لك خلاف، ونحن نبعث

معك من يدلك على مكة، فبعثوا معه ''أبا رِغال'' مولى لهم، فلما وصلوا إلى مكانٍ قريبٍ من مكة يسمى ''المُغَمَّس''، مات أبو رِغال هناك، فكان قبرُه يُرجم''.

غارةُ الجيش على أموالِ مكة

واصلت ''سُلافة'' بصوتٍ يعلو ويهبط: ''وبعث أبرهةُ رجلاً من الحبشة يقال له ''الأسود بن مَقْصُود'' على مقدمةِ خيله، وأمره بالغارةِ على نَعَمِ الناس، فجمع الأسودُ إليه أموالَ الحرم، وأصابَ لعبدِ المطلب بن هاشم –جدِّ النبيِّ ﷺ– مائتي بعير''.

صاحَ الأسد ''هَزْبَر'' بغضب: ''أيغزونَ البيتَ ويسلبونَ أموالَ الناس؟! إنه لظلمٌ عظيم!''.

عبدُ المطلبِ في مواجهةِ الطاغية

رفعت ''سُلافة'' صوتَها وهي تقتربُ من ذروةِ القصة: ''ثم بعث أبرهةُ رجلاً يقال له ''حُناطةُ الحميري'' إلى مكة، وأمره أن يأتيَه بأشرفِ قريش، فذهب حناطةُ إلى مكة، فدلوه على عبدِ المطلب بن هاشم، وكان سيدَ قريشٍ وكبيرَها''.

سألتِ الحمامة ''هَديل'' بحنان: ''وماذا قال له عبدُ المطلب؟''.

أكملت ''سُلافة'': ''قال له عبدُ المطلب: واللهِ ما نريدُ حربَه، وما لنا بذلك من طاقة، هذا بيتُ اللهِ الحرام، وبيتُ خليلِه إبراهيم، فإن يمنعْه منه فهو بيتُه وحرمُه، وإن يخلِّ بينه وبينه، فواللهِ ما عندنا دفعٌ عنه، ثم ذهب معه إلى معسكرِ أبرهة''.

هنا وقف الفيل ''خَطَّار'' باهتمام: ''وكيفَ استقبلَه أبرهةُ؟''.

أجابت ''سُلافة'': ''كان عبدُ المطلب رجلاً جميلاً حسنَ المنظر، عظيمَ الهيبة، فلما رآه أبرهةُ أجَلَّه وأكرمه، ونزل عن سريره وجلس معه على البساط، ثم قال لترجمانه: قل له: ما حاجتُك؟''.

الحوارُ العجيب: بين الإبلِ والبيت

رفعت ''سُـــلافة'' صـــوتَها وهي تحكي الحوارَ الشـــهير: ''فقال عبدُ المطلب للترجمان: إن حاجتي أن يردَّ عليَّ الملكُ مائتي بعيرٍ أصـــابها لي، فلما ســـمع أبرهةُ ذلك، تعجب وقال لترجمانه: قل له: لقد كنتَ أعجبتَني حين رأيتُك، ثم قد زهدتُ فيك حين كلَّمتني! أتكلمني في مائتي بعيرٍ أصـبتَها لك، وتتركُ بيتاً هو دينُك ودينُ آبائك، قد جئتُ لهدمه، لا تكلمني فيه؟!''.

صـاحَ الذئب ''نَاب'' بإعجاب: ''يا له من موقف! إنه يريدُ أن يُرِيَ هذا الطاغيةَ أن قريشـاً لا تعتمدُ على قوتِها، بل على ربِّ البيت!''.

أكملت ''سُــلافة'': ''فقال عبدُ المطلب بثقةِ المؤمنِ بالله: إني أنا ربُّ الإبل، وإن للبيت رباً سـيمنعُه، فقال أبرهةُ مسـتكبراً: ما كان ليمتنعَ مني! فقال عبدُ المطلب: أنت وذاك، ثم أمر أبرهةُ بردِّ إبلِ عبدِ المطلب، فخرج من عنده''.

الاستعدادُ للغزوِ ودعاءُ قريش

تابعت ''سُــلافة'': ''رجع عبدُ المطلب إلى قريش، فأمرهم أن يتفرقوا في الشـــعابِ والجبال، ويصـــعدوا إلى رؤوسِ الجبال خوفاً من معرَّةِ الجيش، ثم قام عبدُ المطلب، وأخذ بحلقةِ بابِ الكعبة، وقام معه نفرٌ من قريش يدعون اللهَ ويستنصرونه على أبرهة وجنده''.

سأل القنفذ ''شَوْك'' بفضول: ''وماذا فعل أبرهةُ بعد ذلك؟''.

أجابت ''سُـلافة'': ''أصـبح أبرهةُ في الصـباح، تهيأ لدخولِ مكة، وهيَّأ فيلَه ''محموداً''، وعبَّى جيشَه، فلما وجَّهوا الفيلَ نحو مكة، حدثَ الأمرُ العجيب''.

الفيلُ "محمود" يروي قصته

هنا، تحركَ الفيلُ ''خَطَّار'' في مكانه بفخرٍ وغرور، لكن ''سُـــلافة'' نظرت إليه وقالت: ''يا خَطَّار، لستَ أنتَ صاحبَ القصة. اسمعْ مني، فالفيلُ الذي كان مع أبرهة له حديثٌ آخر''.

وفجأةً، سمعَ الجميعُ صوتاً عميقاً قادماً من بعيد، وإذا بفيلٍ عجوزٍ يظهرُ من بينِ الأشجار، بخطواتٍ وئيدة، ونظراتٍ خاشعة، إنه الفيلُ ''مَحْمُود'' الذي كان مع أبرهة.

تقدمَ الفيلُ العجوز، وقال بصـــوتٍ يقطرُ خشـــوعاً وإيماناً: ''يا أهلَ الغابة، أنا ذلك الفيلُ الذي كان مع أبرهة، كنتُ في شبابي قوياً ضخماً، يحملوني على أن أكونَ أداةَ هدمٍ لبيتِ اللهِ الحرام، ســاروا بي من اليمنِ إلى مكة، وأنا لا أعلمُ ما يريدون، كنتُ أســمعُهم يقولون: بهذا الفيلِ العظيم سنهدمُ الكعبة، وسنُذلُّ العربَ ونكسرُ شوكتهم''.

سأل الأرنب ''وَجيب'' بفضول: ''وكيفَ كان شعورُك وأنت تسيرُ إلى مكة؟''.

أجاب الفيلُ ''محمود'': ''كنتُ فخوراً بقوتي، أظنُّ أنني سـأصـنعُ شـيئاً عظيماً، لكن في طريقي إلى مكة، شعرتُ بشيءٍ غريب، كانت خطواتي تثقل، وأنفاسي تضيق، وكأنَّ هناك قوةً تمنعني من التقدم، فلما وصلنا إلى مشارفِ مكة، حدثَ ما لم أكن أتوقع''.

معجزةُ الفيل: امتناعُه عن التقدم

ارتفع صـوتُ الفيلِ العجوز وهو يروي المشـهدَ المثير: ''أصـبح أبرهةُ في الصـباح، وتهيأ لـدخولِ مكـة، وهيأني أنـا، وعبَّى جيشَـــه، فلمـا وجَّهوني نحو مكـة، حـدثَ الأمرُ العجيب، كلما وجهوني نحوَ مكة، بركتُ على الأرضِ وامتنعتُ عن الحركة، وكلما وجهوني نحوَ اليمنِ أو الشـام، قمتُ أهرولُ بسـرعة، ضـربوني بالسـياط، وطعنوني بالرماح، وأدخلوا المحاجنَ تحتَ جلدي، لكني لم أتحرك''.

صاحَ القرد ''صَفْصَف'' مندهشاً: ''يا إلهي! فيلٌ عظيمٌ لا يتحرك! كيفَ حدثَ هذا؟''.

أكمل الفيلُ ''محمود'' بخشــوع: ''لم يكنْ هذا مني يا صَــفْصَــف، بل كان بأمرِ الله. أدركتُ في تلك اللحظة أن هناك قوةً أكبرَ من كلِّ قوة، وأن هذا البيتَ الذي يريدون هدمه له ربٌّ يحميه، حينها أيقنتُ أن القوةَ الحقيقيةَ ليســت في ضـخامةِ الجسـد، بل في إيمانِ القلب وخضوعه لله''.

العذابُ من السماء: طيرٌ أبابيل

هنا، ســمعَ الجميعُ حفيفَ أجنحةٍ في الســماء، وإذا بأســرابِ الطيورِ تحلقُ فوقَ رؤوســهم، تقدمَ طائرٌ صـغيرٌ جميل، وقال بصـوتٍ نديٍّ: ''أنا طائرٌ من تلك الطيرِ الأبابيل التي أرســلها اللهُ على جيشِ أبرهة، كنتُ مع آلافٍ من أمثالي، كلُّ طائرٍ يحملُ ثلاثةَ أحجار: حجراً في منقاره، وحجرين في رجليه. كانت الأحجارُ صـغيرةً كالحمصِ والعدس، لكنها كانت تحمل العذاب والهلاك''.

سأل النمر ''أَرْقَط'' بدهشة: ''وكيفَ كانت تلك الحجارةُ تفعلُ بهم؟''.

أكمل الطائرُ بصوتٍ مرتجف: ''كنا نُحلِّقُ فوقَ جيشِ أبرهة، ثم نرسلُ الحجارةَ عليهم، فما أصـــابَ تلك الحجارةُ أحداً إلا هلك، كانت تقعُ على رأسِ الرجل فتخرجُ من دبره، وتقعُ على جســده فيتقطع، رأيتُ الجيشَ العرمرمَ يتســاقطون كأوراقِ الخريف، والجثثَ تتناثرُ في كلِّ مكان، كانت عبرةً عظيمةً لمن يعتبر''.

مصيرُ أبرهةَ وجيشه

تابع الفيلُ ''محمود'' القصـة: ''أما أبرهةُ نفســه، فأصـيبَ بداءٍ عجيب، تسـاقطت أعضـاؤه عضـواً عضـواً، وانصـدع صـدرُه عن قلبِه، فرجعوا سـراعاً إلى اليمن، وهم في عذابٍ

شديد، وكان أبرهةُ في كلِّ منزلٍ يتساقطُ منه عضوٌ حتى وصلوا به إلى صنعاءَ وهو مثلُ فرخِ الحمام، ثم هلكَ بعد ذلك''.

سأل الفيل ''خَطّار'' -الذي كان قد خفضَ رأسَه خجلاً- باهتمام: ''وماذا حدثَ لكَ أنت يا محمود؟ هل هلكتَ معهم؟''.

أجاب الفيلُ العجوز بابتسامة: ''لا يا خَطّار. لقد نجوتُ برحمةِ الله، حين رأيتُ العذابَ ينزلُ على الجيش، هربتُ إلى الجبال، فعشتُ هناك سنواتٍ أتأملُ في قدرةِ الله، ومنذ ذلك اليوم، تعلَّمتُ أن القوةَ الحقيقيةَ ليست في ضخامةِ الجسد، بل في التواضعِ لله وخشيتِه''.

الموعظةُ الختامية: عبرةُ الفيلِ المتواضع

نظرت ''سُلافة'' إلى الفيل ''خَطّار'' الذي كان قد طأطأ رأسَه خجلاً، وقالت موعظتَها البليغة: ''يا خَطّار، أرأيتَ كيفَ أن الفيلَ العظيمَ محمود لم تنفعه قوتُه أمامَ أمرِ الله؟ وأرأيتَ كيفَ أن الطيرَ الصغيرَ أبابيل أهلكتْ جيشاً جراراً بأمرِ ربِّها؟ فالقوةُ الحقيقيةُ ليست في ضخامةِ الجسد، ولا في كثرةِ الجنود، بل في إيمانِ القلب وخضوعه لله''.

التفتَ الفيلُ ''خَطّار'' إلى الفيلِ العجوز ''محمود''، وقال بتواضع: ''يا محمود، لقد علَّمتني اليومَ درساً لن أنساه، سأتواضعُ بعد اليوم، ولن أغترَّ بضخامةِ جسدي، وسأشكرُ اللهَ على نعمه''.

نزولُ القرآن: تخليدُ القصةِ في سورةِ الفيل

رفعت ''سُلافة'' صوتَها بخشوع: ''هذه القصةَ العظيمة، خلدها اللهُ في كتابِه الكريم، في سورةِ الفيل. قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ * أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ * وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ * تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ * فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ [الفيل:1-5]''.

الموعظةُ الختامية: أبرهةُ العصرِ وهدم كعبة هذا الزمان

نظرت "سُـــلافة" إلى الحيواناتِ وقد أخذتهم العبرة، ثم ارتفع صــوتُها كالرعدِ وهي تصِـف حال أهل هذا الزمان: "يا أهلَ الغاب، انظروا كيفَ حمى اللهُ بيتَه بأضـعفِ خلقه، جيشٌ جرار، وفيلٌ عظيم، وأبرهةُ المتكبر، هُزموا بطيرٍ صــغير، يحملُ حجارةً صــغيرة، إنها قدرةُ اللهِ العظيم، الذي لا يُغلب، ولا يُمانع، وهاهم أبرهةُ هذا الزمان، لا يختلفون عن أبرهةَ الأول، إنهم أولئك الذين يســـتهزئون بشـــعائرِ الله، ويســـخرون من دينِه، ويحاولون تغييرَ الإســـلامِ بما لم يأذن به الله، تراهم في كلِّ مكان، يحاربون الحجابَ باســـمِ الحرية، ويسخرون من اللحيةِ باسمِ الموضة، ويهاجمون الأذانَ باسمِ الحضارة".

هنا تدخل الثعلب "حِيَل" بحماس: "صدقتِ يا سُلافة! كم نرى اليومَ من أناسٍ يستهزئون بلباس المسلمين المحتشم، ويصفونهم بالتخلفِ والرجعية!".

أضــاف الذئب "نَاب" بغضــب: "وكم من إعلاميٍّ ســاخر، وكم من تافهٍ أحمق، يجعلون من شـــعـائرِ اللهِ مـادةً لضـــحكهم وســـخريتهم، يظنون أنهم بـذلـك يظهرون بمظهرِ المتحضرين!".

تابعت "سُلافة" بغَضَب: "إنهم أبرهةُ العصر، يريدون هدمَ الكعبةِ التي في قلوبِ المؤمنين، يريدون أن يطفئوا نورَ اللهِ بأفواهِهم الســـاخرة، وكلماتِهم المســـمومة، ورســـومِهم وصـــوَرهم الخبيثة، يظنون أن سخريتهم ستُغيرُ من دينِ اللهِ شيئاً".

أضـافت الحمامة "هَديل" بحزن: "وكم من فتاةٍ تخلعُ حجابَها لأنها سـئمتْ من سـخريةِ الناس! وكم من شابٍ ترك التدَيّن القويم لأن أصدقاءَه وزملاءه في العملِ يستهزئون به!".

هنا وقف الأســـد "هَزْبَر" بجلال، وقال: "ولكن ألا يخافُ هؤلاء من عذابِ الله، كما عاقبَ أبرهةَ وجنوده؟".

أجابت ''سُـلافة'' بصـوتٍ قاطع: ''بلى والله! إن اللهَ يمهلُ ولا يهمل، هؤلاء المسـتهزئون بدينِ اللهِ وشعائرِه، مصيرُهم إلى خزيٍ في الدنيا وعذابٍ في الآخرة، وقد تكونُ نهايتُهم على يدِ أضعفِ خلقه كفَيْرُوسِ خطير، كما كانت نهايةُ أبرهةَ على يدِ طيرٍ صغير''.

قال النمر ''أَرْقَط'' بصوتٍ يجلجل: ''وبعضهم لا يكتفون بالسخرية، بل يريدون تغييرَ دينِ اللهِ وتعديلَه بما يتناسـبُ مع أهوائهم، تراهم يدعون إلى ''تطويرِ الإسـلام''، و''تحديثِ الشـريعة''، و''تجديدِ الخطابِ الديني'' بما يتوافقُ مع قيمِ الغربِ وثقافتِه، ويُرَوِّجُون على الشاشات أن الحجابُ ليس فريضةً، والمحافظة على الصلاة تشدد ورجعية، والربا معاملةٌ مصرفيةٌ عادية، والخمرُ ''مشروبٌ رَوحي''! يبدلون الأسماءَ والمسميات، وهم يظنون أنهم بذلك يخدعون اللهَ كما خدعوا الناس''.

أضـاف البوم ''بَصـير'' بحكمته: ''إنهم يريدون إسـلامًا تابعاً للغرب، كما أراد أبرهةُ أن يصرفَ الناسَ عن الكعبةِ إلى كنيسته، ولكن اللهَ بالمرصاد''.

العلماءُ والدعاة: حراسُ الدين

رفعت ''سُـلافة'' صـوتَها: ''ولكن اللهَ يقيضُ لهذا الدينِ في كلِّ عصـرٍ من يدافعُ عنه، كما دافع عبدُ المطلبِ عن الكعبة، إنهم العلماءُ الربانيون، والدعاةُ المخلصـون، الذين يصدون هجماتِ المستهزئين، ويكشفون زيفَ المبدلين''.

دعوةٌ للثباتِ على الدين

نظرت ''سُـلافة'' إلى الجميعِ نظرةً حانية، وقالت: ''فاتعظوا يا أحبتي من قصـةِ أصـحابِ الفيل، واعلموا أن من يحمي بيتَه، يحمي دينَه، لا تبالوا بسـخريةِ السـاخرين، ولا بهمزِ اللامزين، فكما أن الفيلَ العظيمَ لم يسـتطعْ أن يدوسَ الكعبةَ بإذنِ الله، فإن كيدَ

المستهزئين لن يضرَّ دينَ اللهِ شيئاً، فتمسكوا بدينِكم، واعتزوا بشعائرِكم، ولا تتنازلوا عن شيءٍ من دينِكم لأحد ولا لغرض من الدنيا".

الفصل العشرون والأخير

قصة خاتم الأنبياءْ، سيدنا محمد الصادقِ الأمين، رحمةُ اللهِ للعالمين، وشفيعُنا يومَ الدين

تحتَ السدرةِ العتيقة: شوقُ الحيواناتِ لخاتمِ المرسلين

كانت ليلةً مقمرةً هادئةً في الغابةْ، والنجومُ تتلألأ في السماءِ كأنها مصابيحُ مذهبةْ، والنسيمُ العليلُ يداعبُ أغصانَ السدرةِ العتيقةْ، والأزهارُ تفوحُ بعطرِها الرقيقِ الرائقةْ.

اجتمعتِ الحيواناتُ تحتَ السدرةِ في ذلك المساءْ، تتفيأُ ظلالَ الحكمةِ والبهاءْ، كان الجميعُ في شوقٍ وحنينْ، إلى قصةِ خيرِ الأولين والآخرينْ.

نظرَ الأسدُ "هَزْبَر" إلى "سُلافة" بعينينِ تفيضانِ إجلالاً وإكبارْ، وقال بصوتٍ يملؤه الخشوعُ والوقارْ: "يا سُلافةُ، يا حكيمةَ الغابِ ويا راويةَ الأحقابْ، لقد سرنا معكِ في رحلةٍ عبرَ الزمانْ، وقصصتِ علينا قصصَ الأنبياءِ الكرام، وبلغنا قصةَ موسى وعيسى وإبراهيمَ الخليلْ، ونوحٍ وهودٍ وصالحٍ الرسولِ الجليلْ، فهل نصلُ اليومَ إلى ختامِ المطافْ، وقصةِ خيرِ من وطئَ الثرى واستنشقَ الألطافْ؟".

صاحَ الجميعُ بحماسٍ وشوقٍ ولهفةْ: حدثينا عن خاتمِ الأنبياءِ والمرسلينْ، سيدنا محمدٍ الصادقِ الأمينْ، وشفيعِ الأمةِ يومَ الدينْ، ورحمةِ اللهِ للعالمينْ.

نظرت "سُلافة" إلى الجميعِ نظرةً فيها من الحبِّ ما فيها، ومن الشوقِ ما يفيضُ عن حدوده، وقالت بصوتٍ يقطرُ خشوعاً وإيماناً: "يا أهلَ الغابِ الكرام، لقد بلغنا ختامَ المطافْ، ونهايةَ الأشواقِ بالآلافْ، سأروي لكم اليومَ قصةَ سيدِ الأولين والآخرينْ، وخاتمِ

الأنبياءِ والمرسلينْ، سيدنا محمدٍ بن عبدالله، الصادقِ الأمينْ، رحمةُ اللهِ للعالمينْ، وشفيعُنا يومَ الدينْ''.

النسبُ الشريف: سلسلةُ الذهبِ المصفى

بدأت ''سُـــلافة'' بصـــوتٍ يملؤه الفخرُ والتعظيمْ: ''هو محمدُ بن عبدالله بن عبدالمطلب بن هاشـــم بن عبد مناف بن قصـــي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنانْ. هذا هو نسبُه الشريفُ كما جاء في البيانْ، يتصلُ بإسماعيلَ بن إبراهيمَ الخليلِ عليهما السلامْ''.

صـاحَ القردُ ''صَـفْصَـف'' من فوق غصـنِه المتأرجحْ: ''يا إلهي! أيُّ نسـبٍ شـريفٍ هذا العجيبْ؟ إنه لأطهرُ وأنقى من الذهبِ الإبريزِ والنجيبْ!''.

أكملت ''سُـــلافة'' بفرحٍ وابتهاجْ: ''وُلِدَ النبيُّ ﷺ في مكةَ المكرمةِ في عامِ الفيلْ، عامَ أهلكَ اللهُ فيه أصـــحابَ الفيلِ بالطيرِ الأبابيلْ، وكان مولدهُ في شـــهرِ ربيعِ الأولِ في يومِ الاثنينِ الجميلْ، كما أخبرَ عن نفسِـه حين سُـئلَ عن صـومِه في ذلك اليومِ الجليلْ، فقال: ﴿ذَاكَ يَوْمٌ وُلِدْتُ فِيهِ﴾ [رواه مسلم]''.

الطفولةُ الباكية: يتيمُ الأبوينِ في زمنِ الجاهلية

صمتت ''سُلافة'' قليلاً، ثم قالت بصوتٍ يفيضُ حناناً وأسى: ''ولكن قبلَ أن يولدَ ســيدنا النبيُّ العظيمْ، مات أبوه ''عبدالله'' وهو لا يزالُ جنيناً في بطنِ أمِّه في يومٍ أليمْ، ثم ولدته أمُّه ''آمنةُ بنت وهب'' يتيماً حزينًا، لا أبَ له يُدللُه، ولا عائلَ يكفلُه ولا معينًا''.

ســأل الأرنبُ ''وَجيب'' بحزنٍ ولوعةْ: ''وكيفَ كانت طفولتُه يا سُــلافة؟ لابد أنها كانت صعبةً على طفلٍ صغيرٍ في تلك البقعةْ؟''.

أجابت ‘‘سُـــلافة’’ بصـــوتٍ دافئٍ حنونْ: ‘‘نعم يا وَجيب، لكن اللهَ أراد له أن يُربى تربيةً خاصةً في كلِّ شأنْ، أرضعتهُ حليمةُ السعديةُ في باديةِ بني سعدٍ مكانْ، فنشأ فصيحاً قوياً كالغصـــنِ الرطيبِ في الأغصـــانْ، ثم ردته إلى أمه، وعاش معها حتى بلغ الســـادســـةَ من الأزمانْ’’.

هنا تدخلتِ الغزالةُ ‘‘رَشاقة’’ بدموعٍ حارة: ‘‘وفي تلك السنِ المبكرة، ماتت أمُّه آمنة وهو عائدٌ معها من زيارةِ قبرِ أبيه في يثربَ بالأحزانْ، فعادَ يتيماً إلى مكةَ لا أبَ له ولا أمَّ ولا إخوانْ، فكفله جده عبدالمطلبُ الذي أكنَّه في الفؤادِ والوجدانْ’’.

أكملت ‘‘سُلافة’’ بحزنٍ عميقْ: ‘‘كان جده عبدالمطلب يحبُّه حباً شديداً يا رفاقْ، وكان يجلسه معه على فراشه بين الأرفاقْ، ويقول: ‘‘دعوا ابني، فواللهِ إن له لشأناً في الآفاقْ’’. لكن هذه الرعايةَ لم تدم طويلاً في الأيامْ، فتوفي عبد المطلب والنبيُّ ﷺ ابنُ ثمانِ ســـنينَ في تلك العامْ’’.

صاحَ الذئبُ ‘‘نَاب’’ متأثراً باكياً: ‘‘يا إلهي! طفلٌ صغيرٌ يفقدُ أباه ثم أمه ثم جده؟! كيفَ تحملَ هذا الصبرَ العظيمْ؟!’’.

أجابت ‘‘سُلافة’’: ‘‘انتقلَ بعدها إلى كفالةِ عمه أبي طالبٍ الكريمْ، الذي أحبه حباً عظيماً في الســـرِّ والعلنْ، ورباه مع أولاده وأحســـنَ إليه في كلِّ زمنْ، وكان له خيرَ كافلٍ ونصـــيرٍ ومعينْ’’.

الصبا والشباب: الصادقُ الأمينُ في القولِ والعمل

واصلت ‘‘سُلافة’’ بصوتٍ يملؤه الإعجابُ والجلالْ: ‘‘نشأ النبيُّ ﷺ نشأةً طيبةً في تلك الجبالْ، بعيدةً عن دنسِ الجاهليةِ والضلالْ، كان يعملُ في رعيِ الغنمِ كما قال ﷺ في

المقالْ: ﴿مَا بَعَثَ اللَّهُ نَبِيًّا إِلَّا رَعَى الْغَنَمَ﴾ [رواه البخاري]، وكان ذلك خلقاً له في الحضرِ والرحالْ''.

هنا تدخل الثعلبُ ''حِيَل'' وقال بإعجابٍ وتقديرْ: ''وكان معروفاً بين قومه بالصـــدقِ والأمانةِ في التعبيرْ، حتى لقبوه بـ''الصادقِ الأمين'' قبل البعثةِ والتنويرْ، يا له من لقبٍ عظيمٍ ونورٍ منيرْ! إنه أعظمُ وصفٍ يمكنُ أن يوصفَ به إنسانٌ في الدهورْ''.

أكملت ''سُـلافة'' بحماسٍ وابتهاجْ: ''ولما بلغ الخامســةَ والعشـرينَ من عمره الشـريفْ، ذهب إلى الشـامِ في تجارةٍ لخديجةَ بنتِ خويلدٍ في الأسـفارْ، وكان معها غلامٌ لها اسـمه ''ميسرة'' في تلك الديارْ، فرأى ميسرةُ من أخلاقه وأمانته ما جعله يحدثُ خديجةَ بما رأى من أنوارْ''.

صاحَ الفيلُ ''خَطَّار'' بدهشةٍ وإعجابْ: ''فرغبت في الزواجِ منه يا تُرى في تلك الأيامْ؟''.

أكملت ''سُـلافة'' بفرحٍ وسـرورْ: ''نعم يا خَطَّار، وكانت امرأةً شـريفةً ذاتَ مالٍ وجمالٍ وحضـورْ، فتزوجها النبيُّ ﷺ وكان عمرُه خمســاً وعشــرينْ، وكانت هي في الأربعينَ من السنينْ، إنها قصةُ زواجٍ طاهرةٍ يا أحبابْ، قامت على الأخلاقِ والصدقِ لا على المصالحِ الزائفةِ والأوهاقْ''.

البعثةُ النبوية: نورٌ من السماءِ يهبطُ على الغارْ

رفعت ''سُـلافة'' صـوتَها بخشـوعٍ وإيمانْ: ''ولما بلغ النبيُّ ﷺ الأربعينَ من عمره الشــــريفْ، كان قد حبب إليه الخلاءُ والانفرادُ والتحنيفْ، فكان يذهبُ إلى غارِ حراءٍ في جبلِ النورِ في كلِّ آنْ، يتعبدُ فيه الليالِيَ ذواتِ العددِ والزمانْ، يتفكرُ في خلقِ اللهِ وآياتِه في الأكوانْ''.

سأل القنفذُ ''شَوْك'' بفضولٍ واهتمامْ: ''وماذا حدثَ في ذلك الغارِ يا سُلافةُ في تلك الأيامْ؟''.

أكملت ''سُلافة'' بصوتٍ يجلجلُ بخشوعٍ وسلامْ: ''في ليلةٍ من ليالي شهرِ رمضانَ المبارك، جاءه الملَكُ جبريلُ عليه السلامُ في ذلك الدركْ، وقال له: ''اقرأ''. فقال النبيُّ ﷺ: ''ما أنا بقارئٍ في الأممْ''. قال: فأخذني فغطَّني حتى بلغ مني الجهدُ والألمْ، ثم أرسلني فقال: ''اقرأ''. فقلت: ''ما أنا بقارئٍ ولي علمْ''. فأخذني فغطَّني الثانيةَ حتى بلغ مني الجهدُ في الكتمْ، ثم أرسلني فقال: ''اقرأ''. فقلت: ''ما أنا بقارئٍ ولي فهمْ''. فأخذني فغطَّني الثالثةَ حتى بلغ مني الجهدُ والألمْ، ثم أرسلني فقال: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾ [العلق:1-3]''.

صاحَ الفيلُ ''خَطَّار'' بدهشةٍ وإعجابْ: ''يا إلهي! أيُّ لحظةٍ عظيمةٍ تلك التي اهتزَّ لها الوجودْ؟!''.

أكملت ''سُلافة'' بصوتٍ دافئٍ حميمْ: ''عاد النبيُّ ﷺ إلى خديجةَ يرجفُ فؤادُه من هولِ ما رأى من عظيمْ، فقال: ''زَمِّلُوني زَمِّلُوني'' في ذلك اليومِ العصيبْ. فلما ذهب عنه الروعُ والنحيبْ، أخبرَ خديجةَ بما رأى من العجيبْ''.

شهادةُ خديجة: أولُ المؤمنين

هنا تقدمتْ ناقةٌ عجوزٌ من بينِ الحيواناتْ، وقالت بصوتٍ يملؤه الفخرُ والبيانْ: ''أنا من نسلِ تلك الناقةِ التي كانت لخديجةَ بنتِ خويلدْ، وقد تناقلَ أجدادي عن أجدادِهم تلك القصةَ كما تروى وتعَدّ، قالت خديجةُ للنبيِّ ﷺ: ''كلا والله، لا يخزيك الله أبداً في الوجودْ، إنك لتصلُ الرحمَ وتحملُ الكلَّ وتكسبُ المعدومَ وتقري الضيفَ وتعينُ على نوائبِ الحقِّ والعهودْ، ثم ذهبت به إلى ابنِ عمها ''ورقة بن نوفل'' وكان رجلاً تنصرَ في الجاهليةِ والدهورْ، فلما أخبره النبيُّ ﷺ بما رأى من النورْ، قال: ''هذا الناموسُ الذي نزَّلَ اللهُ على

موسى في الصدورْ، يا ليتني فيها جذعاً أكونُ حياً في تلك العصورْ، ليتني أكونُ حياً إذ يخرجك قومك بالهجيرْ''. فقال النبيُّ ﷺ: ''أو مُخرجيَّ هم؟''. قال: ''نعم، لم يأتِ رجلٌ قط بمثل ما جئتَ به إلا عودي بالنفيرْ، وإن يدركني يومُك أنصرك نصراً مؤزراً كبيرْ'' ''.

الدعوةُ سراً وجهراً: ثلاثُ سنواتٍ من التربية

تابعت ''سُلافة'' بصوتٍ يرتفعُ وينخفضُ كالموجِ في البحرْ: ''ثم بدأتِ الدعوةُ سراً في تلك الفجرْ، فكان النبيُّ ﷺ يدعو من يثقُ بهم إلى الإسلامْ، فأسلمت خديجةُ بنت خويلدٍ أولَ الأيامْ، وعليُّ بن أبي طالبٍ وكان صبياً يعيشُ في بيته بلا لامْ، وزيدُ بن حارثةَ مولاه، وأبو بكرٍ الصديقُ وكان رجلاً محبوباً ذا جاه''.

صاحَ الثعلبُ ''حِيَل'' بذكاءٍ وفطنةْ: ''وأبو بكرٍ كان داعيةً إلى الإسلامْ، فأسلم على يديه جماعةٌ من الكرامْ: عثمانُ بن عفان، والزبيرُ بن العوامْ، وعبدالرحمن بن عوفٍ في الأيامْ، وسعدُ بن أبي وقاص، وطلحةُ بن عبيد اللهِ في المقامْ، وكان هؤلاء هم السابقون الأولونَ في الإسلامْ''.

سأل القنفذُ ''شَوْك'' بفضولٍ واهتمامْ: ''وكم استمرتِ الدعوةُ سراً يا تُرى في تلك الأيامْ؟''.

أجابت ''سُلافة'' بصوتٍ حكيمٍ فهَّامْ: ''استمرت ثلاثَ سنواتٍ حتى جاء الأمرُ من اللهِ العلّامْ، أن يجهرَ النبيُّ بالدعوةِ في الأنام، فصعدَ النبيُّ ﷺ على جبلِ الصفا ونادى في قريشٍ باهتمامْ، فلما اجتمعوا قال: ''أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تغيرَ عليكم، أكنتم مصدقي؟'' قالوا: نعم، ما جربنا عليك كذباً في القديم ولا الجديد، قال: ''فإني نذيرٌ لكم بين يدي عذابٍ شديدٍ''. فقام عمه أبو لهبٍ وقال: ''تباً لك، ألهذا جمعتنا؟!'' فأنزلَ اللهُ فيه سورةً تتلى إلى يومِ الدينْ: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ [المسد:1]''.

أذى المشركين: الصبرُ على الشدائد

صمتت ''سُلافة'' قليلاً، ثم قالت بصوتٍ يقطرُ ألماً وحزناً: ''وبعد الجهرِ بالدعوةِ في السـرِّ والعلنْ، بدأ أذى المشـركين يتصـاعدُ في كلِّ زمنْ، كانوا يؤذون النبيَّ ﷺ وأصـحابَه بأنواعِ العذابِ والمحنْ، فمنهم من يُلقى على الرمالِ الملتهبةِ في الفتنْ، ومنهم من يُوضَـــعُ الحجرُ على صدره في كلِّ سكنْ''.

سـألتِ الحمامةُ ''هَديل'' باكيةً بحسـرةٍ وحنينْ: ''وكيفَ كان يعاملون النبيَّ ﷺ نفسـه يا سُلافةُ في كلِّ حينْ؟''.

أجابت ''سُـلافة'' بصـوتٍ يفيضُ حزناً وأنينْ: ''كانوا يضـعون الشـوكَ في طريقهِ، ويسـفون الترابَ على رأســهِ، ويســخرون منه ويهزؤون به، وفي يومٍ من الأيام، ســجد النبيُّ ﷺ في المســجدِ الحرامِ في الأمانْ، فجاءَ عقبةُ بن أبي معيطٍ بوضــعِ سـلى الجزورِ على ظهره في الهوانْ، فما زال ساجداً حتى جاءت ابنته فاطمةُ فأزالتها عنه في الحالْ والزمان''.

زأر الأســدُ ''هَزْبَر'' بغضــبٍ عارمْ: ''يا للوقاحةِ والجرمْ! كيفَ يتجرؤون على نبيٍّ كريمٍ في الأممْ؟!''.

أكملت ''سُلافة'' بصوتٍ خفيضٍ كالنسيمْ: ''واشتدَّ البلاءُ على المسلمينَ في تلك الأيامْ، فأذن لهم النبيُّ ﷺ بالهجرةِ إلى الحبشـةِ بلا ملامْ، وقال لهم: ''إن بها ملكاً لا يظلمُ عنده أحدٌ في الأنامْ''. فهاجر إلى الحبشةِ صحابتُه، وبقي النبيُّ ﷺ في مكةَ يواصلُ دعوتَه''.

عامُ الحزن: وفاةُ خديجةَ وأبي طالب

خفضت ''سُلافة'' صوتَها بحزنٍ وأسى، والدموعُ تترقرقُ في عينيها: ''وفي عامٍ واحدٍ من الزمنْ، توفيت خديجةُ بنت خويلدٍ زوج النبيِّ ﷺ التي كانت نعمَ السـندِ والعون، وتوفي أيضاً عمُّه أبو طالبٍ الذي كان يحميه ويدافعُ عنه في كلِّ مكانْ، فاشتدَّ حزنُ النبيِّ ﷺ في

ذلك الزمانْ، وازداد أذى المشركين عليه في كلِّ آنْ، سُميَ هذا العامُ بـــ''عامِ الحزن'' في البيانْ''.

صاحَ الذئبُ ''نَاب'' بتأثرٍ وحنينْ: ''يا إلهي! عامٌ واحدٌ يفقدُ فيه النبيُّ ﷺ أعزَّ الناس إليه في الحنينْ، وتتوالى عليه المصائبُ في كلِّ حينْ!''.

رحلةُ الإسراء والمعراج: معجزةُ الزمانِ والمكان

ارتفع صوتُ ''سُلافة'' بخشوعٍ وإيمانْ: ''وفي هذا العامِ الحزينِ، أسرى اللهُ بنبيه ليلاً من المسجدِ الحرامِ إلى المسجدِ الأقصى في ليلة ظلماء، ثم عرج به إلى السماء، قال تعالى في محكمِ البيانْ: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾ [الإسراء:1]''.

سأل النمرُ ''أَرْقَط'' بدهشةٍ وفضولْ: ''وكيفَ كانت هذه الرحلةُ يا تُرى في تلك الأصولْ؟''.

أكملت ''سُلافة'' بصوتٍ يفيضُ نوراً وجلالْ: ''ركب النبيُّ ﷺ دابةً تسمى ''البُراق'' في الحالْ، فوصل إلى بيتِ المقدسِ في تلك الليالْ، وصلى بالأنبياءِ إماماً في ذلك المجالْ، ثم عرج به إلى السماءِ في الأجواءْ، فرأى الأنبياءَ فيها في كلِّ ثواءْ: آدمَ في السماءِ الدنيا الحادية، ويحيى وعيسى في السماء الثانية، ويوسفَ في الثالثةِ في النقاءْ، وإدريسَ في الرابعةِ في الصفاءْ، وهارونَ في الخامسةِ، وموسى في السادسةِ، وإبراهيمَ في السابعةِ في النقاء، ثم رُفِع إلى سدرةِ المنتهى في العلياءْ، ورأى من آياتِ ربهِ الكبرى في الأرجاءْ، وفرضَ اللهُ عليه وعلى أمته الصلواتِ الخمسَ في ذلك المساءْ، ثم عاد إلى مكةَ في نفسِ الليلةِ في الظلماء''.

بيعةُ العقبة: طريقُ النصرِ والابتهاج

واصلت ''سُلافة'' بحماسٍ وابتهاجْ: ''وفي موسمِ الحجِّ في تلك الأعوامْ، جاء نفرٌ من أهلِ يثربَ إلى النبيِّ ﷺ في المقامْ، فبايعوه بيعةَ العقبةِ الأولى في تلك الأيامْ، ثم جاءوا في العامِ التالي في الاحتشادْ، فبايعوه بيعةَ العقبةِ الثانيةِ في الفؤادْ، وطلبوا منه أن يأتي إليهم ويصيرَ بين أظهرهم في البلادْ، فأذن النبيُّ ﷺ للمسلمين بالهجرةِ إلى المدينةِ والاتحادْ''.

الهجرةُ النبوية: حدثُ التاريخِ العظيم

رفعت ''سُلافة'' صوتَها بحماسٍ وتشويقْ: ''وبدأ الصحابةُ يهاجرون أفواجاً إلى المدينةِ في الطريقْ، حتى لم يبقَ بمكةَ إلا النبيُّ ﷺ وأبو بكرٍ الصديقْ وعليٌّ بن أبي طالبٍ في الضيقْ، فلما رأت قريشٌ ذلك، اجتمعوا في دارِ الندوةِ واتفقوا على قتلِ النبيِّ ﷺ في داره، فأرسلوا إليه رجالاً من كلِّ قبيلةٍ ليضربوه ضربةَ رجلٍ واحدٍ في جسده وإقراره، فأوحى اللهُ إلى نبيه بذلك المقال، وأمره بالهجرةِ في الحالْ''.

سأل الأرنبُ ''وَجيب'' بلهفةٍ وخوفْ: ''وكيفَ اختبأ النبيُّ ﷺ عنهم في ذلك الرديفْ؟''.

أكملت ''سُلافة'' بصوتٍ مشوقٍ رفيفْ: ''خرج النبيُّ ﷺ من بيته، وعليٌّ نائمٌ على فراشه بلا تصريفْ، وقد أعمى اللهُ أبصارَ المشركين في تخويفْ، فكان يمر بهم وهو يذرُّ الترابَ على رؤوسهم دون شعور، ثم ذهب إلى بيتِ أبي بكرٍ في بكور، ومعهما عبدالله بن أريقطَ دليلاً في التعريفْ، واتجها إلى غارِ ثورٍ في جبلٍ وعرٍ في التصريفْ. فدخلا الغارَ واختبآ فيه في تلطيف''.

هنا تدخل البومُ ''بَصير'' بحكمتهِ العميقةْ: ''وفي الغارِ حدثتِ القصةُ العظيمةُ التي نرويها للأجيالِ في كلِّ صديقةْ، جاء المشركون حتى وقفوا على فمِ الغارِ في كلِّ جهةْ، فقال أبو

بكرٍ خائفاً: يا رســـول الله، لو نظر أحدهم تحت قدميه لرآنا من هذه الفُوّهة، فقال النبيُّ ﷺ بثقةِ اليقينِ في كلِّ حالةْ: ﴿مَا ظَنُّكَ بِاثْنَيْنِ اللَّهُ ثَالِثُهُمَا﴾ [رواه البخاري]''.

الاستقبالُ في المدينة: الإخاءُ والبناءُ في الأفراحْ

تابعت ''سُـلافة'' بصـوتٍ مشـرقٍ كالصـباحْ: ''وصـل النبيُّ ﷺ إلى المدينةِ في ذلك الصباحْ، فاستقبله الأنصارُ بالأفراحْ، وأنشدوا في حبِّه أروعَ الأشعارِ والأقوالْ:

طَلَعَ الْبَدْرُ عَلَيْنَا ... مِنْ ثَنِيَّاتِ الْوَدَاعْ

وَجَبَ الشُّكْرُ عَلَيْنَا ... مَا دَعَا لِلَّهِ دَاعْ

أَيُّهَا الْمَبْعُوثُ فِينَا ... جِئْتَ بِالْأَمْرِ الْمُطَاعْ

وبنى النبيُّ ﷺ مســجدَه الشـريفَ في المكانْ، وآخى بين المهاجرين والأنصــارِ بالإيمانْ، وكتب وثيقةً بين المسلمين واليهودِ بالأمانْ، تنظمُ الحياةَ في المدينةِ في كلِّ شـأنْ، وتضـمنُ الحريةَ للجميعِ في الجنانْ''.

غزواتُ النبي: دفاعٌ عن الوجودِ والإيمان

رفعت ''سُـلافة'' صـوتَها وهي تروي سـلسـلةَ الغزواتْ: ''ولم يمضِ وقتٌ طويلٌ في الأوقاتْ، حتى بدأتِ الغزواتُ دفاعاً عن الإسلامِ والمسلمينَ في الحالاتْ''.

غزوةُ بدر: أولُ انتصارٍ في الميدانْ

بدأت ''سُـلافة'' بحماسٍ وبيانْ: ''في السـنةِ الثانيةِ للهجرةِ، كانت غزوةُ بدرٍ الكبيرة، خرج المسـلمون وهم ثلاثمئةٍ وثلاثةَ عشـرَ رجلاً في الامتحانْ، ليس معهم إلا سـبعون بعيراً

وفرسان، وخرج المشركون بألفِ رجلٍ بعدتهم كاملين، ولكن اللهَ نصرَ عباده المؤمنين. قال تعالى في القرآنْ: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ [آل عمران:123] في البيانْ''.

سأل القردُ ''صَفْصَف'' بحماسٍ وشوقْ: ''وكيفَ كان النبيُّ ﷺ القائد في ذلك الطريقْ؟''.

أجابت ''سُلافة'' بفخرٍ واعتزازْ: ''كان النبيُّ ﷺ يتفقدُ قبل المعركةِ ويصُفّ الصفوف، وبيده قدح يسوي به القومَ بالمعروف، مرَّ بالصحابي ''سواد بن غزية'' وهو خارجٌ عن الصفِّ، فطعنه بالقدحِ في بطنه وقال: ''استوِ يا سواد'' بالخف، فقال سوادٌ: أوجعتني يا رسول الله، وقد بعثك اللهُ بالحقِّ في الإعزازْ، فأقدني في الانتقامْ، فكشف النبيُّ ﷺ عن بطنه وقال: ''استقد'' في المقام، فاعتنقه سوادٌ وقبَّل بطنه الشريفةَ في الاحترامْ، وقال: يا رسول الله، هذا آخرُ العهدِ بك في الأيامْ، فأردت أن يمسَّ جلدي جلدَك والعظام، فدعا له النبيُّ ﷺ بخيرٍ في الختامْ''.

غزوةُ أحد: درسُ الصبرِ والالتزامْ

تابعت ''سُلافة'' بصوتٍ خفيضٍ كالغمامْ: ''وفي السنةِ الثالثةِ في الإحكامْ، كانت غزوةُ أحدٍ في الأيامْ، انتصر المسلمون في بدايةِ المعركةِ في الاحتشادْ، حتى أخطأ الرماةُ فخالفوا أمرَ النبيِّ ﷺ فانقلب النصرُ هزيمةً في الفؤاد، واستشهد من المسلمين سبعون رجلاً في الجهادْ، وفي مقدمتهم حمزةُ بن عبدالمطلبِ أسدُ اللهِ وأسدُ رسولِهِ دون مسلكة، وشُجَّ رأسُ النبيِّ ﷺ في المعركة، وكُسرت رباعيتهُ لذلك السبب، وصبرَ النبيُّ ﷺ واحتسبَ''.

غزوةُ الأحزاب: المكرُ الإلهيُ في العمادْ

أكملت ''سُلافة'' بحماسٍ واتقادْ: ''وفي السنةِ الخامسةِ في الأبعادْ، اجتمع المشركون واليهودُ ومنافقو العربِ، في جيشٍ عرمرمٍ لنفس السبب، يريدون استئصالَ المسلمينَ في البلادْ، فأشار سلمانُ الفارسيُ بحفرِ خندقٍ حول المدينةِ والاتحادْ، فحفره

المسلمونَ وهم راجون النصر، وكان النبيُّ ﷺ يشاركهم في الحفر، ويقول وهو ينقلُ الترابَ: ''اللهم لا عيشَ إلا عيشُ الآخرةْ، فاغفر للأنصـــارِ والمهاجرةْ''. فأرســـل اللهُ عليهم ريحاً وجنوداً مختلفين، فانهزموا وولوا مدبرين''.

صلحُ الحديبية: فتحٌ مبينٌ في العبادةْ

واصلت ''سُلافة'' بصوتٍ رفيعٍ في الإفادةْ: ''وفي السنةِ السادسةِ من الهجرة في السنين، خرج النبيُّ ﷺ مع أصحابه إلى مكةَ معتمرين، فمنعهم المشركونَ وطلبوا الإبعادْ، فجرى صلحُ الحديبيةِ المستفاد، وكان في ظاهرِهِ إجحافاً بالمسلمين، لكن اللهَ سماه بالفتح المبين، فقد تمكن المسلمون بعدها من نشرِ دعوتهم في العالمين''.

فتحُ خيبر: القضاءُ على اليهودِ في الجهادْ

أضافت ''سُلافة'' بصوتٍ قويّ: ''وفي السنةِ السابعةِ الهجرية، غزا النبيُّ ﷺ الذين كانوا يثيرون الفتنَ وهم خيبر اليهودية، وفتح حصـــونهم في الجهادْ، وأعطى اللهُ الرايةَ لعليِّ بن أبي طالب، ففتحها على يديه نِعمَ المحارب''.

فتحُ مكة: النصرُ المبينُ

ارتفع صوتُ ''سُلافة'' بخشوعٍ وسدادْ: ''وفي السنةِ الثامنةِ هجرية، نقضت قريشٌ صلحَ الحديبية، فخرج النبيُّ ﷺ في عشرةِ آلافِ مقاتلٍ في الجهادْ، حتى دخل مكةَ فاتحاً البلادْ، ودخل المسجدَ الحرام، وحول الكعبةِ ثلاثمئةٌ وستون صنماً من الأصنام، فجعل يطعنها بعودٍ في يده ويقول في الآياتْ: ﴿جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء:81] في الأوقاتْ، فسقطت الأصنامُ تسقطُ في الحالاتْ''.

أكملت ''سُـــلافة'' بفرحٍ وابتهاجْ: ''ثم وقف على بابِ الكعبةِ في الازدحامْ، وقريشٌ تنتظرُ ما ســـيفعل بهم في الخصـــامْ، فقال: ''ما تظنون أني فاعلٌ بكم في هذا المقامْ؟''.

قالوا: خيراً، أخٌ كريمٌ وابنُ أخٍ كريمٍ على مر الأيامْ، فقال: ''اذهبوا فأنتم الطلقاءُ'' في الختامْ''.

صاحَ الأسدُ ''هَزْبَر'' بإعجابٍ وتقديرْ: ''يا له من عفوٍ عظيمٍ فيه تقديرْ! يدخلُ بلده الذي أخرجوه وعذبوه فيه بكل تعبيرْ، فيقول: اذهبوا فأنتم الطلقاءُ!''.

حجةُ الوداع: الخطبةُ الخالدةُ في البيانْ

واصلت ''سُلافة'' بصوتٍ يملؤه الحنينُ والحنانْ: ''وفي السنةِ العاشرةِ في الاتساع، حج النبيُّ ﷺ حجةَ الوداع، وخطب في الناسِ خطبةً عظيمةً في البيانْ، قال فيها: ''أيها الناس، اسمعوا قولي، فإني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا في المكانْ، أيها الناس، إن دماءَكم وأموالَكم عليكم حرامٌ إلى أن تلقوا ربكم بأمانْ، أيها الناس، لكم على نسائكم حقٌّ، ولهن عليكم حقٌّ، أيها الناس، إن ربكم واحدٌ، وإن أباكم واحدٌ، كلكم لآدمَ وآدمُ من ترابٍ في البيانْ، لا فضلَ لعربيٍ على عجميٍ إلا بالتقوى في الإيمانْ'' إلى أن أكمل خطبته بأوضح تبيان، ثم سألهم: ''ألا هل بلغتُ في البيانْ؟''. قالوا: اللهم نعم في الإيقانْ. فقال: ''اللهم اشهدْ'' في الختامْ''.

الوفاةُ النبوية: الفاجعةُ الكبرى في الإسلامْ

خفضت ''سُلافة'' صوتَها باكيةً بحزنٍ وأسى، والدموعُ تترقرقُ في عينيها كالسواقي: ''وبعد أن أتمَّ اللهُ به الدينَ وأكملَ النعمةَ في الأكوانْ، اشتكى النبيُّ ﷺ في أواخرِ شهرِ صفرٍ من السنةِ الحاديةَ عشرةَ في ذا الزمانْ، واشتدَّ به المرضُ في كلِّ آنْ، وكان في بيتِ عائشةَ أم المؤمنين، وفي يومِ الاثنينِ خرج إلى الناسِ وهم يصلونَ خاشعين، فكشف الستار ونظر إليهم، وتبسم لما رأى صفوفهم، فظن الناسُ أنه قد برئَ بدنه الشريف، فصلى ثم عاد إله الألم دون تخفيف ''.

صمتت ‘‘سُلافة’’ قليلاً، والدموعُ تجري على خدودِ الحيواناتْ، ثم قالت بصوتٍ متهدجٍ باكٍ: ‘‘وفي ذلك اليومِ العصيبِ الأكحل، يومِ الاثنينِ الثاني عشرَ من ربيعٍ الأولِ، وفي ضحى ذلك اليوم تتالت الآهاتْ، قبض اللهُ روحَ نبيه الطاهرةَ في الغرفاتْ، فخرج عمرُ بن الخطابِ إلى الناسِ وهو يقولُ: ‘‘إن رجالاً من المنافقينَ يزعمونَ أن رسولَ اللهِ مات، وإن رسولَ اللهِ ما مات، ولكن ذهبَ إلى ربه كما ذهبَ موسى بن عمران’’.

حتى جاء أبو بكرٍ الصِّدِّيقُ، فدخل على النبيِّ ﷺ الصَّديق، وقبَّل وجهه بحسراتْ، وقال: (بأبي أنت وأمي، طبتَ حياً وميتاً) ثم خرج إلى الناسِ وقال في الكلماتْ: ‘‘أيها الناس، من كان يعبدُ محمداً، فإن محمداً قد ماتَ، ومن كان يعبدُ اللهَ، فإن اللهَ حيٌّ لا يموتُ في الأزمانْ والأزماتْ’’، وتلا عليهم في الآياتْ: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ ۚ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ﴾ [آل عمران:144]’’.

رثاءُ الصحابة: دموعُ الفراقِ في الحسراتْ

رفعت ‘‘سُلافة’’ صوتَها وهي تنشدُ بعضَ ما قاله الصحابةُ في رثاءِ النبيِّ ﷺ في الأوقاتْ:

بِطَيْبَةَ رَسْمٌ لِلرَّسُولِ وَمَعْهَدُ ... مُنِيرٌ وَقَدْ تَعْفُو الرُّسُومُ وَتَهْمُدُ

وَلا تَمْحَى الآيَاتُ مِنْ دَارِ حُرْمَةٍ ... بِهَا مِنْبَرُ الْهَادِي الَّذِي كَانَ يَصْعَدُ

وقال:

فَمَا فَقَدَ الْمَاضُونَ مِثْلَ مُحَمَّدٍ ... وَلا مِثْلَهُ حَتَّى الْقِيَامَةِ يُفْقَدُ

أَعَفَّ وَأَوْفَى ذِمَّةً بَعْدَ ذِمَّةٍ ... وَأَقْرَبَ مِنْهُ نَائِلاً لا يُنَكَّدُ

الموعظةُ الختامية: دروسٌ من سيرةِ خيرِ البشر

نظرت ''سُـــلافة'' إلى الحيواناتِ وقد أخذهم الحزن والدموعُ تجري على خدودهم كالمطر، وقالت ببلاغة في الختام ودموعها تنهمر: ''يا كرام، هذه هي قصـةُ خاتمِ الأنبياءِ والمرسلينْ، رحمةُ اللهِ للعالمينْ، لقد أرسله اللهُ بشيراً ونذيراً في الأنامْ، وداعياً إلى اللهِ بإذنه وســـراجاً منيراً في الظلامْ، علمنا ديننا، وأخرجنا من الظلماتِ إلى النورِ، علَّمنا كيف نعبدُ ربنا، وكيف نعاملُ بعضنا بوُدٍّ وسرور، وكيف نكونُ رحمةً للعالمينْ في دنيا الغرور''.

وقال الأسدُ ''هَزْبَر'' بصوتٍ خفيضٍ يملؤه الخشوع: ''فتعلموا من سيرته، واقتدوا بأخلاقه، كونوا صـادقينَ كما كان صـادقاً في الكلامْ، أمناءَ كما كان أميناً في الأنامْ، رحماءَ كما كان رحيماً، صـابرينَ كما كان صـبوراً كريما، أحبوه كما أمرنا ربنا في القرآنْ، فمن أحبه كان معه في الجنانْ، وصلوا عليه وسلموا تسليماً في كلِّ أوانْ''.

أضـافت ''سُـلافة'' وهي تمسـح دموعها وتقول بمعرفةٍ وبيانْ: ''انظروا إلى أهل هذا الزمانْ، كم هم بحاجةٍ إلى الاقتداءِ بهذا النبيِّ الكريمِ في الإيمانْ، ترى الناسَ يبحثون عن الســعادةِ في الجاهِ والشــهرة والمال، وهي في ســيرة نبينا محمدٍ ﷺ في كل حال، فلو اتبعوا ســنته الوافرة، لسعدوا في الدنيا والآخرةِ''.

تابعت بتحذيرٍ وعظةْ: ''وكما هاجر النبيُّ ﷺ من مكةَ إلى المدينةِ في ثبات، يجب علينا أن نهاجرَ من المعاصــي إلى الطاعات، ومن الذنوبِ إلى التوبة والاســتغفار بكثرة من دون قلةْ، ومن الغفلةِ إلى الذكرِ والصــلواتِ في الحلةْ، وكما آخى بين المهاجرين والأنصـــارِ في صفاء، يجب علينا أن نتآخى في اللهِ ونتعاونَ على البرِّ والتقوى بالوفاءْ''.

ختامُ الفصل الأخير: دعاءٌ وتضرعٌ في السماءْ

رفعتِ الحمامةُ "هَديل" رأسَها إلى السماءِ بدموعٍ غزيرةْ، وقالت بصوتٍ ندِيٍّ خاشعٍ يقطرُ إيماناً ونوراً ونضـرةْ: "اللهمَّ صـلِّ على سـيدنا محمدٍ وعلى آلِ سـيدنا محمدْ، كما صليتَ على سيدنا إبراهيمَ وعلى آلِ سيدنا إبراهيمَ، اللهم باركْ على سيدنا محمدٍ وعلى آلِ سـيدنا محمدْ، كما باركتَ على سـيدنا إبراهيمَ وعلى آلِ سـيدنا إبراهيمَ في العالمينْ، إنك حميدٌ مجيدٌ".

وأمَّن الجميعُ على دعائها بدموعٍ خاشعة وقلوبٍ خاضعةْ، وقالوا جميعاً: "اللهمَّ صلِّ وسلم وبارك على سيدنا محمدٍ وعلى آله وصحبه أجمعينْ، والحمدُ للهِ ربِّ العالمينْ".

ثم تفرقوا في أمانِ اللهِ ورعايتِه وحفظِه ورحمتِه، وكلٌّ يحملُ في قلبِه نورَ هذه القصةِ العظيمةْ، وعبرَ هذه الرحلةِ المباركةِ الكريمةْ، راجينَ من اللهِ أن يجمعهم بنبيهم في جناتِ النعيمْ، مع النبيينَ والصديقينَ والشهداءِ والصالحينْ، وحسنَ أولئك رفيقاً في الخلودِ الدائمْ.

خاتمة الرواية

مجلس الغابة ورحلة عبر الأزمان، نهايةُ المطاف، وعبرةُ لمن اعتبر، وخيرُ الكلام ما قلَّ ودلَّ واختصر.

بعد أن سارت بنا الركبانُ في رحلةٍ عبرَ الزمان، وجُبنا فيها فصولاً ستةَ عشرَ من البيان، نلتقي وإياكم في خاتمةِ المطاف، ونهايةِ الأشتاتِ والأطراف، ها نحن نودعُ مجلسَ الغابةِ تحتَ السدرةِ العتيقة، حيثُ اجتمعتِ الحيواناتُ الكرام، وتناقشت في قصصِ الأممِ السابقة، وتفكرت في عظاتِ الغابرين وما جرى لهم من أيام.

لقد مرَّت بنا قصصُ الأنبياءِ والمرسلين، وما لاقوه من أقوامهم من جحودٍ وتكذيبٍ واستهانة، ومرَّت بنا قصصُ الطغاةِ والجبابرة، وما آل إليه أمرهم من هلاكٍ وخسارة، ومرَّت بنا قصصُ المؤمنين الصادقين، وما نالوه من نصرٍ وتمكين، وفي كلِّ قصةٍ عبرة، وفي كلِّ موقفٍ عظة، وفي كلِّ حوارٍ حكمةٌ تتجلى.

تلك هي سنةُ اللهِ في خلقه، لا تتبدلُ ولا تتغير، ولا تحابي فيها غنيٌّ ولا فقير، ولا ملكٌ ولا وزير، فالظالمُ مصيرُه إلى زوال، والمتكبرُ عاقبتُه إلى وبال، والمحتالُ كيدُه في ضلال، والمؤمنُ الصادقُ له النصرُ والجلال.

وها نحن الآن نفارقُ هذه الحيواناتِ الأليفة، ونودعُ تلك الأصواتَ الندية: نودعُ سُلافةَ الحكيمةَ برواياتها، وهَزْبَرَ الأسدَ بزئيره ومُلْكه، وحِيَلَ الثعلبَ بدهائه، وهَديلَ الحمامةَ بنقائها، وبَصيرَ البومَ بحكمته، وخَطَّارَ الفيلِ برزانته، وصَفْصَفَ القردَ بحيويته، ونَابَ الذئبِ بغضبه، ورَشاقةَ الغزالةَ برقتها، وشَوْكَ القنفذِ بحذره، وسَدَّادَ القندسَ بإتقانه، وأَرْقَطَ النمرَ

بفضـوله، ووَجيبَ الأرنبَ ببراءته، وغَوَّاصَ ثعلبِ الماءِ بحبه للصـيد، ونَعَّابَ الغرابَ بصـوته الأجش، ومِخلَبَ الصقرَ بنظَرِه الحادّ.

لقد كانوا لنا نعمَ الرفقاء، في هذه الرحلةِ الشـائقة، وقدَّموا لنا من الحكمةِ ما يفوقُ كلَّ حد، وأتحفونا من العبرِ بما يثلجُ الصدرَ ويرتقي بالفكر.

وإذا كانَ المجلسُ قد انتهى، فإنَّ العبرةَ لا تموت، والحكمةَ لا تغيب، والقصـــصَ لا تُنســـى ما دامتِ القلوبُ تنبضُ والحروفُ تُكتب، وإننا إذ نضـــعُ بين أيديكم هذا العملَ المتواضـــع، نرجو من اللهِ أن يكونَ خالصـــاً لوجهِه الكريم، وأن ينفعَ به كاتبَه وقارئَه، وأن يكونَ نوراً يهدي إلى سواءِ السبيل.

وختاماً، نقولُ كما قالَ الأولون والآخرون:

الحمدُ للهِ الذي بنعمتِه تتمُّ الصـالحات، والصـلاةُ والسـلامُ على خيرِ البريات، سـيدنا محمدٍ وعلى آله وصحبِهِ ومن تبعه إلى يومِ الممات.

وما كانَ من صوابٍ فمن اللهِ وحده، وما كانَ من خطأٍ فمن نفسي والشيطان، واللهُ ورسولُه منه براء.

وآخرُ دعوانا أنِ الحمدُ للهِ ربِّ العالمين، وصـلى اللهُ على سـيدنا محمدٍ وعلى آله وصـحبِهِ أجمعين، وسلمَ تسليماً كثيراً إلى يومِ الدين.

تمت بحمدِ اللهِ وتوفيقِه

وإلى لقاءٍ آخرَ مع قصــصٍ وعبرٍ وحكاياتْ، في مجالسَ أخرى وفي أوقاتْ، نســألُ اللهَ أن يجمعنا بكم على الخيرِ والبركاتْ، إنه سميعٌ مجيبُ الدعواتْ.

قائمة المصادر والمراجع

رواية "مجلس الغابة ورحلة عبر الأزمان قصصُ الأنبياءِ والعبرُ في ندوةِ الأحِبَّة"

أولاً: القرآن الكريم

القرآن الكريم، بالروايات المتواترة، وقد وردت آياته في جميع فصـــول الرواية، مع ذكر اسم السورة ورقم الآية في كل استشهاد.

ثانياً: كتب التفسير

1. تفسير ابن كثير) عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي – (اعتمد في شرح آيات قصص الأنبياء وتفصيل أحداثها .

2. تفســير الطبري) جامع البيان عن تأويل آي القرآن – (للإمام محمد بن جرير الطبري، اعتمد في تفسير آيات القصص القرآني.

3. تفســير القرطبي) الجامع لأحكام القرآن – (لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، استفيد منه في تفسير آيات الأنبياء وقصصهم .

4. تفسير ابن أبي حاتم – لأبي محمد عبد الرحمن بن محمد الرازي ابن أبي حاتم، في بعض الآثار الواردة في قصص الأنبياء.

ثالثاً: كتب الحديث الشريف

1. صحيح البخاري – للإمام محمد بن إسماعيل البخاري، خاصة:

- كتاب بدء الوحي

- كتاب أحاديث الأنبياء
- كتاب المناقب
- كتاب المغازي

2. صحيح مسلم – للإمام مسلم بن الحجاج النيسابوري، خاصة:

- كتاب الإيمان
- كتاب الفضائل
- كتاب الزهد والرقائق

3. سنن الترمذي – لأبي عيسى محمد بن عيسى الترمذي

4. مسند الإمام أحمد – لأحمد بن حنبل

رابعاً: كتب السيرة النبوية

1. السيرة النبوية لابن هشام – لأبي محمد عبد الملك بن هشام المعافري، اعتمد في سيرة النبي ﷺ وأخبار السابقين .

2. الرحيق المختوم – للمباركفوري، في سيرة النبي ﷺ.

3. فقه السيرة – للبوطي.

4. سيرة ابن إسحاق – لمحمد بن إسحاق المطلبي.

خامساً: كتب التاريخ

1. تاريخ الطبري) تاريخ الأمم والملوك – (لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري، في أخبار الأمم السابقة وملوكها .

2. البداية والنهاية – لابن كثير الدمشقي.

3. السلوك لمعرفة دول الملوك – للمقريزي، في قصة هولاكو وقطز.

سادساً: كتب قصص الأنبياء

1. قصص الأنبياء لابن كثير – للحافظ ابن كثير، وهو المصدر الأساسي لقصص الأنبياء في الرواية .

2. قصص الأنبياء للثعلبي – لأبي إسحاق أحمد بن محمد الثعلبي.

3. عرائس المجالس) قصص الأنبياء – (للثعلبي.

سابعاً: كتب اللغة والأدب

1. ديوان شمس الدين الكوفي – في رثاء بغداد.

2. ملء العيبة – لابن رشيد الفهري، في قصائد الحروب الصليبية.

3. معجم البلدان – لياقوت الحموي، في ذكر المواضع والأماكن.

ثامناً: مصادر تاريخية معاصرة

1. تقارير منظمة أوكسفام الدولية – حول ضحايا العدوان على فلسطين.

2. قائمة المجازر الإسرائيلية في فلسطين – من مصادر موثقة.

3. الجزيرة نت" – الجذور الفكرية لعقيدة الإبادة الصهيونية".

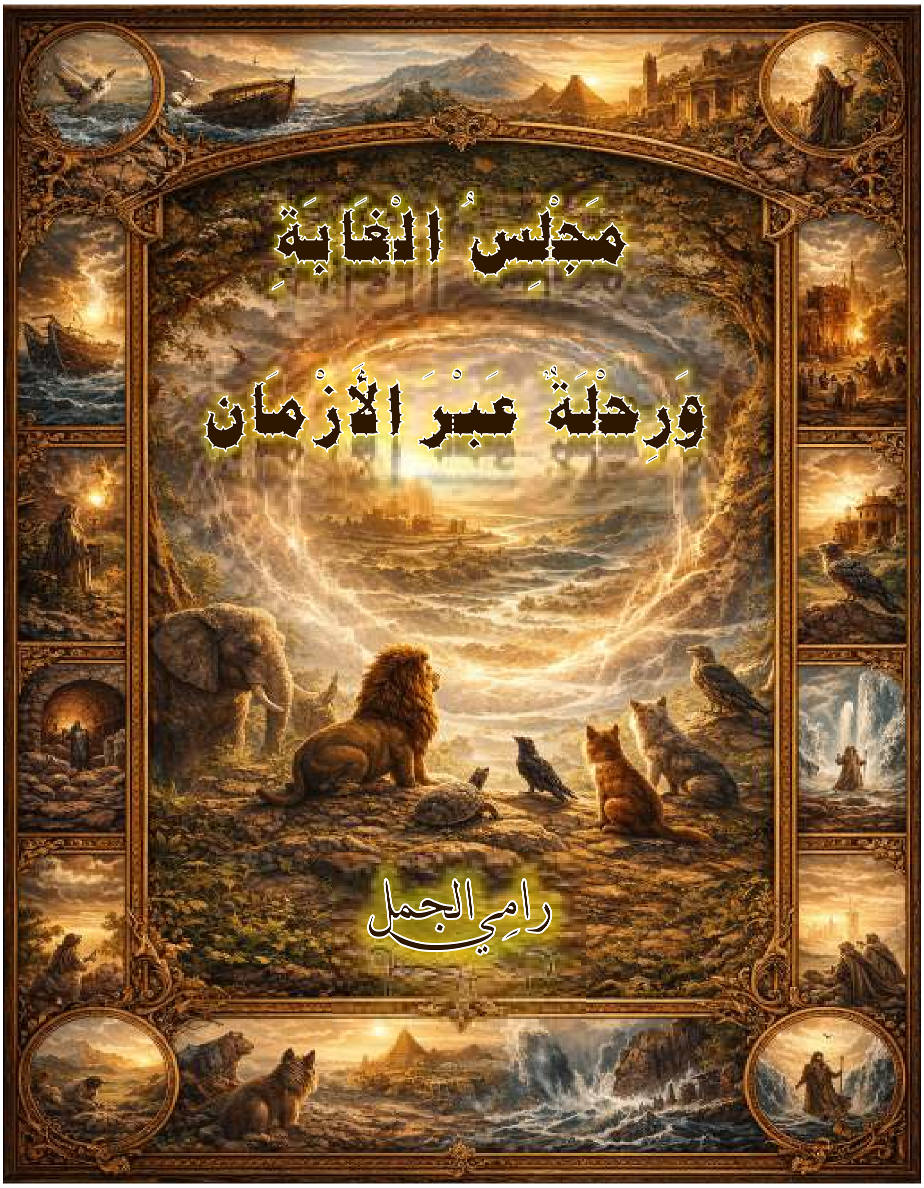
تاسعاً: مراجع إضافية

1. المصاحف - لأبي بكر عبد الله بن سليمان بن الأشعث السجستاني.

2. مقدمة ابن خلدون - في العبرة من قصص الأمم.

3. وفيات الأعيان - لابن خلكان .

الفهرس



Email: BOSTAN.ELQORAAN@GMAIL.COM

Whasapp: +213775750722